مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السابعة والعشرون . العدد ٣٠٠ . شعبان ١٤٣٣ هـ . يوليو ٢٠١٢ م

ألوان العذاب
في سجون «إسرائيل»

تحرير موقف الصحابة
من المرتدين

فتوى الشيخ ناصر العمر
في حكم المشاركة في الإنتخابات

دولة الباطنية المتحدة

أنغام الديقراطية وألغامها

مجلة البيان

الآن
مجاناً
على آبل ستور
لفترة محدودة

واجهه خدمية مميزة

تقويم: هجري/ميلادي

أوقات الصلاة

اتجاه القبلة

والعديد من الخدمات المميزة

Available on the iPhone App Store

www.albayan.co.uk

مستشفى أبها الخاص
Abha Private Hospital

استعادة مقاييس الصحة والجمال

الآن أقرب من أي وقت مضى..

وحدة جراحات السمنة

بإشراف الدكتور محمد با وهاب
استشاري جراحة السمنة

وحدة جراحة التجميل والحروق

بإشراف الدكتور أيمن فرحات
استشاري جراحة التجميل

www.aph.med.sa

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

الافتتاحية

٤ **الإسلاميون... بين أنظمة الديمقراطية وألغامها**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **موجة الشك واليقين المعرفي**
جمعان بن محمد الحصيني
١٤ **المصطلحات**
د. هاني بن عبد الله الجبير

قضايا دعوية

٢٠ **الحسبة بين مطرقة الصبر وسندان المجتمع**
إسلام السيد علي

قضايا تربوية

٢٢ **تدريس العقيدة على طريقة الربانيين!**
سحر أبو شعرة

كلمات في المنهج

٢٨ **حكم تكوين الأحزاب والمشاركة في الانتخابات**
أ. د. ناصر بن سليمان العمر

الإسلام لعصرنا

٣١ **الانتماء إلى الوطن أم إلى المبدأ**
أ. د. جعفر شيخ إدريس

مسارات فكرية

٣٢ **تحرير موقف الصحابة من المرتدين**
سلطان العميري

تحقيقات

٤٠ **ألوان العذاب في سجون «إسرائيل»**
أحمد أبو دقة

قصة قصيرة

٤٤ **ولادةُ الفجر...**
نجيبة بوغندة

عاجل إلى الإسلاميين

٤٦ **الشعب يريد إعادة التأهيل**
أحمد فهمي

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ
هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk
YouTube | |

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

المسلمون والعالم

٤٨ **مجزرة الحولة... هل تكون نقطة تحول في سورية؟** هيثم محمد الكناني

٥٢ **دولة الباطنية المتحدة** د. يوسف بن صالح الصغير

٥٦ **التدافع الدولي نحو «القرن الإفريقي»...** د. نجلاء مرعي

٦٢ **إسرائيل تُهجِّر الفلسطينيين مِن النقب** حسن بن محمد

٦٤ **مبدأ «المساءلة» بين الشرعية والمزايدة العلمانية** مصطفى محمد الحسناوي

٦٦ **مرصد الأحداث** جلال سعد الشايب

نص شعري

٧١ **خضعت لك الأطهار بل كُلُّ الورى** حامد عبد الله اصنيتان الجُميلي

عين على العدو

٧٢ **نكبة فلسطينية أم انتكاسة صهيونية؟** د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٧٤ **صياغة المادة الثانية من الدستور المصري** تامر بكر

تاريخية

٧٨ **التحالف النصراني - المغولي ودوره في سقوط بغداد** د. فرست مرعي

اقتصاد

٨٤ **مخاطر صيغ التمويل الإسلامية** مصطفى محمود عبد السلام

الباب المفتوح

٩٠ **من صفات جيل النهضة التمكن من الحق والاستعلاء به** توفيق علي زبادي

٩٢ **منتدى القراء** عدَّة كُتَّاب

الورقة الأخيرة

٩٤ **شمولية الاحتساب** نايف بن محمد اليحيى

[كلمة صغيرة]

سوريَة: مجازر وحقائق!

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

تعيش بلاد الشام المباركة أياماً عصيبة دامية، لم تقف عند حدود القتل اليومي والتدمير الدائم؛ بل تجاوزتها إلى عمليات اغتصاب جماعي مذل، ومذابح أليمة للأطفال الذين لا يعاديهم إلا منزوع الرحمة مترع بالغلِّ والحقد والغيظ.

ويتكاتف على تنفيذ هذه الجرائم نظام طائفي مستبد، مستند إلى عصابات وحكومات طائفية وباطنية، مستهين بكلِّ ما يُقال إنه عرف دولي، أو مبعوث أممي، أو قرارات عربية، ضاحك ملء فيه من جعجعات الدعم الكاذب، وصراخ قاعات المؤتمرات، والبطولات أمام المصورين!

وقد استمرت أحداث الشام حتى دخلت عامها الثاني متجاوزة بذلك ثورات أهل البلاد الذين سبقوها، وهذا يعني أن الخسائر البشرية والمادية ستزيد عن مثيلاتها في بلدان الربيع العربي، وقمين بهذه التضحيات أن تجعل ربيع الشام أجمل، وهو ربيع يستحق التضحية للخلاص من المجرمين الذين ورثوا الإجرام صاغراً عن صاغر، وسيورثونه - إن بقي لهم الحكم - سافلاً عن سافل!

ومع الخذلان الدولي والعربي لأهلنا في الشام، والاكتفاء بالكلام دون الفعل المؤثر، إلا أن التفاؤل حاضر في المسألة الشامية، ويزداد مع الأيام قوة وظهوراً، ومن ذلك:

١ - ازدياد رقعة المعارضة الشعبية الشامية للنظام النصيري، وستتسع هذه الرقعة حتى تضمَّ إليها كبريات المدن الشامية التي تأخرت عن الانضمام للثوار، وإن لدمشق الفيحاء من التاريخ ما يجعلها أهلاً لحسم الموقف.

٢ - اتحاد مشاعر المسلمين في نصرة الشام وأهله، فقلما تجد مناهضاً للثورة الشامية راضياً بجرائم بشار، وأستثني من ذلك من اعتاد الانبطاح ولعق الأحذية!

٣ - انفضاح الفرق الباطنية والأحزاب الطائفية التي كانت تتخذ من المقاومة شعاراً تخدع به بعض المثقفين والمفكرين بله عامة الناس، فأي عذر لمن يسكت عن مذابح الشام ويسوغها أو ينكرها وهي أمام ناظريه؛ ثم يدبج الخطب في استنكار مواقف ناعمة لحكومات سنية ضد أبناء طائفته؟

٤ - تفاعل الحراك الشعبي المستقل مع الثورة الشامية في سبيل نصرتها بكل وسيلة ممكنة أو متاحة، وقد امتد هذا الحراك لأكثر بلدان المسلمين مع ما تعانيه بعض شعوبها من مآسٍ.

٥ - أن استصلاح الشام سيعود بالأثر الكبير على بلدان كثيرة مجاورة وغير مجاورة، وسيقمع أهل الضلالة ويلجئوهم لجحورهم وتقيتهم، وقد ورد في صحيح السُّنَّة من فضائل الشام خاصة في آخر الزمان ما يجعل تفاؤلنا بهذه الثورة يزداد.

ونسأل الله أن ينصر المسلمين في سورية ويخلصهم من استئساد الظلمة عاجلاً، وأن يجعل من الشام منارة للخير، ومنطلقاً للنصرة والجهاد، حتى يعود لأمة الإسلام عزها، ولشامنا وهجه وبهاؤه ومدارسه وعلماؤه وحضارته وحضوره الكبير في أمة محمد ﷺ.

الإسلاميون... بين أنغام الديمقراطية وألغامها

باسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فإن العلمانية - كما يعلم كل من يفهم معنى الإسلام - منظومة مناقضة للدين الحق، سواء أكانت علمانية (شاملة) تقوم على إقصاء الدين عقيدة وشريعة، أم كانت علمانية (جزئية) تقوم على إلغاء الحكم بالشريعة مع الإبقاء على العقيدة - أيِّ عقيدة - محصورة في الصدور، محظورة الأثر في الواقع.

كذلك يعلم كل من يفهم معنى العلمانية، أن «الديمقراطية» من أبرز إفرازاتها وإنجازاتها في صيغتها الغربية، وأنها لذلك فكرة (لا دينية) في منبعها ومصبها، فلا ديمقراطية بغير علمانية؛ بل إن الديمقراطية هي النظام الحارس للمنظومة العلمانية الغربية كلها، برأسماليتها وليبراليتها ومناهضتها لهدايات الرسل.

للديمقراطية - كما هو معلوم - أدبيات ومبادئ يطلقون عليها (قيم الديمقراطية) مثل: حكم الشعب للشعب وبالشعب، وسيادة الأغلبية - مرجعية القانون - إطلاق الحريات - المساواة - والعدالة. كما أن لها وسائل وأدوات يطلقون عليها (آليات الديمقراطية) مثل: الانتخابات - التعددية الحزبية - تداول السلطة - المجتمع المدني.

والديمقراطية بـ «قيمها» وبأكثر «آلياتها» تكرس إبعاد الدين أو تهميشه على الأقل، نظراً لتفرعها عن الأصل اللاديني العلماني، فإذا كانت رسالة الإسلام تنادي بما نادى به الرسل، ومنهم يعقوب ويوسف - عليهما السلام - عندما قالا: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] فإن الديمقراطية تجعل الحكم والتشريع للشعب وحده لا شريك له.

فحتى لو اختار الشعب حكم الشريعة، فليس ذلك - في الديمقراطية - لأن الشريعة وحي الله، ولكن لأنها اختيار الشعب، ومن الحق «الأصيل» لهذا الشعب أن يختار غيرها إذا أراد، ويحتكم لسواها إذا شاء، وعندئذ تسلم للديمقراطية «قيمها»، ولا عزاء بعدها لمن يؤمنون بمرجعية الدين القيِّم.

العلمانية عندما تسود في بلد - ولو كان إسلامياً - فإنها بـ «قيمها» تنشئ قِطَاعات من الناس مجافية للدين، إن لم تكن معادية له، وتشطر المجتمع إلى ثقافتين أو هويتين: إسلامية، وعلمانية، وذلك من خلال علمنة التعليم والإعلام والسياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، فهذه القطاعات من الناس ثمار طبيعية وبدهية لا بدَّ أن تثمرها شجرة العلمانية، ويبقى في المجتمع قسم يظل متمسكاً بهويته الإسلامية.

تجيء الديمقراطية محاولة تثبِّيت أقدام القطاعات (المعلمنة) المقتطعة من الشعوب المسلمة، ولتُثبت أنهم أولى بالقيادة والريادة والسيادة من جميع الباقين من غير العلمانيين مهما حاول هؤلاء الباقون تجريب حظهم مع الديمقراطية، ولذلك فإن جميع «المؤمنين» بالعلمانية، يقفون صفاً واحداً في مواجهة هؤلاء «المتطفلين» من المتدينين على موائد مناهضي الدين!! بمعنى آخر؛ فإن كل من يظهر رغبته في إعلاء شأن الدين عن طريق آليات الديمقراطية، تجيء قيمها لتقفَ له بالمرصاد، فتحصد ما جنته الآليات من مكاسب للدين، فتطحنها تحت رحى «مبادئ العلمانية»، حيث تدور تلك الرحى على مكاسب أنصار الدين، فتذرها فتاتاً تذروه الرياح... رياح: «مدنية الدولة».... «علمانية الدستور»...، «التعددية الحزبية» على غير أساس ديني «واحترام الآخر»، ولو كان ملحداً كافراً... وقبل ذلك وبعده «حكم الأغلبية» ولو كانت هذه الأغلبية في ذاتها ضحية للعلمانية وهوائية سطحية ودنيوية، لا تلقي بالاً لأي قيم إسلامية!

أما إن كانت تلك الأغلبية حقاً.. إسلامية، فياويل من يريد أو يردد شعارات «إسلامية.. إسلامية» عن طريق آليات الديمقراطية، حتى لو كانت مجرد هتافات حنجورية في ميادين الثورات والتظاهرات!

مع ذلك فالديمقراطية ليست شراً كلها؛ ولكن فيها أمور من الخير إذا طُبقت، كالاحتفاء بالحريات، والشفافية في الانتخابات، وعدم احتكار السلطة أو احتقار الرأي المخالف ولكن ما فيها من خير أثمرته الفطرة الإنسانية الطبيعية الرافضة للظلم والجور والخداع والاحتكار، لا نكاد نرى له وجوداً حقيقياً في البلدان الإسلامية التي حاولت تطبيق الديمقراطية وإنزال قيمها منزلة لاتدانيها فيها أي شرعة سماوية، فمهما كان في الديقراطية من أنغام تطرب لها الأسماع، فإن ما فيها من ألغام يظل مزروعاً في كل مشروع مغاير من القمة إلى القاع.

لنتأمل في تجرد وموضوعية - ولكن مع استحضار العقيدة الإسلامية - تلك «القيم» الديمقراطية التي أصبحت على ألسنة كثير من الإسلاميين فضلاً عن عوام المسلمين - أشبه بأغاني حداء وثنية، يهيم بسماعها وترددها من لا يدرك معناها ولا يفهم مرماها، مع رفضه التام لأي كلمة تخدش (مقام) الديمقراطية:

الديمقراطية والتجارب الإسلامية:

في محاولات بعض الإسلاميين للصعود على سلَّم الديمقراطية، أبى ذلك السُّلم إلا أن يُسقطهم، إمَّا سقوطاً معنوياً منهجياً، وإمَّا سقوطاً عملياً وحركياً.

❋ ففي تركيا مثلاً، جاءت الديمقراطية بالإسلاميين فامتنوا لها معظمين لشأنها، وامتلكوا الشجاعة أن يقولوا: «لسنا إسلاميين» لكنهم لم يجرؤوا قط أن يقولوا «لسنا علمانيين»، بل إنهم يدعون بقية الشعوب العربية للعلمانية مبقين على تعظيم الصنم العلماني المقبور «أتاتورك» في الوجدان وعلى الجدران.

❋ وفي أفغانستان التي التف الشعب فيها حول جماعة الطالبان بعد نجاحها في إرساء السِّلم الأهلي بعد سنين من الحروب الداخلية وأعمال الفوضى واللصوصية، وتجبر تجار السلاح والمخدرات، لم يرضَ الغرب بذلك الحكم الإسلامي السلمي، وعزموا على تصدير ديمقراطيتهم المسلحة على ظهور الدبابات ليتوج (كرازي) رئيساً لجمهورية «ديمقراطية» تقاتل أنصار الشريعة منذ أكثر من عشر سنوات، بالنيابة عن أمريكا التي لم تكف طائراتها - بطيار أو بدون طيار - عن قصف الأمل المتطلع إلى الحياة الإسلامية التي فُطر عليها شعب أفغانستان.

❋ وفي باكستان، لم تسمح آليات الديمقراطية للإسلاميين بالوصول للسلطة في تلك البلاد التي تبلغ نسبة المسلمين فيها ٩٠٪، بينما سمحت بوصول علمانيين من شتى الاتجاهات، كان بعضهم تابعاً للأقلية الشيعية في تلك البلاد السُّنِّية، كآل بوتو (ذو الفقار وابنته ثم زوجها الرئيس الحالي) فباكستان بثقلها وحجمها في العالم الإسلامي، محظور عليها - ديمقراطياً - أن تُحكم بالشريعة، ولما جهر أحد رؤسائها - وهو ضياء الحق - بخوفه من المساءلة الإلهية عن عدم تطبيق الشريعة الإسلامية، لم يطل به الأمد، فقتل في حادث غامض لم تكشف أسراره حتى اليوم.

❋ أما في الجزائر التي شهدت أولى الثورات العربية السلمية ذات الصبغة الإسلامية في أوائل التسعينيات الماضية، فقد تمكن الإسلاميون «السلفيون» من اكتساح الانتخابات التشريعية، وتأهلوا لتشكيل وزارة بقيادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ، لكن «قيم» الديمقراطية، أبت أن تسلم بسلامة ما قامت به آلياتها، فقام الانقلاب العسكري الهمجي، بمباركة الغرب للإنقاذ من جبهة الإنقاذ، بعد أن صرح الرئيس الفرنسي وقتها بأن فرنسا ستعيد احتلال الجزائر لو وصلت جبهة الإنقاذ إلى سدة الحكم فيها، وتواصلت الحرب الداخلية في البلاد نحو عشر سنوات ذهب ضحيتها نحو مئتي ألف قتيل!

❋ وفي الصومال الذي عاش شعبه خمسةَ عشرَ عاماً، بلا حكومة، ديمقراطية ولا حتى ديكتاتورية، انطلقت جماعات محلية لمحاولة الإصلاح بالإسلام تحت اسم (المحاكم الإسلامية) ونجحت في معالجة الكثير من الأوضاع المختلة في البلاد الخالية من منصب الرئاسة لعقد ونصف، لكن ذلك لم يُرضِ الغرب (الديمقراطي) فسلَّط الجارة الجبارة في حقدها (أثيوبيا) النصرانية لتغزو أراضي الصومال حتى لا تحكمها المحاكم، واضطرت فئات من الشعب الصومالي أن تدافع عن حياض وطنها المستباح، فجاءت الفرصة للإيقاع بين التيارات الإسلامية، بجذب بعضها إلى الخيار الغربي (الديمقراطي) علانية؛ لتقاتل لأجلها بقية التيارات الإسلامية التي طهَّرت أرض الصومال من الهجمة الحبشية، وما تزال الحرب دائرة بين من نصبتهم الديقراطية الغربية، وبين من نُصب عليهم من عامة الفصائل الإسلامية!

❊ فإذا جئنا إلى فلسطين – وما أدراك ما فلسطين – تلك البلاد المقدسة التي دنسها اليهود بديمقراطيتهم «الوحيدة» في الشرق الأوسط، سنرى كيف نُزع سلاح المقاومة (العلماني) في منظمة التحرير الفلسطينية بوعود الدول الغربية، من أجل إقامة دولة فلسطين «الديمقراطية»، فلم تقم الدولة.. ولم تتحقق الديمقراطية داخل السلطة التي جاءت لذلك الغرض. ودلت على ذلك أحداث الانتخابات التي جاءت بحماس عن طريق الديمقراطية فأهلتها – افتراضاً – لتشكيل حكومة جاءت باختيار شعبي سلمي، لكن «الديمقراطيات» العالمية والإقليمية والمحلية، أبت أن تسلم بشرعية تلك الحكومة لكونها ذات توجهات إسلامية، فأقيلت، ثم حُبس نوابها ووزراؤها، ثم فرض عليها حصار إسرائيلي، تحول إلى حصار إقليمي وعالمي... لا يزال قائماً حتى اليوم بانتظار غياب الحكومة (المقالة) عن الأنظار، ليكون البديل المطروح الآن، هو تنصيب عباس رئيساً للوزراء إضافة لرئاسة السلطة!

الثورات الجديدة والديمقراطية:

في أولى محطات الثورات العربية في تونس، كان التحول «الديمقراطي» أنشودة، يرددها الجميع بعد عقود القهر والكبت، لكن عاطفة الشعب التونسي كانت مع الإسلام على الرغم من طول إبعاده عن مظاهر الحياة هناك، فانحاز الشعب للإسلاميين، ولكن هؤلاء الإسلاميين الذين جاء بهم الخيار الإسلامي للشعب، بدأ أنهم لم يحسموا خيارهم بعد، بين النهج الإسلامي أو النهج العلماني، فتواترت عن رموزهم التصريحات المحابية للعلمانيين والمجافية للإسلام، وكان أكثرها تأثراً باللوثه الديمقراطية تزكية ثم انتخاب ثم تنصيب رئيس (يساري)، تطبيقاً لـ «التعددية» ثم تناثرت تصريحات سيئة على ألسنة رموز إسلامية، تصرح بأن الحزب الحاكم – الإسلامي – لن يطبق الشريعة، بل لن يسعى للنص في الدستور على مصدريتها في التقنين، بل تواترت التصريحات باستمرار التوجه نحول الإبقاء على المظاهر غير الإسلامية كالخمارات والبارات وشواطئ العرى ومواخير «الفنون»!!

❊ أما في مصر، فقد تحول كثير من الإسلاميين إلى جوقة العزف على الأنغام الديمقراطية التي سمحت لهم – في البداية – بالصعود السريع بأقل التكاليف، فظنوا أن الديمقراطية هي الطريق الوحيد لإعادة أمجاد التوحيد، فجاملوها وأهلها أكثر مما تجملوا في الكلام عن الإسلام وأهله، حتى إن الكثيرين لم يعودوا يجرؤن على مجرد (نقد) الديمقراطية التي يعرفون مناقضة مبادئها (المستوردة) للمنهجية الإسلامية الأصلية، وتناسى هؤلاء أن طريق النزول – بل السقوط – المنهجي أو النظامي من فوق السلم الديمقراطي، أسرع وأقصر من طريق الصعود، وهذا ما بدأ يحصل بانتظام، حيث يسير (التحول الديمقراطي) بالإسلاميين.. نحو التحول شيئاً فشيئاً عن ثوابت وأصول، كان من المأمول أن يعملوا على التحول إليها بدلاً من التحول عنها.

❊ مثل هذا يقال عن اليمن وثورتها التي أجهضتها أو كادت تجهضها وعود (فلول) علي صالح، زعيم جمهورية (اليمن الديمقراطية) لأكثر من أربعين عاماً، حيث وُعد الثوريون من إسلاميين وغير إسلاميين بالمشاركة في السلطة وفق اتفاق دولي غير مكتوب، يقضي بأن يظل اليمن غير سعيد، إلا بأوهام الوعود الديمقراطية التي ظلت مخزنة في أشداق علي صالح لأربعة عقود!

❊ وفي ليبيا الثائرة، انحاز رموز من ثوارها نحو خزان الألغام الديمقراطي في نوع من (دفع الضريبة) مقابل ضربات الغرب «النبيل» الذي ساعد في إسقاط «الديكتاتور» ليخلفه نظام من (الديكور) الديمقراطي، فاختار هؤلاء (حرية) الانفصال بإقليم برقة، بدعوى (تقرير المصير)، وكأنهم يقولون للقذافي الذي كان يحلم بوحدة – ولو قسرية – مع بعض الدول العربية أو الإفريقية، لن نسمح بالوحدة حتى داخل حدود الأراضي الليبية، لأنها ببساطة، تتعارض مع أمانينا الديمقراطية، في «الحرية» و «المساواة» والعدالة الاجتماعية!

❊ وفي سورية الجريحة، يجري الحديث عن كل وسائل التغيير تحت مظلة (الشرعية الدولية)، لتظل التظاهرات «السلمية» العزلاء، هي الأسلوب (الديمقراطي) الوحيد لرد العدوان تحت استمرار القصف والنسف، دون تدخل من «الناتو» الخائف على أمن (إسرائيل)، والمنتظر – فيما يبدو – إنضاج الطبخة الإنشاء دولة علوية نصيرية، تظل وفية – كما كانت – لحماية حدود دولة اليهود.

لا ينبغي أبداً أن يفهم نقد الديمقراطية أو نقضها على أنه دفاع أو تحبيذ للديكتاتورية، فالديكتاتورية أشأم وأظلم؛ لكنَّ الفتنة بالديمقراطية أعمُّ وأصمّ.

ستظل «الديمقراطية» بأدبياتها وآلياتها هي (اللعبة) الأقرب إلى (اللعنة) التي تحل على من يُحل لأجل سواد عيونها ما حرم الله، ويسوغ مجاملة لأهلها الحكم بغير ما أنزل الله.

لماذا لا نسارع – من الآن – في صياغة نظام سياسي إسلامي بديل يرعى العقيدة ويعلي من شأن الشريعة... لنتحول شيئاً فشيئاً من «الشرعية» العلمانية، إلى الشرعية الإسلامية؟

مدار الوطن للنشر

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب

أول مركز متخصص في العالم الإسلامي لخدمة الراغبين في التبرع بطباعة وتوزيع الكتب والنشرات الإسلامية

مدار الوطن للنشر 25 عاماً

بمناسبة مرور 25 عاماً على إنشائه

يسره أن يعلن : › لمكاتب الدعوة وإدارات الشؤون الدينية بالوزارات والعلاقات العامة بالشركات ومراكز الأحياء وجماعات المساجد والجمعيات الخيرية ولكل من يرغب في التوزيع الخيري خلال شهر رمضان المبارك :

البرنامج الرمضاني للجميع

وسائل دعوية متنوعة

الحقائب الدعوية

حقائب سلوفانية فاخرة بمقاسات متنوعة

حقيبة الأسرة الرمضانية
4 رسائل
مقاس ١٢ x ١٧
تأليف: أ.د عادل الشدي، أ.د أحمد المزيد

حقيبة يوميات صائمة
4 رسائل
مقاس ١٢ x ١٧
تأليف: أ.د أحمد المزيد، أ.د عادل الشدي

الكتب والرسائل

أكثر من 40 كتاب رمضاني شامل

تقديم: معالي الشيخ: صالح بن حميد
إعداد: عبد الرحمن الريس
مقاس ١٧ x ٢٤

لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله
مقاس ١٢ x ١٧

لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله
مقاس ١٢ x ١٧

تأليف: محمد بن سرار اليامي
مقاس ١٢ x ١٧

لفضيلة الشيخ محمد بن صالح المنجد
مقاس ٨ x ١٢

المطويات

عرض مميز لأكثر من 100 مطوية رمضانية

- خصائص شهر رمضان
- مفكرة رمضان الخيرية
- رمضان هذه السنة أفضل
- فوائد الصيام وحكمه العظيمة
- من حكم الصوم وأحكامه
- فضل صيام رمضان وقيامه
- ١٠ عادات سيئة في رمضان
- نبذ في الزكاة والصيام
- من فضائل وأحكام الاعتكاف
- المحفزات لاغتنام شهر رمضان
- حال السلف في رمضان
- مفاتيح التميز في رمضان
- رمضان والعبادات القلبية
- فتاوى المرضى في رمضان

الكروت

أكثر من 50 كارت رمضاني

القراءة للجميع

أكثر من 40 كتيب رمضاني متنوع

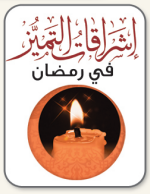

كتبها: خالد أبو صالح
مقاس ١٢ x ١٧

إعداد: القسم العلمي بمدار الوطن
مقاس ١٢ x ١٧

كتبها: خالد أبو صالح
مقاس ١٢ x ١٧

إعداد: القسم العلمي بمدار الوطن
مقاس ١٢ x ١٧

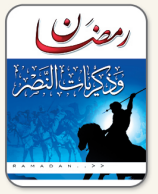

كتبها: خالد أبو صالح
مقاس ١٢ x ١٧

حقيبة رمضان ينادي يا باغي الخير أقبل

4 رسائل — مقاس ١٢ x ١٧

حقيبة مع النبي في رمضان

4 رسائل — مقاس ١٢ x ١٧

حقيبة إلى من أدركت رمضان

4 رسائل — مقاس ١٢ x ١٧

ومفاجأة الموسم
- حقيبة زائر المسجد الحرام
- حقيبة زائر المسجد النبوي

شارك معنا فعاليات البرنامج الرمضاني الخامس عشر في الفترة من ٧/٢٠ - ٩/٢٠ / ١٤٣٣ هـ بمعارضنا

الرياض: الملز / هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس: ٤٧٢٣٩٤١ | السويدي / هاتف: ٤٢٦٧١٧٧ فاكس: ٤٢٦٧٣٧٧
مندوب الرياض: ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦ مندوب الغربية: ٠٥٠٤١٤٣١٩٨ مندوب الشرقية والدمام: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨ مندوب الجنوبية: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩
مندوب الشمالية والقصيم: ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨ مسؤول التوزيع الخيري للجنوبية والشرقية: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩ التوزيع الخيري لباقي مناطق المملكة: ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤
لطلبات الجهات الحكومية: ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧ الموقع على الإنترنت: www.madaralwatan.com البريد الإلكتروني: pop@madaralwatan.com

- استعداد كامل للشحن داخل وخارج المملكة

الخط الساخن لخدمة العملاء
0566665451

موجة الشك واليقين المعرفي (ابن حزم أنموذجاً)

جمعان بن محمد الحصيني(*)
jjalhusaini@gmail.com

مـــن يتتبع موجة الشـــك عبر عصورها الغابـــرة؛ يجد أنّ مزاعمها التشـــكيكية يجمعها أمرٌ كليٌّ يكْمن في جعل الإنسان نفسه مركزاً للمعرفة يُتحاكم إليه.

وقد صيّغت هذه الفكرة في عبـــارة كبيرهم(١) الذي تزعم موجة الشك في هذه الحقبة، حيث يقول: «الإنسان مقياس كل شيء، فهو مقياس أنّ الأشـــياء الموجودة موجودة، وأن الأشياء غير الموجودة غير موجودة»(٢).

وفي معنى ملازمة الشك لتلك النوعيّة من التفلسف، يقول زكي نجيب محمود: «بملاحظة تاريخ الفلسفة يتبيّن لنا أنّ نوع الفلسفة الذي يعتمد التفكير الذاتي، أعني: تفكير الإنسان في نفســـه وعقله فقط يعقبه دائماً الشـــك؛ ذلك لأنّ المعرفة هي علاقة بين العقل والشـــيء الخارجي، فإذا اقتصر الباحث على النظر إلى عقله ونفســـه مهملاً ما في الخـــارج؛ أدّاه ذلك إلى إنكار ما في الخارج من حقائق»(٣).

لن يعدم الباحث أن يجد نصوصاً هنا وهناك في الوســـط الإسلامي ممَّن تأثر بموجة الشك هذه، سواء أكان الشك مطلقاً أم منهجيّاً، وتلك النصوص المتكاثرة كثرةً ملحوظة في جملة من الدراسات لا تدلُّ إن دلت إلا على رشح الشك بما فيه من نسبيّة مطلقـــة كرَّس لها كتَّابها كل الســـبل في بث هذه الســـموم في الأوساط الثقافيّة تحت ظل العلمانيّة في الخطاب العربي. وهم يهدفون من هذا التكريس إلى زعزعة الثوابت والتشكيك فيها، ومسخ قداستها؛ بل تفريغها والاستبدال بها ما يلائم أهدافهم الاستعماريّة، وضرب الأمة في فلذات أكبادها.

ولا يخفـــى على أولي الألباب مقدار خطر الريبة على عقل المسلم في هذا الوســـط الثقافي الذي أصبح من الميسور لدى شـــبابه أن يتناولوا هذه الفلسفات الشـــكيّة بعقليّة فارغة من التأصيـــل وجامحة إلى التغيير؛ فيحصـــل الزيغ والضلال عن الصراط المســـتقيم إثر تدفق هذه الفلسفات الشكيّة المنحرفة؛ ولذلك وجـــب التصدي لهذه الحملة الشـــكيّة باليقين المعرفي عند علم من أعلام الأمة ورجالاتها، له صولة وجولة مع أولئك الذين نظَّروا للشك بأنواعه في سابق الدهر، فجاء على جذوره فاجتثها اجتثاث العالم البصير، فلم يدع لا للمتقدمين منهم ولا للمتأخرين من حجة يحتجون بها، وتركهم أصفاراً لا قيمة لهم.

(*) باحث شرعي في أصول الدين.

(١) بروتاجوراس. انظر: تاريخ الفلسفة الغربية (الفلسفة القديمة)، برتراندرسل، ترجمة: زكي نجيب محمود، ٢٠١٠، ص١٤٣.

(٢) تاريخ الفلسفة الغربية (الفلسفة القديمة)، ص١٤٣.

(٣) قصة الفلسفة اليونانيّة، زكي نجيب محمود، ص٣٠٦.

اليقين المعرفي في المنهج الحزمي:

إنّ من ينطلق في المعرفة من اليقين أولى بالاتباع ممَّن يجعل الشك طريقاً لليقين ثم يبرهن على المعرفة بعد ذلك.

وممّن جعل اليقين أساساً في المعرفة ولبّاً لها؛ ابن حزم الظاهري؛ ذلك أنّ اليقين عنده مصطلح معياري تخضع له سائر المعارف أصولاً وفروعاً، فهو فيصل التفرقة بين المعرفة المقبولة والمرفوضة، فما لم يؤسس من المعارف على اليقين؛ فلا وزن له ولا اعتداد به ولا وجه له، وما بُني من المعارف على اليقين؛ فهو البرهان والحجة والدليل والحقيقة، وعليه يدور الحكم القطعيّ وجوداً وعدماً.

هكذا يكون اليقين حاكماً على قواعد ابن حزم ورُؤاه، من حيث التأسيس لسلَّم الوصول إلى المعرفة.

وفي المعنى السابق نفسه يقول أبو محمد: (... ولكن الله تعالى لم يجعل لغير اليقين حكماً)[1]. وقال: (... وصح أن لا حكم إلا لليقين وحده)[2].

ولعل من المناسب قبل الحديث عن مصادر المعرفة اليقينية عند ابن حزم أن تسبق بمفهوم اليقين في اللغة والاصطلاح ومدى علاقتهما في المعنى.

مفهوم اليقين في اللغة:

أصل مادة (ي ق ن) في المعجم اللُّغوي[3] تفيء - عند التحقيق - إلى معنى: استقرار العلم وثباته، وزوال الشك وإزاحته. ويقنَ الأمرَ أي: عَلِمَهُ وتَحَقَّقَهُ[4].

مفهوم اليقين في الاصطلاح:

يأتي مفهوم اليقين في الدرس الاصطلاحي على عدّة معاني، من أهمها تعرّيفات الجرجاني - والتي هي بمنزلة الخلاصة لمن تقدمه في هذا الفن - لهذا المفهوم، وفيه يقول:

- (اعتقاد الشيء بأنّه كذا مع اعتقاد أنّه لا يمكن إلا كذا مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال)[5].

- (طمأنينة القلب على حقيقة الشيء)[6].

- (تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب)[7].

- (العلم الحاصل بعد الشك)[8].

وعرّفه الراغب بقوله: (سكون الفهم مع ثبات الحكم)[9].

والملاحظ أنّ سكون الفهم عند الراغب هو معنى: طمأنينة القلب عند الجرجاني؛ وهو ما يعرف باليقين الذاتي. ومطابقة الواقع عند الجرجاني هو معنى ثبات الحكم عند الراغب؛ وهو ما يعرف باليقين الموضوعي.

وأورد التهاوني تعريفاً للتيّقن واليقين يفيد: (عدم احتمال النقيض، أي: عدم احتماله لا في نفس الأمر ولا عند العالِم، لا في الحال ولا في المآل، وحاصله: الجزم المطابق الثابت)[10].

والملاحظ أنّ التعريفات جميعها تشير إلى موطن اليقين المرتبط بذاتيّة الإنسان تجاه الواقع الخارجي، ومدى التطابق بين الجانبين: النظري الاعتقادي، والعملي الواقعي؛ بمعنى: حصول العلم الضروري المفيد للتطابق بين الاعتقاد والحقيقة الخارجيّة للشيء المُعتقد، وأنّ اليقين بالشيء في الواقع الخارجي وفي ذات العارف يكون في حقيقته على الجزم والثبات.

ويقول ابن تيمية في معنى مصطلح اليقين: (... واليقين: استقرار الإيمان في القلب علماً وعملاً)[11].

ومن خلال العرض السابق لمفهوم اليقين اللُغوي ومفهومه الاصطلاحي يظهر للدّارس صبغة التعريف اللُّغوي، وأثره في المفهوم الاصطلاحي لليقين، وذلك من حيث إفادته دلالة التحقق والثبات، فالجذر اللُغوي هو الأصل والأساس لذلك المعنى في هذا المصطلح بالذات.

مدارك اليقين عند ابن حزم:

يُقصد بمدارك اليقين عند أبي محمد؛ المصادر التي يحصل بها التصديق اليقيني؛ وهي تنقسم إلى قسمين:

الأول: المصادر الضرورية: التي تذعن النفس لها إذعاناً، وتوقن يقيناً لا يمكن دفعه ولا التشكيك فيه. واليقين بهذه الحقائق البدهية: يقينٌ مباشر لا دخل لوسط ثالث فيه.

الثاني: المصادر النظرية: التي يحصل بها اليقين حصولاً نظريّاً استدلاليّاً.

(١) الإحكام، ٦ / ١٨٨.
(٢) الإحكام، ٦ / ١٨٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ٦ / ١٥٧، التعريفات، ص٣٣٢، المعجم الوسيط، ٢/١٠٦٦، الصحاح في اللغة، ٢/ ٣٠،.لسان العرب، ١٣ / ٤٥٧، العين، ٥ / ٢٢٠.
(٤) القاموس المحيط، ١/ ١٦٠١، تاج العروس، ٣٦ / ٣٠٠.
(٥) التعريفات، ص٣٣٢.
(٦) التعريفات، ص٣٣٢.
(٧) التعريفات، ص٣٣٢.
(٨) التعريفات، ص٣٣٢.
(٩) المفردات، ص٨٩٢.
(١٠) الأصول والفروع، تحقيق: التركماني، دار ابن حزم، ط١، ١٤٣٢، ص٦٩.
(١١) جامع المسائل، ٣/ ٢٦٠.

ودليل هذا التقسيم؛ قوله في مواطن عدة من كتبه إنَّ: «المعلوم قسمان: معلوم بالأصل المذكور، ومعلوم بالمقدمات الراجعة إلى الأصل»[1].

ويقصد ابن حزم بالأصل المذكور: الأصل الذي يُدرك بأول العقل وبالحسّ[2]؛ بمعنى: القضايا المسلّم بها بين الناس، وليست موضعاً للمناقشة، بل هي من الممتنع برهانيّاً.

يقول في هذا «... وإذا تيقن ذلك بالنص وبالضرورة وبالمشاهدة...»[3].

فالضرورة في المصطلح الحزمي؛ ضرورة العقل أو أول العقل، والمشاهدة في ذلك؛ الحسّ المباشر.

أما المقدمات الراجعة إلى الأصل التي تدخل في باب اليقين؛ فهي: المصادر النظريّة الاستدلاليّة، والمصطلح عليها بالمعارف المكتسبة من الأدلة النقليّة (الكتاب والسنة) وما يتفرع عنهما من الإجماع والقياس المنطقي والدليل والاستصحاب، كقوله في بعض هذه المقدمات: (وكل ما نقل بتواتر عن النبي ﷺ، أو أجمع عليه نقل جميع علماء الأمة عنه عليه السلام، أو نقله الثقة عن الثقة حتى يبلغ إليه عليه السلام؛ فداخل في باب ما تيقن ضرورة بالمقدمات المذكورة)[4].

والنص السابق قد تضمن بعضاً من المعارف اليقينيّة النظريّة المكتسبة التي يسميها ابن حزم بالمقدمات، وهي: الأحاديث المتواترة، والإجماع، والآحاد.

ولا فرق عند ابن حزم في الطريق المؤدي لليقين المعرفي إنْ كان استدلاليّاً أو ضروريّاً فهما في إفادتهما العلم على حدٍّ سواء في التيقّن ، ليس بينهما تفاوت في الرتبة.

بمعنى: أنّ العلم بالشيء في منهاجه يؤول إلى أنّه: علم يقينيّ ضروري بغضِّ النظر عن الطريق الموصل إليه، فقد يكون أوليّاً لا يحتاج إلى استدلال، وقد يكون نظريّاً بالنظر إلى الدليل الصحيح في نفسه، أو إلى الدليل المشتمل على مقدمات – وإن بَعُدت – ولكنّها أفادت العلم اليقينيّ؛ حيث يكون إدراكنا للعلم يقيّنيّاً على حدٍّ سواء وعلى الرغم من تنوّع طرق العلم والمعرفة المؤدية إلى اعتقاد الشيء على ما هو عليه.

وفي هذا المعنى يقول: «ولا نبالي إن كان ابتداءُ علمنا استدلالاً أم مُدركا بالحواس؛ إذا كانت نتيجة كل ذلك سواء في تيقّن صحة الشيء المعتقد»[5].

وفي معنى أصول اليقينيّات المعرفيّة المفيدة للعلم يقول ابن حزم: «والعلم: تيقّن الشيء على ما هو عليه عن برهان أولي، أو راجع إلى أولي، أو عن اتباع صادق قام البرهان على صدقه»[6].

والبرهان الأولي في مصطلح ابن حزم؛ أوائل العقل والحس، والراجع إلى الأولي؛ المقدمات النظريّة، أما اتباع الصادق الذي قام البرهان على صدقه فبيانه؛ أنّ ثبوت المعجزات بالآيات الحسيّة والمعنويّة للأنبياء كان بالعقل؛ وهذا يفيد شهادة صدق من الله – تعالى – أنهم مرسلون من عند الله – تعالى –؛ وعليه فقد وجب الإذعان لهم، ولزم تيقّن ما أتوا به من الوحي دون أن تتوقف يقينيّة الدليل النقلي واتّباعه – اعتقاداً وعملاً – على دليلٍ عقلي بعد ثبوت هذه المعجزات – وهذا قيد مهم؛ لكون كل دليل ثبت عند ابن حزم فإنّما يؤول إلى العقل في ثبوته من خلال وسائط متعددة –؛ وهذه إحدى المقدمات اليقينيّة التي يكرر ذكرها ابن حزم في تقريراته[7].

فالتيقّن الحزمي للشيء؛ هو العلم به على ما هو عليه إما بأوّل الحسّ وبدهية العقل، بمعنى: حصول العلم الضروري الذي لا يحتاج إلى استدلال ونظر؛ بل بمجرد التصور يتحقق هذا العلم، أو عن مقدمات حادثة عن البرهان الأوّلي أو راجعة إليه؛ وهذا هو موطن الاستدلال والنظر، أو بالتسليّم لمن قام البرهان على صدق نبوَّته، وهذا يدخل فيه جميع المعارف الدينية بأصولها وفروعها[8].

وتلك المقدمات المنتجة للمعرفة يجب أن تكون في منهاج ابن حزم يقينيّةً بذاتها ويقينيّةً في طُرق ثبوتها؛ بل يقينيّةً في فروع مسائلها؛ لتطمئنّ النفس وتعتقد اعتقاداً مطابقاً لمخرجاتها ونتائجها، وفي هذا يقول: (وإنّما ينبغي أن يوثق بما قد تُيقن أنّه لا يخون أبداً)[9].

وهذا النص – المذكور آنفاً – قد أتى بعد حديث أبي محمد عن المقدمات المتغيّرة أو المتغيّرات – بحسب اصطلاح ابن حزم– ؛ التي قد تنتج نتاجاً صحيحاً في حين، ولا تنتج ذلك في حين آخر، وما كان على هذه الصفة من عدم الثبات في صدق النتائج وصحتها؛ فلا يوثق به ولا يستند عليه، وإنّما يعوّل على من لا يخون في نتائجه البتة؛ فتأتي نتائجه مستقرة في صدقها وصحتها.

وإذا ما أراد الدّارس أن يضرب مثلاً يجلّي فيه معرفةً من معارف ابن حزم اليقينيّة بذاتها؛ ليمثل بها عن غيرها ممَّا لم يذكر من المعارف الأخرى التي يجب أن تكون يقينيّة كذلك؛

(١) الإحكام، ١ / ٤٣.
(٢) انظر: الإحكام، ١ / ٤٣.
(٣) الفصل، ١ / ٧٤.
(٤) الإحكام، ١ / ٤٣.
(٥) الفصل، ٣ / ٨٩.
(٦) رسائل ابن حزم، ٤ / ٤١٣.
(٧) الفصل، ١ / ٦٧.
(٨) انظر: الإحكام، (١ / ٣٩.
(٩) التقريب، ص١٠٧.

لتحظى بالقبول عند أبي محمد، فيكفي مثلاً لهذا : الإجماع، وما ينبغي أن يكون عليه من الصفات التي تؤهله لمرتبة اليقين المعرفي، إذ لا بدَّ أن يتوفر في الإجماع جملة من الشروط مجتمعة لتحقيق ذلك؛ كمعرفة جميع الأصحاب له، وقولهم به، وعدم اختلافهم عليه، كما هو الحال في حصول الإجماع بأنّهم صلّوا خلف النبيّ ﷺ الصلوات الخمس.

وبذلك يتحقق الإجماع يقيناً في ذاته؛ فينتجُ فروعاً يقينيّةً من فروع معارفه؛ إذ اليقينيّ ينتج يقينيّاً.

وفي معنى تحقق الشروط اللازمة لأن يكون الإجماع يقينيّاً بذاته يقول أبو محمد: (وَالإِجْمَاعُ هُوَ مَا تُيُقِّنَ أَنَّ جَمِيعَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفُوهُ وَقَالُوا بِهِ وَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ،كَتَيَقُّنِنَا أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ - رضي الله عنهم - صَلَّوْا مَعَهُ - عليه الصلاة والسلام - الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ كَمَا هِيَ فِي عَدَدِ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا)[1].

وأما كون الطريق المؤدية للمعرفة اليقينيّة؛ يقينيّة، فخير مثال يوضح ذلك: نقل الكافة؛ أي: النقل المتواتر الذي لا يقع بين المسلمين خلاف في وجوب الإذعان له، بل إنّ العقل قبل ذلك يحيل التكذيب به، وفيه يقول ابن حزم: (حتى صار منقولاً نقل كافة: يقطع العذر، ويرفع الشك، ويوقع اليقين، ويوجب العلم الضروري)[2].

وأما كونها يقينيّةً في فروع مسائلها فهذا منهج ابن حزم في الأخذ بالزائد حكماً عند تعارض الأدلة فيما يرى الناظر، حيث يرى أبو محمد في مثل هذه الحال أن يستجيب المُستدلُ للنصين المتعارضين لو قَدِر على ذلك بأن يستثنى الأقل من الأكثر؛ ليقينيّته ، فإن لم يستطع؛ فعليه بالزائد منهما؛ لكونه اليقينَ الذي يجب الأخذ به كذلك.

فالحال حالان: حال يمكن أن يُعملهما جميعاً ؛ فهنا يعمل بالاستثناء؛ لأنه يقينٌ، والحال الأخرى لا يمكن أن يُعملهما جميعاً؛ فيعمل بالزائد؛ لكونه اليقين أيضاً.

وفي هذا المعنى يقول أبو محمد: «فإن تعارض فيما يرى المرء آيتين أو حديثين صحيحين أو حديثاً صحيحاً وآية، فالواجب استعمالهما جميعاً؛ لأن طاعتهما على حدٍّ سواء في الوجوب، فلا يحل ترك أحدهما للآخر ما دمنا نقدر على ذلك، وليس هذا إلا بأن يستثنى الأقل معاني من الأكثر؛ فإن لم نقدر على ذلك وجب الأخذ بالزائد حكماً؛ لأنّه متيقن وجوبه، ولا يحل ترك اليقين بالظنون»[3].

والباحث يخلص إلى أنّ ابن حزم يشترط القطعيّة في المعرفة من جهتين: الأولى: من جهة الثبوت، والثانية: من جهة الدلالة. وما لم يكن قطعيّاً في ذاته أو في دلالته فهو من عداد المعارف المطروحة.

والحاصل من التحليل السابق أنّ رؤية ابن حزم لليقين رؤيةٌ متماسكةٌ ومتعمّقةٌ؛ لما تضفيه من سيماء القوّة للبراهين والثقة بالأدلة؛ ولذلك فلا يمكن - بنظر أبي محمد - أن تخضع هذه الرؤية لأيّ أثر يقلل من هذه المعياريّة لهذا القانون المعرفي الأسمى عنده؛ وعليه فلا بدّ من الرجوع إلى تحقق اليقين في أيّ محاولة معرفيّة منضبطة.

وهذا اليقين الحزمي له شواهده الأوليّة التأصيليّة (الحسّ + العقل)، وله مقدماته المعرفية (المصادر الاستدلاليّة المكتسبة من الأوليّة).

وهذه المصادر بشقيها؛ والمؤدية لليقين؛ يلزمها أن تكون برهانيّةً بذاتها أو بغيرها.

موقف ابن حزم من الشكّاك في معرفتنا بالواقع الخارجي:

النظرة البسيطة للعالم الموجود لا تُحدث إشكالاً في نظر الناظر إلى الواقع الخارجي من جهة استقلاله عن الذات الناظرة، بل إنّ مجرد احتمال التفكير في مثل هذه القضية يُعد تجاوزاً للموقف الطبيعي للإنسان. ولو أنّ الإنسان تجاوز هذه النظرة بنوع من الغلُو - كما حصل لكثير من الفلاسفة - ؛ لما وقف على ساحل النجاة، ولوقع في تعدد الاحتمالات والتحليلات التي تنتهي به - غالباً - إلى القول بقول السفسطائية في التشكيك في هذا العالم وعدم اليقين بوجوده[4].

ولكي يكون للإنسان موقفاً طبيعيّاً في نظرته للعَالَم الخارجي فعليه أنّ يُدرك أنّ الحسّ بأنواعه قوّة فطريّة في الإنسان متى ما استعملها في الواقع الخارجي وجد أنّه ينطبع بطابع المعطيات الحسّية انطباعاً مباشراً ضروريّاً لا يحتاج معه إلى وسط ثالث يستدل به على هذا الانطباع الذي حدث له، بل إنّ تحقق إحساسه بهذا الواقع الخارجي يتوقف على سلامة الحسّ ووجود المحسوسّ[5].

وبُعد الإنسان عن الموقف الطبيعي من الواقع الخارجي، وعدم إقراره بفطريّة هذا الموقف؛ يُدخله في زمرة الشكّاك المنكرين للمعرفة الإنسانيّة، أو في المشككين في اعتبار المعرفة وقيمتها. ومجمل اتجاهات هؤلاء تعود إلى إنكار الواقع الخارجي كما فعل السفسطائيون القدماء، أو تشكّك في عدم قدرة أدوات المعرفة على إدراك الواقع الخارجي، أو تقول: بتغيّر العلم وعدم ثباته، أو بنسبيّته وعدم إطلاقه[6].

(١) المحلى،١ / ٥٤.
(٢) حجة الوداع، ١/ ٣٩١.
(٣) المحلّى، ١/ ٥١.
(٤) انظر: نظرية المعرفة، فؤاد زكريا، ص١٥
(٥) انظر: المعرفة في الإسلام، عبد الله القرني، ص٣٤١.
(٦) انظر: أصول المعرفة والمنهج العقلي، أيمن المصري، ص٣٦.

ولعل موقف ابن حزم من الشكّاك في معرفتنا بالواقع الخارجي يُظهر لنا جواب الانطباعات الحسّيّة لهذا الواقع وأصولها الخارجيّة من خلال التفريق بين اعتقادنا للشيء المُدرك الذي ندركه بحواسنا وما مدى استمراره في الوجود في لحظة غياب الحسّ عنه؟، وهل الانطباع الحسّي الذي أحدثه هذا المُعطى خارج حدود ذواتنا أم هو مجرد انطباع لشيءٍ ليس له كيانٌ مستقلٌ في حقيقة الأمر؟بمعنى: هل هذا الانطباع لا مقابل له في الواقع الخارجي؟[1].

وأجدر النصوص بالتحليل في هذا الباب؛ لتجلية المنهج المعرفي الحزمي؛ هو رده على مبطليّ الحقائق وهم السوفسطائيون، وفيه يقول أبو محمد يقول أبو محمد: «... إنّهم (= مبطلو الحقائق) ثلاثة أصناف: فصنف منهم نفى الحقائق جملة، وصنف منهم شكّوا فيها، وصنف منهم قالوا: هي حق عند من هي عنده حق، وهي باطل عند من هي عنده باطل.

وعمدة ما ذكر من اعتراضهم فهو اختلاف الحواس في المحسوسات كإدراك المبصر من بعد عنه صغيراً ومن قرب منه كبيراً، وكوجود من به حمى صفراء حلو المطاعم مرّاً، وما يرى في الرؤيا مما لا شك فيه لرائيه أنّه حق من أنّه في البلاد البعيدة...»[2].

والذي يظهر للمتأمل في منهج ابن حزم عموماً خاصة في مجادلته للخصوم؛ الاطّراد الواضح في إبطال دعوى المدّعي، وذلك في جودة ترتيبه لرأي الخصوم، حيث يبدأ عادةً بتفنيد الأشد غلُواً من أقوالهم أولاً، وذاك سبيل لهدم ما هو أدنى قوّةً من باب أولى وأحرى.

ومبطلو الحقائق – بحسب نص ابن حزم السابق – على أقسام ثلاثة:

فمنهم من نفى تلك الحقائق جملة (= نفي وجود الواقع الخارجي)، وهذا القول لا يُثبت وجود المحسوسات مستقلة عن الإدراك الحسّي. ومنهم من شك في وجودها، والقسم الثالث منهم : من نظر إلى الحقيقة بحسب اعتقاد الناظر إليها؛ أي: أنّ الحقيقة على قولهم هذا: نسبيّة عنّديّة تدور وجوداً وعدماً مع مُعتَقد الناظر.

وهذه الأقوال التي أوردها الشكّاك تستند إلى أمر مشترك أجمعوا عليه، حيث يزعمون أنّ اختلاف الحواسّ يؤدي إلى الخطأ في نقلها للواقع الخارجي، وأنّ هذا الخطأ الحاصل من هذه الحواسّ لا يجعلُ الإدراكَ الحسّي يقينيّاً.

وقد ذكر أبو محمد ما هو جديرٌ بنقض قولهم هذا عندما بيَّن أنّ عمليّة الإدراك الحسّي لا تحتاج إلّا إلى وجود الموضوع الخارجي، وسلامة المدركات الحسّيّة؛ لكي يتحقق الإدراك الحسّي على وجه الضرورة؛ (وهذه هي البداية والمشاهدات التي لا يجوز أن يطلب عليها برهان)[3]؛ لأنّ من طلب لأساس البرهان برهاناً؛ لزمه الدور الممتنع، وكانت الأشياء في وجودها – بناء على ذلك – لا نهاية لها، وهذا لا يتشكل في العقل البتة.

كما أنّ أبا محمد أوضح أنّ الخطأ الذي قد يقع في أثناء العمليّة الإدراكيّة يكون خطأً كذلك؛ لسببين: الأول: فيما له عَلاقة بآفة تصيب الحواسّ؛ فلا تكون مع وجود تلك الآفة سليمةً. والثاني: فيما له علاقة بتغيّر الواقع الموضوعي للشيء المُدرَك. وكلا الأمرين لا يقدحان في عمليّة الإدراك الحسّي ومدى حصول التطابق في هذه العمليّة الإدراكيّة بين الذهن المنطبع بالمعطى الحسّي والواقع المحسوس. فأمَّا السبب الأول فقد أحال الحواسّ عن وضعها الفطريّ؛ فحصل الخطأ منها تبعاً لذلك. وأما السبب الثاني فإنّ تغير الواقع الموضوعي لا علاقة له بخطأ الحواسّ، بل الحواسّ في هذه الحالة قد نقلته في حال تغيّره على ما هو عليه، وهذا دورها الذي خُلقت من أجله.

وفي هذا المعنى يقول أبو محمد: «... وكذلك يشهد الحسّ أيضاً بأن تبدّل المحسوسّ عن صفته اللّازمة له تحت الحسّ؛ إنّما هو لآفة في حسّ الحاسّ له لا في المحسوسّ، جار كل ذلك على رتبة واحدة لا تتحول»[4].

وممَّا نقمَ به أبو محمد على هؤلاء الشكّاك؛ خلّو قولهم من البرهان الثابت الذي يُنطلق منه في إثبات الحقائق، حيث تبدّى له أنّ قولهم هذا قول من لا معرفة له أصلاً بشيء، ومن لا معرفة له لا أساس له، ومن لا أساس له، لا يصلح النقاش معه.

وفي هذا المعنى يقول: «... فإنَّ كان لا يثبت برهاناً فلا وجه لطلبه ما لا يثبته لو وجده...»[5].

ومع هذا كله إلا أنّه أبطل تسويتهم لحدود الأشياء المستقرة في الخارج وما هي عليه من الصفات بالتفريق بين حال اليقظة، وحال المنام، وبيَّن أن توهم اختلاف الحواس في

(١) انظر: ديفد هيوم، زكي نجيب محمود، ص٥٣ وما بعدها.
(٢) انظره بتمامه : الفصل، ١/ ١٤ وما بعدها.
(٣) الفصل، ١/ ١٤.
(٤) الفصل، ١/ ١٤.
(٥) الفصل، ١/ ١٤.

المحسوسات لا يرجع إلى المحسوسّ وإنما لآفة في حسّ الحاسّ بدليل الضرورة والمشـاهدة التي لا تحتاج إلى برهان، ولو طُلب على هذه الضرورات برهان للزم التسلسل وهذا محال لا سبيل إليه ألبتة وقد تقدم ذكر هذا.

ويتحصّـل من هذا؛ أنّ نفي الحقائق مكابرة للعقل والحسّ معاً.

ويـورد ابن حزم علـى أصحاب القسـم الأول ممَّن أنكر الحقائق= جملة أسئلة فيها إلزام لهم وإذعان؛ فلا مفرَّ لهم من أمرين لا ثالث لهما، فعندما يُسـألون عن قولهم: أنَّه لا حقيقة للأشـياء، يقال لهم: هل قولكم هذا حـق أم باطل؟ فإن قالوا: حق؛ أثبتوا حقيقة ما، وإن قالوا: باطل؛ أقروا ببطلان قولهم.

ويقال للشكاك منهم: أشككم موجود وصحيح منكم؟ أم أنّه بخلاف ذلك؟ فإن قالوا بالأول؛ أثبتوا حقيقة ما، وإن لم يقولوا به؛ أبطلوا الشك ونفوه؛ وفي إبطالهم للشك؛ إثبات لليقين.

أما النسـبيّون منهم والقائلون بارتبـاط الحقائق باعتقاد الناظر إليها؛ فليسوا على شيء؛ إذ الحقيقة للشيء في الخارج ليست متوقفة على اعتقاد مُعتقد، ولا إبطال مُبطل؛ بل حقيقة الشيء موجودة وثابتة في نفس الأمر لا يمكن أن يفصلها فاصلٌ، فما أدركه الإنسان هو مجرد الانطباع الحسّي دون إضافة ذلك إلى اعتقاد معتقد أو إبطال مُبطل، ومن جعل الحقيقة للشـيء لا تكون حقيقة إلّا باعتقـاد، ولا تكون باطلة إلّا باعتقاد آخر؛ فقد جمع بين النقيضين؛ الذي هو عين المحال الذي ينتهي عنده العقل ولا يصدقه.

والذي يّقرّ بأنّ الأشـياء حـقٌ عند من هي عنده حقٌ؛ فقد أبطل قـول القائلين: إنَّ الحقائق باطلة، والعكس وارد على من جعل الأشـياء باطلة عند من هي عنـده باطلة؛ فقد أحق قول القائلـين: إنَّ الحقائق حقٌ. وصنيع الشـكاك هذا إنّما لكونهم ربطوا وجود الأشـياء بإدراكها، والحق أن التلازم بين الإدراك ووجود المُدرك؛ باطل. وفي هذا المعنى يقول ابن حزم: «... وإنّما يكون الشـيء حقاً بكونه موجوداً ثابتاً سواء أعتقد أنّه حق، أم اعتقد أنه باطل، ولو كان غير هذا؛ لكان الشيء معدوماً موجوداً في حال واحدة في ذاته؛ وهذه عين المحال...»[1].

وبعدُ، فهذا هو منهج ابن حزم في الحسّ المباشـر، عُرف من خـلال رده على الشـكّاك، حيث تم نقـض وتفكيك قول أصحاب الشك السّفسطيّ وفق بدهية الحسّ المؤسسة للمعرفة الصحيحـة بجعل الحقيقـة متطابقة مع الواقـع؛ بمعنى: أنّه أقرَّ التطابق بين حكم العقـل الذهني (الإدراك) وبين العين أو الشـيء في الخارج (المُدرَك) وأكـد ثباته على خصائصه التي هي عليها، ولم يجعل الإنسان مقياساً وأساساً للمعرفة؛ بمعنى: أنّه لم يجعـل المعرفة متعلقة بالـذات العارفة فقط كما صنع السفسـطائيون، بل جعل طرائق إدراك الحقيقة والكشف عنها منوطـة بثنائية الحس والعقل والتي تقضـي بفك التلازم بين عملية إدراك الشـيء المـدرك ووجوده في الخـارج. فالحسّ والعقل مكمّلان لبعضهما في حصول المعرفة للنّفس.

والجدير بالذكر في هـذا المقام أنّ القول بفطريّة الإدراك الحسّي؛ يجعل الخطأ في عمليّة الإدراك الحسّي لا يُنسب إلى الحواسّ – متى ما كانت سـليمة من أي آفة – ؛ لكونها فطريّة يقيّنيّة أمينة في نقلها.

والحاصـل أنّ الحصولَ على المعرفـةِ عند ابن حزم يكون بمجموع الموضوع المعروف والـذات العارفة دون أن تكون هذه العلاقة حاكمة على وجود الشيء في الواقع الخارجي في حال إدراكها له، وعدم وجوده في حال عدم إدراكها له؛ بل إنّ الوجود مستقلٌ في وجوده عن عمليّة الإدراك الحسّي؛ مع التسليم بأنّ تمام المعرفة الحسّـية لا يحدث فيها انفكاك الحسّ عن العقل في حصول المعرفة؛ وهذا هو الموقف الطبيعي للإنسـان الذي يجعل الإدراك الحسّي يقيّنيّاً لا احتمال فيه؛ لاعتبار الأوليّة في قضاياه؛ وهذا هو قول ابن حزم نفسه.

وختاماً، فلا شـك أنّ للشـكّ ناراً محرقةً، يقاسي حرّها وعذابها من عاش معاناتها. فالشـاكُّ فـي ريبه يتردّد ويحتار، ويطفئ بشـكه نور إيمانه؛ فهو بهذا ينقلب على وجهه ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

أمّـا صاحب اليقين؛ فهو في طمأنينـة تضفي على روحه سعادة غامرة وفرحة سارّة، يأنس بربه ويسلِّم الأمر إليه، ويعود في شأنه كله إلى الوحي المنزّل والشرع المطهّر، هكذا هو اليقين الذي تتعطش له النّفس كلما مرّ بها طيف من أطياف الشـك. فمن شـك واحتار فليـس له دواء كافٍ شـافٍ إلا في اليقين. فباليقين ينتظم للعبد أمران: (علم القلب، وعمل القلب)[2].

قـال – تعالى –: ﴿وَالَّذِيـنَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْـكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤ – ٥].

(١) الفصل، ١/ ١٤.

(٢) الفتاوى، ٣/ ٣٢٩

المصطلحات

هاني بن عبد الله الجبير(*)
haniam@gmail.com

الحمدلله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فقد امتن الله على عباده بتعليمهم البيان، فقال - تعالى -: ﴿الرَّحْمَـنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَـانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

وامتـدح الله تعالـى كتابه الكريم بالبيـان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وموسى عليه السلام طلب من ربه أن يفك الحُبْسة التي كانت في بيانه، فقال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨].

وأنبأنا الله تعالى أن فرعون شـغّب على موسى: فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

فالبيان ميَّز الله به الآدمي عن غيره، وهو من أجلِّ النعم وأكبرها عليه، فبه يبين الإنسـان عمَّا في ضميره، وبه يعبر عن حاجته، ويفصح عن حجته، ويبلّغ للناس مراده.

وكلمـا كان الـكلام أتم بياناً كانت العقـول عنه أفهم، والأعنـاق إليه أميل، والنفوس إليه أسـرع، ولهذا بعث الله تعالى لكل أمة رسـولاً من بني جنسها ينطق بلسانها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد أمر اللـه تعالى بتفادي ما يحصـل به اللِّبس في المعنى، أو خلط الحسـن بالقبيح في ذهن السـامع، فذلك خلاف البيان المقصود، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

وأيّة كلمة تتسبب في خفاء المعنى المقصود، أو توهم غير المراد، فلا بدَّ من حذفهـا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقال ابن كثير: (نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أنَّ اليهود كانوا يغيرون من الـكلام ما فيه تورية لما يقصدونه مـن التنقيص، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يودون بالرعونة كمـا قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَـادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِـمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النسـاء: ٤٦]، وكذلـك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهـم أنهم كانوا إذا سـلَّموا إنما يقولون: السـام عليكم، والسام: هو الموت، ولهذا أُمرنا أن نردَّ عليهم بعليكم)[1].

وكذلك ينهى الشـارع عن كل كلمة تفهم مدح ماذمه الله تعالى، فقد نهى النبي ﷺ عن تسـمية العنب: كرماً، وقال: «الكَرْم قلب المؤمن»[2].

(*) قاضٍ في المحكمة الكبرى في الرياض.

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥).

(٢) صحيح البخاري (٦١٨٢)، صحيح مسلم (٢٢٤٧).

فقد قيل: (إن النهي عن تسمية العنب بهذا مع اتخاذ الخمر المحرم منه وصف بالكرم والخير والمنافع لأصل هذا الشراب الخبيث المحرم، وذلك ذريعة إلى مدح ما حرم الله وتهييج النفوس إليه)[١].

ونهى النبي ﷺ عن تسمية العِشاء بالعتمة[٢]، محافظة منه على الأسماء التي سمَّى الله بها، فلا تُهجر، ويُؤثر عليها غيرها[٣].

وكان النبي ﷺ يتخير في خطابه، ويختار أحسن الألفاظ وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والفحش، وكان يكره أن يُستعمل اللفظ الشريف المصون في حق من ليس كذلك، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه في حق من ليس من أهله. فقد منع أن يُقال للمنافق: ياسيد، ونهى المملوك أن يقول لسيده: ربي، ونهى السيد أن يقول للمملوك: عبدي.

وكذلك نهى أن يقول الرجل: خبثت نفسي.[٤]

وفي هذه الورقات عرض لقضية فكرية وهي التعامل مع الاصطلاحات عرضاً وتقعيداً شرعياً، أسأل الله تعالى فيه التوفيق والسداد.

(١) تضمين من زاد المعاد (٢/ ٣١٩).
(٢) صحيح مسلم (٦٤٤).
(٣) زاد المعاد (٢/ ٣٢٠).
(٤) انظر: زاد المعاد (٢/ ٣٢٠-٣٢٥) وفي المرجع تخريج لهذه الأحاديث وأمثلة ضافية أخرى.

أولاً: تعريف المصطلحات وأنواعها:

المصطلحات: جمع مصطلح، وهو اسم مفعول من اصطلح، والاصطلاح في اللغة: مطلق الاتفاق[٥].

ويُقال في تعريفه: اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى[٦].

فهو اتفاق على تسمية شيء باسم محدد، أو وضع لفظ معين للدلالة على مقصود محدد[٧].

وهذه الاصطلاحات منها ما استعمله الشرع - وهي المصطلحات الشرعيّة - أو الأسماء الشرعية الدالة على معان شرعية، سواء أكانت هذه المعاني مما استعمل في اللغة العربية بنفس المعنى كالجزية والخراج، أم استعملها في معنى جديد كالصلاة والحج والطهارة والزكاة والأذان ونحوها فإنها مستعملة عند العرب سابقاً لكن ليس بنفس الدلالة والمعنى الذي جاء به الشرع.

فالنوع الأول من المصطلحات هو: المصطلح الشرعي.

وأما الثاني: فهو المصطلح الحادث، أي الاسم المستعمل في معنى اتفاقي وليس مستفاداً من القرآن والسنة.

والمصطلح الحادث قد يكون مستوردا من خارج الأمة الإسلامية، آتياً من حضارة خارجية، وقد يكون ناشئاً في الحضارة الإسلامية نفسها.

وقد يستعمل أهل العلم في التعريف ببعض المصطلحات الحادثة كلمة المصطلح الشرعي، ويريدون به أنه من كلام الفقهاء مثلاً وهو وإن لم يكن متلقّىً من الشرع إلا أنه اصطلاح حملة الشرع[٨].

ثانياً: خصائص المصطلحات:

المصطلحات ضرورة علمية، ووسيلة مهمة من وسائل التعليم ونقل المعلومات، وبها يبدأ التعليم، وينتشر العلم، وتلتقي أفكار العلماء، وينتفع الخلف بمجهود السلف، لكونها تجمع الفكر على دلالة محددة واضحة[٩].

فالمصطلح له أهميته العلمية وأبرز خصائصه أنه وضع للتعريف وبيان المفهوم، ولذا قيل المصطلح: لغة التفاهم بين العلماء.

(٥) المصباح المنير للفيومي (ص ل ح).
(٦) التعريفات للجرجاني ص ٤٤.
(٧) انظر: دراسات في تأصيل المعرّب والمصطلح، د. حامد قنبيي ص ١٦٣.
(٨) حاشية الباجوري علي بن القاسم (١/ ٢٠).
(٩) المواضعة في الاصطلاح بكر أبو زيد ضمن فقه النوازل (١/ ١٤٨).

والخصيصة الثانيــة للمصطلحات أنهــا مرتبطة بالبيئة التي نشــأ فيها المصطلح دلالةً، واتساعاً، فكل صياغة لمصطلح له مقصد، وهــذا المقصد هو الذي يعطــي الدلالة الحقيقية للمفهوم، فالمفهوم لا يكتســب معنى ذاتياً، بل بحسب ما يقصد إليه، ولذا شاع بين أهل العلم قولهم: لا مشاحّة في الاصطلاح، بمعنــى أنه لا ضيــر أن يختص كل علــم بمصطلحه الذي قد يوافقــه أو يخالفه مصطلح آخر في علم آخر، وهو طبعاً ما لم يتضمن المصطلح معنىً سيئاً أو اقتضى مفسدة، قال ابن القيم: (والاصطلاحات لا مشاحة فيها إذا لم تتضمن مفسدة)[1].

وقال الشوكاني: (إذا جرى اصطلاح على ما يخالف المعنى الشرعي هو مدفوع من أصله)[2].

فالمصطلح إذاً قد لا تثبت دلالته على وتيرة واحدة.

وتأسيساً على ماسبق نجد أن المصطلحات الشرعية تمتاز بما يلي:

١ - الربانية:

المصطلحات (والأسماء) الشرعية: وحي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ، والتشريع حق الله تعالى، لا معقب لحكمه، ولا مبدل لكلماته، وليس لأحد أن يبدل هذه الأسماء ولا أن يغير معانيها، بل يجعلها بمراداتها الشرعية حاكمة على التصورات، ضابطة للعلوم[3]، يقول ابن تيمية - رحمــه الله - عن هذه المصطلحات: (فالنبي ﷺ قد بــيَّن المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلى الاســتدلال على ذلك بالاشــتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك، فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله فإنه كاف شــاف، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصّة والعامّة، بــل كل من تأمّل ما تقوله الخــوارج والمرجئة في معنى الإيمان علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول)[4].

ولكونهــا ربانية المصدر فإنها لا تتبدل ولا تتغير في لفظها ولا فــي دلالتها، فتمتاز بالثبات المطلــق الذي يجعل أي تدخل فــي تبديل لفظها أو معناها تحريفاً للكلم عن مواضعه قال ابن تيميــة - رحمه الله -: (فما أطلقه الله من الأســماء، وعلق به الأحكام من الأمــر والنهي والتحليل والتحريم لم يكن لأحدٍ أن يقيده إلا بدلالة من الله ورسوله ﷺ)[5].

وكذلك فإنها لربانيتها فإن التزامها يتضمن مصالح البشر، وحسن توجههم إذ التشريع الرباني قد تضمن مصالح العباد في العاجل والآجل.

(١) مدارج السالكين (٣/٣٠٦).
(٢) السيل الجرار (١/٣٢٦).
(٣) انظر: موقف أهل السنة والجماعة من المصطلحات الحادثة، د. عابد السفياني ص ٣٧.
(٤) مجموع الفتاوى (٧/٢٨٦).
(٥) مجموع الفتاوى (١٩/٢٣٦).

٢ - البيان والوضوح والانضباط:

وهذا من خصائص التشــريع الإسلامي المستفاد من كتاب اللــه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَــابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَــيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فإن دلالة ومفهوم المصطلح الشــرعي واضح بيِّن منضبط لا يختلــف باختلاف البيئات والثقافات، فهو لفظ الوحي الذي لا يأتيــه الباطل، ولذا يتفق المتمســكون بدلالتها ولا يختلفون باختلاف العصور والبيئات.

يقــول ابن تيميــة - رحمه الله - عن أهــل الأهواء: (ولو اعتصمــوا بالكتاب والســنة لا تفقوا، كما اتفق أهل الســنة والحديث، فإن أئمة الســنة والحديث لم يختلفوا في شيء من أصول دينهم)[6].

وهذا الانضباط لمعاني المصطلحات والوضوح فيها لا يمنع من تنوع تطبيقاتهــا ووقوع التفاوت فيها، فإن ذلك ليس عائداً لمفهوم المصطلح، بل لأمر خارج عنه.

وكما امتازت المصطلحات الشرعية بهذه المزايا فقد تميزت المصطلحات الحادثة أيضاً بما يلي:

١ - ارتباط مفهومهــا بالمقصد الذي يراد منها، أو بالبيئة التي نشــأ فيها، أو بالتطور العلمي، فالمصطلح كثيراً ما يعتريه الاستبدال والسعة والضيق، فلا تثبت دلالته على وتيرة واحدة.

(لكلِّ مفهوم صياغــة نظرية لها مقصد، وهذا المقصد هو الذي يعطي الدلالة الحقيقية للمفهوم، فالمفهوم إذاً لا يكتســب معنى لذاته؛ بل بحسب ما يقصد إليه)[7].

ولذا ينشــأ عنه الثاني مما تتميز به المصطلحات الحادثة وهو:

٢ - عدم وضوح المعنى وانضباطه لعدم إدراك مدلولاته حق المعرفة، لكونها تســمية مبنية على أصول مرجعية، وحضارية وبيئية معينة لابدَّ من إدراكها لمعرفة المعنى المقصود.

(فالمصطلحات قد تكون مســتقرة في سياقها الحضاري، وتفي بالغرض الذي وضعت من أجلــه لدرجة مقبولة، ولكنها تصبح لا معنىً لها تقريبــاً، بل تصبح أداة تضليل، حينما تنقل إلى سياق آخر)[8].

٣ - إنهــا لا تلتزم قاعدة اللغــة العربية، فقد تكون وافدةً،

(٦) درء تعارض العقل والنقل (١٠/٣٠٦).
(٧) الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، على أو مليل ٨٢ بواسطة الاصطلاحية الغربية في الفكر الإسلامي المعاصر سعيد شبار ص ٧٠٣ ضمن ندوة الدراسات المصطلحية.
(٨) إشكالية التحيز، عبد الوهاب المسيري ص ١٠٣.

أُسئ تعريبها، أو نُحِتت على خلاف قاعدة اللسان العربي[1].

ومعلوم أن اللجوء للعربية وإحياءها، وإخراجها إلى سوق التداول العلمي: من أقوى عوامل اتصال حاضر الأمة بماضيها، وثباتها على دينها[2].

(ولا يمكن الاهتمام بفنٍّ من الفنون، ولا بعلم من العلوم، دون العناية بترسانة مصطلحاته، وخزان معاني ودلالات تلك المصطلحات، ومراقبة مفعولها في الأذهان، ومتابعة سريانها داخل منظومة ونسق المفردات، والمصطلحات التي يتم تداولها داخل المجتمع المعني بالأمر من خلال لغة الخطاب والتخاطب... وقد أصيبت أمتنا.. بتخليها بشكل واضح وملموس عن العناية باللغة العربية، وعدم بذل الجهد لإحلالها المكانة اللائقة بها داخل المجتمع.. مما يقطع التواصل مع تراث الأمة وكنزها التاريخي، بل ويقطع الطريق بينها وبين قواعدها المعرفية والحضارية)[3].

٤ - ومما يرتبط بما سبق أن هذه المصطلحات قد يفسر بها النص الشرعي أو المصطلح الشرعي على المعنى الحادث فتختلط المفاهيم، وذلك أن المصطلح إذا خوطب به العوام أخذ عدة معان طبقاً لمستوى المخاطب فيفسر كل واحد منهم هذا المصطلح تفسيراً عشوائياً، وكيف إذا كان هذا المصطلح أصلاً بحاجة للتنقيح؟!

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: (ومن أعظم أسباب الغلط في فهم كلام الله ورسوله أن ينشأ الرجل على اصطلاح حادث فيريد أن يفسّر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمله على تلك اللغة التي اعتادها)[4].

٥ - المصطلحات الحادثة قد يؤدي استعمالها لإبطال المقاصد والمرادات الشرعية.

فالمصطلح قد يموه على الناس ويلبّس عليهم، وفي قوله ﷺ: (إن من البيان لسحراً)[5]، تشبيه بليغ؛ إذ البيان يعمل عمل السحر فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق، فيستميل قلوب الجهال حتى يقبل الباطل وينكر الحق[6].

وقد قال الإمام أحمد - رحمه الله -: لا نزيل صفة عن الله لأجل قناعة المشنعين[7].

أي أن وصف المعطلة من أهل البدع لمن يثبت صفات الله تعالى بأنهم مشبهة أو مجسمة، لا يمنعنا عن أن نثبت لله ما أثبته لنفسه.

وقد درس بعض الكتاب مفهوم التسامح، وقرر أن القوى الأوروبية في القرن التاسع عشر الميلادي سعت باسم التسامح وحق الاختلاف في الاعتقاد إلى تفكيك الدولة العثمانية، وأن تنزع منها الحماية على الأقليات غير المسلمة، وأنه لهذا السبب وقف جمال الدين الأفغاني ضد مفهوم التسامح لمعرفته بدلالته وما يقصد منه[8].

والمقصود أن المصطلح الحادث لابدَّ من تمييزه وضبطه شكلاً ومضموناً، مع الحذر عند استعماله لما قد يؤدي إليه من تعطيل لمقصد شرعي.

ثالثاً: قاعدة التعامل مع المصطلحات:

الواجب نحو المصطلحات يمكننا أن نجمله في ثلاثة محاور:

١ - المحافظة على المصطلحات الشرعية لفظاً ومعنى، قلباً وقالباً.

فيستمل المصطلح الشرعي للدلالة على مراده، ولا يسمى بغير اسمه، سواء أكان المراد حسناً أم قبيحاً، وقد تقدم في بداية هذا المقال شواهد من الشرع على ذلك قال ابن القيم في تعليقه على النهي عن تسمية العِشاء بالعتمة: (وهذا محافظة منه ﷺ على الأسماء التي سمَّى الله بها العبادات فلا تُهجر، ويُؤثر عليها غيرها، كما فعل المتأخرون في هجران ألفاظ النصوص، وإيثار المصطلحات الحادثة عليها، ونشأ بسبب ذلك من الجهل والفساد ما الله به عليم)[9].

وقال أيضاً: (كان الصحابة والتابعون يتحرون ألفاظ النصوص غاية التحري، حتى خلف من بعدهم خلوف رغبوا عن النصوص، واشتقوا لهم ألفاظاً، ومعلوم أن تلك الألفاظ لا تفي بما تفي به النصوص... فألفاظ النصوص عصمة وحجة بريئة من الخطأ)[10].

وفي المقابل فإن إطلاق اسم غير الاسم الشرعي على الشيء لا يغيِّر حكمه، إذ المصطلح كما يُحَافظ على لفظه يحافظ على معناه، وفي هذا الخصوص يقول ابن القيم: (معلوم

(١) في المواضعة في الاصطلاح قصة التسمية (بالموسوعات) والمبنيّة على الخطأ ص ١٠٥.
(٢) المرجع السابق ص ١٤٤.
(٣) نحو صياغة معاصرة للمصطلح المستقبلي، محمد بريش، ضمن ندوة الدراسات المصطلحية ص ٧١٦.
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/١٠٧).
(٥) صحيح البخاري (٥١٤٦) عن ابن عمر، صحيح مسلم (٧٦٩) عن عمار بن ياسر.
(٦) فتح المجيد، عبد الرحمن بن حسن (٢/٤٨٧).
(٧) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٣٥٩).
(٨) الاصلاحية العربية، علي أو مليل ص ١١٠.
(٩) زاد المعاد (٢/٣٢٠).
(١٠) اعلام الموقعين (٤/١٧٠).

أن تحريم الخمر للحقيقة والمفسدة لا للاسم والصورة، فإن إيقاع العداوة والبغضاء والصدِّ عن ذكر الله وعن الصلاة لا تزول بتبديل الأسماء والصور عن ذلك، وهل هذا إلا من سوء الفهم وعدم الفقه عن الله ورسوله... ولو أوجب تبديل الأسماء والصور لتبدلت الأحكام والحقائق، ولفسدت الديانات، وبدلت الشرائع، واضمحل الإسلام، وأي شيء نفع تسمية الأشياء بغير اسمها؛ بل هؤلاء حقيق أن يتلى عليهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣][١].

٢ - تعريب المصطلح غير العربي، ولزوم إحسان الصناعة العربية فيه.

فلابدَّ من (تنزيل المواضعات على مقاييس اللغة العربية وقواعدها لتحقيق سلامة المفردات، وصحة الدلالة، واستقامة تأليف المركبات منها على وجه مقبول في لسان العرب ومنهجها)[٢].

وهذا لابدَّ منه إذ اللغة مرآة تنعكس فيها أحوال الثقافة والحضارة، واللسان يزدهر أو يضمحل بحسب تجدد اللغات الاصطلاحية وتعدد الرموز العلمية[٣].

ومن المعلوم ما ترجم كيفما اتفق لا كيفما يجب أن يكون، بينما المتعين أن (ننظر إلى الظاهرة ذاتها، وندرس المصطلح في سياقه الأصلي، ونعرف مدلولاته حق المعرفة، ثم نحاول توليد مصطلح من داخل المعجم يطابق المراد، فتكون تسمية توافق وجهة نظرنا ونتجاوز بذلك تسميات الآخر وأوهامه، وهذا ليس انغلاقاً على الذات، بل هو انفتاح حقيقي بديل للخضوع التام.

فالانفتاح: عملية تفاعل مع الآخر، نأخذ منه ونعطيه)[٤].

وإحسان الصناعة المصطلحية يدخل فيها عدم استعمال لفظ أو تركيب نهى عنه الشرع أو أفهم معنى يخالف الشرع أو مقاصده.

ومن إحسان الصنعة المصطلحية أن ما كان توقيفياً فلا يجوز أن يدخل فيه أي تعديل، فإن التغيير فيه إحداث في الدين، ومخالفة لمقصد التوقيف.

ومنها: انطباق الاسم على المسمى فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والمراد أن إحسان توظيف اللغة مطلوب متأكد (فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسنة المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة... وما زال السلف يكرهون تغيير شعائر العرب حتى في المعاملات، وهو التكلم بغير العربية إلا لحاجة... بل قال مالك: من تكلم في مسجدنا بغير العربية أُخرج منه، مع أنه يجوز النطق بها لأصحابها)[٥].

٣ - المصطلح الحادث لا يستعمل ولا يطلق فيما فيه إطلاق أو تسمية شرعية، ومدلولات المصطلحات الحادثة لا يسلّم بها حتى يتحقق من مرادها فيقبل الصحيح ويُردُّ الفاسد.

فقد سبق أن المصطلحات الشرعية لا تستبدل، والحادثة لما قد يشوبها من عدم تنقية المعنى فلا بدَّ من وضعها تحت مجهر الشريعة ليكشف أي دخيل على الشريعة.

يقوم ابن تيمية - رحمه الله -: (من تكلم بلفظ يحتمل عدة معان، لم يُقبل قوله، ولم يُرد، حتى نستفسره ونستفصله حتى يتبيّن المعنى المراد. ويبقى الكلام في المعاني العقلية، لا في المنازعات اللفظية..)[٦].

فسبيل أهل السنة: التعبير عن الحق: بألفاظ شرعية: إلهية أو نبوية كلما أمكن ذلك وعدم العدول لغيرها ولذا كرّه السلف التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحوها ليس لكونها اصطلاحاً حادثاً فقط، بل لاشتمالها على أمور كاذبة مخالفة للحق، ولذا كان الواجب في هذه الألفاظ ألَّا يطلق معناها حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن كان معنى صحيحاً قُبل؛ لكن قيل له ينبغي التعبير عن الحق بلفظ شرعي دون اللفظ المجمل، وعند الحاجة يستعمل مع قرائن تبين المراد وتوضح الحاجة له[٧].

والحاصل أن المصطلحات الحادثة (يجب أن توقفها الجمارك عند الاستقبال في حدود الأمة الحضارية للسؤال والتثبت من حسن النية ودرجة النفع والملائمة للهوية فالمصطلح الوافد في العلوم الإنسانية ظنين حتى تثبت براءته، والمصطلح التراثي في هذا الشأن له الأسبقية والأولوية على غيره متى وجد)[٨].

والله الموفق والهادي للصواب لا إله إلا هو.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/١٢٧) بتصرف يسير.
(٢) المواضعة في الاصطلاح (١/١٤٧).
(٣) ندوة الدراسة المصطلحية (٢/٧٠٤).
(٤) إشكالية التميز، عبد الوهاب المسيري ص ١١٠.
(٥) تضمين من مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٢/٢٥٢).
(٦) درء تعارض العقل والنقل (١/١٧٣).
(٧) شرح الطحاوية لابن أبي العزّ - ص ٧٠٥٥ بتصرف.
(٨) نظرات في المنهج والمصطلح، الشاهد البوشيخي ص ٥٤.

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

جديد ..

جديد ..

جديد ..

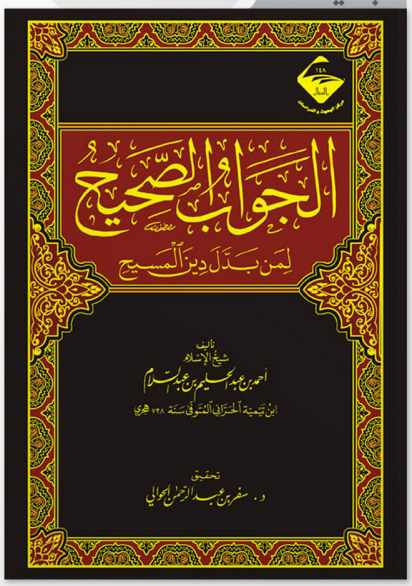

جديد ..

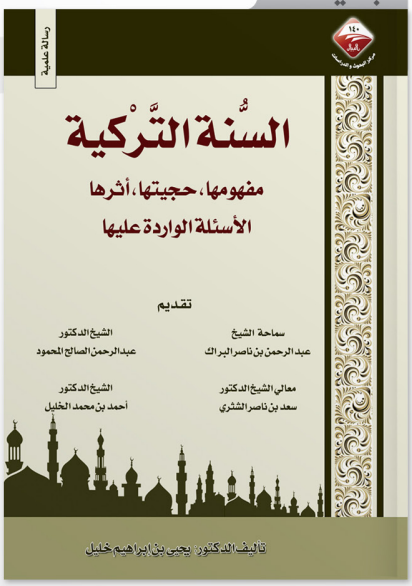

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الحسبة
بين مطرقة الصبر وسندان المجتمع

إسلام السيد علي(*)

لقد وعد الله – سبحانه – عباده المؤمنين بجزيل الشكر، وواسع الرحمة، وذلك في الدنيا قبل الآخرة، وقد يجد عباد الله المخلصون ذلك فيما يجري حولهم ممَّا قد يظنه كثير من الناس ابتلاءات تلو ابتلاءات، وإن كان ذلك في الظاهر حقيقة إلا أن من وراء الستار ما تطيب به نفس المؤمن؛ فإنه ليعلم يقيناً أن ما يلقاه في الدنيا شيء يسير عمَّا ينتظره عند ربه، وكما روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قوله: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)(1)، وهذا يعني أن الدنيا مهما عظم نعيمها وطابت أيامها، وزهت مساكنها فإنها للمؤمن بمنزلة السجن؛ لأن المؤمن يتطلع إلى نعيم أفضل وأكمل وأعلى، وأما بالنسبة إلى الكافر فإنها جنته؛ لأنه ينعم فيها وينسى الآخرة.

وإن كان الله – القدير – سيجازي المؤمنين يوم القيامة بالعطاء الجزيل، فإن المؤمنين بقدر أعمالهم، وما قاموا به في الدنيا من أعمال صالحات، وما أصابهم من أذى؛ وغيره ممَّا يتقرب به العبد من ربه – تعالى – لهو سبب لرفعة درجات العباد في جنات عدن، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وإنَّ من أعظم تلك الأعمال اقتران العمل الصالح بما يلاقيه المسلم جراء ذلك العمل، وهذا يظهر بجلاء حين يتعامل المحتسب مع أفراد مجتمعه مع اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم.

إن الأعمال الصالحة متفاوتة في الأجر؛ وذلك يرجع لعدة معايير من أعلاها الصبر فكما قَالَ: ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ "الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ" أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ؛ فإن مخالطة الناس لا بدَّ أن يكون فيها بعض من الشقاء والعناء، ولا بدَّ أن يكون فيها بعض من النكد والضيق، ولكن على المؤمن عموماً والمحتسب على وجه الخصوص أن يصبر على مخالطة الناس وعلى ما يصدر منهم من أذى، وأن يحتسب الأجر في ذلك، وأن ينظر دائماً إلى الناس بعين الرأفة والرحمة، فإن الناس محتاجون إلى المحتسب؛ فهم أشد حاجة للمحتسبين من الأكل والشرب، فبالمحتسبين يحفظ الله – تعالى – الأمة من المؤثرات الخارجية، والعوامل الداخلية، وقد كثُرت كل من تلك المؤثرات وهذه العوامل في مجتمعات المسلمين، وستبقى تزداد كلما ابتعدنا عن عصر النبوة.

ولقد قال سعيد بن جبير – رحمه الله –: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الإنسان وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين، وإنما اختلفوا في وجوب الرضا (أ.هـ)، وهذان القولان هما أقرب لحال المحتسب في زمننا من

(*) ماجستير إعلام.

(1) صحيح مسلم (٢٩٥٦).

غيرهما؛ فإن ما يلاقيه المحتسب في المجتمع من صدٍّ ونكران لجميل ما يصنعه من أجل مجتمعه لهو أمر مرير، وقد لا يشعر بتلك المرارة إلا من ذاقها، فلو أن إنساناً قدَّم معروفاً لآخر ثم إن المُقدَّم له المعروف لم ينكر المعروف، ولكنه لم يشعر أصالة أن آخر قدَّم له معروفاً فهذا أمر صعب، وتزيد الصعوبة عندما يُشعر الآخر أنه يريد إبعاده عمَّا يريده ويرجوه، دون النظر إلى الضرر الواقع عليه، فلا نملك إلا أن نقول للمحتسب اصبر فإن أجرك على الله، واعلم أيها المحتسب أن ما تلقاه من بعض أفراد المجتمع لهو خير، وليس شراً وذلك مصداق قول ربنا – سبحانه وتعالى –: ﴿ **وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [**البقرة**: ٢١٦].

فالأصل هو المخالطة، والمجالسة، والاجتماع، هذا هو الأصل، اجتماع أهل الإسلام واختلاطهم وتلاقيهم في المجالس والمجامع والمساجد والطرقات، هذا هو الأصل يبذلون السلام، ويحسنون الكلام، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدلون على الخير، ويتناصحون ويزيلون الأذى عن الطريق، وينفعون ويأمرون ويصلحون بين الاثنين؛ ولهذا قال ابن الوزير الصنعاني – رحمه الله –: "العزلة عبادة الضعفاء وصيد الشياطين" لأن الأصل عدمها، فالضعيف الذي يعتزل ويكون صيداً للشياطين ما لم يحصن بعلم ويكون اعتزاله لسبب.

ولما كان الاحتساب يُعنى بنشر الخير بين أفراد المجتمع وحفظهم من الفتن والمتقلبات، كان ذلك أقرب لفعل الرسل والأنبياء – عليهم السلام – وقد ضربوا – صلوات الله عليهم – أروع الأمثلة في الصبر وتحمل الأذى من أجل الدعوة واحتساب الأجر على الله، ولاقوا في سبيل الدعوة إلى الله – تعالى – ما لا يوصف، من الأذى القولي والفعلي والطرد والإهانة والقتل، ومع ذلك فما زال الأنبياء على دعوتهم والصبر عليها، وقد تحمل رسول الله ﷺ المشاق في سبيل الاحتساب ونشر الإسلام، وكان أهل قريش يرفضون دعوته للإسلام ويسبونه، ولا يستجيبون له، وكان جيرانه من المشركين يؤذونه ويلقون الأذى أمام بيته، فلا يقابل ذلك إلا بالصبر الجميل. يقول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – عن صبر الرسول ﷺ وتحمله للأذى: (كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي (يُشْبِه) نبيًّا من الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ضربه قومه فأدموه (أصابوه وجرحوه)، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[1].

وعلى صعيد آخر: فإن على المحتسب الذي يخالط الناس أن يتمتع بصفات تجعله يتقرب إلى الناس، وألا يصدر منه ما يُنفر أفراد المجتمع منه؛ فعليه البُعد عن الفظاظة والغلظة والقسوة والغضب وصدق الله – عز وجل – حيث يقول: ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٥٩] ومقابلة السيئة بالحسنة من أبدع الأخلاق وأحبها إلى الله – تعالى – قال – أيضاً –: ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [**الشورى**: ٤٣]، وقال – أيضاً –: ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [**المائدة**: ١٣] وقال – تعالى –: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [**الأعراف**: ١٩٩]، إن تلك الصفات هي الأدوات النورانية التي يجب أن يستخدمها المحتسب في تعامله مع أفراد المجتمع.

ويجب على المحتسب الحرص على نفسه من الاختلاط المحظور؛ فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: "أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها، وذكر أن العبد لا بدَّ له من انفراد بنفسه: في دعائه، وذكره، وصلاة النافلة، ومحاسبة نفسه، وإصلاح قلبه، وممَّا يختصُّ به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره فينبغي للداعية أن يراعي هذه الضوابط، ويعمل بالأصلح المشروع أ.هـ[2]، وممَّا سبق يظهر جلياً أن الإسلام دين الخلطة وليس دين العزلة؛ فالأصل في الإسلام الخلطة بالناس، مع الصبر على ما يلاقيه المحتسب في ذلك من أذى الناس، ويتجلى ذلك في حياة المصطفى ﷺ؛ فمنذ أن نزلت عليه الرسالة وهو يخالط الناس ويصبر على آذاهم ويحتسب ذلك عند المولى سبحانه.

إن المحتسب ليستشعر واجبه تجاه مجتمعه، ويسعى ويُقدم قصارى جهده ليحفظ أفراد مجتمعه، ويحافظ على الضرورات الخمس التي بدونها يصبح المجتمع المسلم مثل باقي المجتمعات التي لا يأمن أفرادها على دينهم، وأنفسهم، وأعراضهم، وأموالهم، أو حتى عقولهم، إن المجتمع الذي يفقد تلك الضرورات الخمس لهو أقرب إلى حياة البهائم منه إلى حياة البشر، وكلما ابتعد أو اقترب المجتمع من الحفاظ على تلك الضرورات كان بعده أو قربه من إنسانيته الحقيقية التي أرادها خالقه؛ لذا كان لزاماً على المحتسب أن يخالط الناس ليعينهم على ذلك، وفي الوقت ذاته ألا يضيع حقوق نفسه، بانجراره وراء أهواء آحاد المجتمع، وإن كثرت تلك الفئة، وعلى المحتسب أن يضع نُصب عينيه قوله – تعالى –: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [**الحج**: ٤٠].

(١) متفق عليه.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/٤٢٥–٤٢٦).

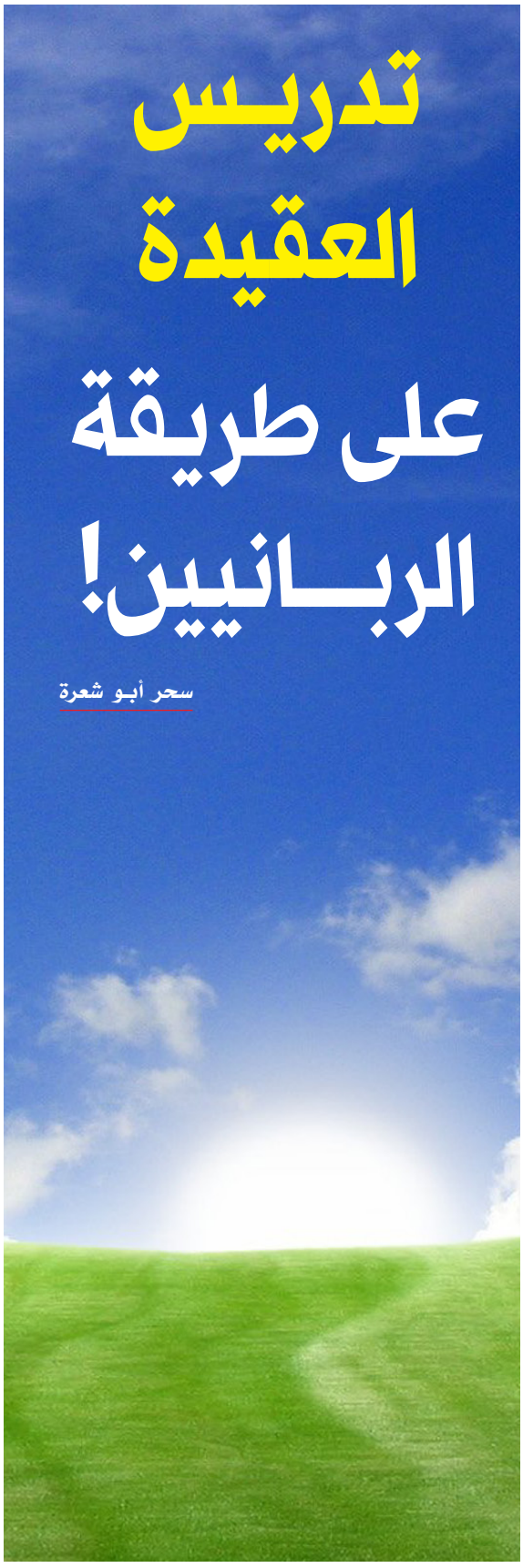

تدريس العقيدة على طريقة الربانيين!

سحر أبو شعرة

إنّ توحيد الله – تعالى – وإفراده بالعبادة هو الغاية التي من أجلها خلق الله الإنس والجنّ، قال – تعالى –: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهو الغاية التي أرسل الله من أجلها الرسل أجمعين، قال – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهو النعمة الكبرى والمنة التي امتن الله – عزَّ وجلَّ – بها على هذه الأمة، فهو سبب سعادة العبد في الدنيا والآخرة

كما أنه سبب العصمة في الدنيا، فبه يُعصَم دم المسلم وماله ويثبت له عقد الإسلام؛ لقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله"–[1].

وهو سبب النجاة في الآخرة من النار، لقوله – تعالى –: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وتحقيق إخلاص العبادة لله – تعالى – وحده هو الشرط لصحة وقبول سائر الطاعات، كما قال – عزَّ وجلَّ –: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال – تعالى – أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وهو كذلك أول ما يجب أن يُخاطب به الناس من أمور دينهم، وإلى ذلك وجَّه النبي ﷺ معاذ بن جبل – رضي الله عنه – عندما أرسله إلى اليمن داعياً إلى الله – تعالى –، فقال له: "يا معاذ: إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم.. الحديث»[2].

وهو كذلك آخر ما يخرج به العبد من الدنيا بسلام: من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة"، فهو أول واجب وآخر واجب.

ولما كانت سعادة المؤمنين في الدنيا والآخرة موقوفة على توحيد ربهم، كان أول ما يجب على المكلَّفين أن يعلموه، وأن تحيا به قلوبهم، ومن ثمّ يتخذونه منهاجاً لحياتهم.

(١) أخرجه البخاري: ١٤٠٠ ومسلم: ٢٠ واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري: ١٤٢٥.

وهذه مهمة العلماء والدعاة، من خلال الدروس والخطب والتصانيف العلمية، وغيرها من وسائل التعليم والدعوة إلى الله – تعالى –.

ولما كانت العقول ودرجات الفهم تتفاوت، كان من الصواب أن يقوم الدعاة بتعليم العقيدة للبسطاء على طريقة الربانيين، على وفق المعنى الذي فسَّر به ابن عباس – رضي الله عنهما – هذا الوصف، في قول الله – تعالى –: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] قال ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسيرها: الربّاني هو الذي يعلّم الناس بصِغار العلم قبل كِبَاره.

وصغار العلم يعني المسائل الواضحة، فالداعي يبدأ الناس بالكليات الواضحات من المسائل قبل الجزئيات وما غمض من مسائل العلم.

وليس من الحكمة أن يخاطب الدعاةُ الناس في درس العقيدة بالمصطلحات الأصولية والتعريفات، والاختلافات التي وقعت بين الفِرَق في بعض مسائل العقيدة مثل: الإيمان بالقدر، والأسماء والصفات وغير ذلك، لأكثر من سبب:

– أن النبي ﷺ أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، وهذا الخطاب يناسب أهل التخصص العلمي وليس المسلم البسيط الذي يأتي إلى المسجد لكي يستمع إلى ما يحيي قلبه من الذكر.

– أنَّ عامة المسلمين ليسوا في حاجة لدراسة المصطلحات العلمية بقدر ما يحتاجون إلى إشعال الجذوة التي خبت في قلوبهم وبث الروح فيها من جديد.

فهناك فرقٌ بين خطاب طلبة العلم وخطاب العامة، ولكل مقام مقال.

وليعلم الداعي أنّ بداية إصلاح النفوس إنما تكون بزيادة مساحة الإيمان فيها، وارتفاع مستواه إلى الدرجة التي يعلو فيها على حجم الهوى داخل تلك النفوس، وهذا ما يصبو لئن يصلَ إليه في دعوته.

ويسير الداعية في أثناء خطابه للناس، في محاور متوازية تؤدي كلها إلى الأخذ بيد المدعوين إلى الله – تعالى – ومعرفته والإذعان الكامل له سبحانه، واتخاذ شرعه منهجاً متكاملاً لحياتهم.

وهذه بعض النقاط الرئيسة، التي تمثل مرتكزات يستند إليها الداعي في طريقه، مثل:

١- تربية الناس على منهج أهل السنة والجماعة في تلقي العقيدة والتي من أهمها:

أولاً: حصر مصدر تلقي العقيدة في الكتاب والسنة، فطريقة أهل السنة والجماعة هي الاعتصام بكتاب الله – عزَّ وجلَّ – وسنة رسوله الصحيحة، والتسليم بما جاء عن رسول الله ﷺ من دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل، وأي عقيدة مستمدة من غير الكتاب والسنة الصحيحة وما بُني عليهما من إجماع إنما هي عندهم ضلالة وبدعة.

ثانياً: فهم النصوص بفهم الصحابة الذين علَّمهم النبي ﷺ وكذا التابعين وتابعي التابعين أهل القرون الثلاثة المفضلة.

فعن قتادة قال: سمعت أبا السوار يحدث عن عمران ابن الحصن يحدث عن النبي أنه قال: "الحياء لا يأتي إلا بخير" فقال بُشير بن كعب: إنه مكتوب في الحكمة أن منه وقاراً ومنه سكينة، فقال عمران: أحدثك عن رسول الله وتحدثني عن صحفك؟؟"

فصفة التسليم للنصِّ الشرعي من أهم صفات أهل الإيمان، فكلُّ ما أمر به الشارع أو نهى عنه أو دلَّ عليه أو أخبر به، حقه التصديق والتسليم مع الإجلال والتعظيم، فالامتثال بلا تردد والاتباع بلا هوى.

كما أنّ تربية الناس على هذا الأصل فيه تحصين لهم من خطر الشبهات والأفكار المنحرفة، والتي باتت قريبة من كلِّ أحد في عصر الفضائيات المفتوح.

٢- تناول قضايا التوحيد الرئيسة مثل:

- توحيد الربوبية:

يبدأ الداعية بتعريفهم بالله - جلَّ وعلا - وربط قلوبهم به، وأحسن السبل في ذلك هو تناول الآيات التي تتكلم عن بديع صنع الله في خلقه، وما في الكون من إعجاز بالشرح والتفسير، وإحياء عبادة التفكر بالنظر في الكون وفي أنفسهم، والتفكر في كثرة نعم الله - تعالى - التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

- توحيد العبادة وسدُّ الطرق الموصلة إلى الشرك:

وهذه هي القضية الكبرى التي دعا إليها جميع الأنبياء والرسل، ودارت حولها جهودهم ومن أجلها أوذوا وتحملوا تبعات التكليف الشاقة، واستغرقت منهم أعمارهم كاملة.

ويشمل هذا المحور التعريف بمعنى العبادة، ووجوب إخلاص العبادة لله وحده، وبيان الشركيّات القولية والعملية التي من الممكن أن يتلبس بها المسلم، خاصة ما هو معاصر منها، يقول الشيخ محمد خليل هرّاس:

"ولما كان هذا النوع من التوحيد - يعني توحيد الألوهية - هو أخطر أنواع التوحيد وأشرفها، فقد احتاط له الشرع أعظم الحيطة، ونفى عنه كلَّ شائبة، وحرَّم كل وسيلة مفضية إلى الإخلال بقواعده حتى يبقى مصون الحِمَى بعيداً عن عوامل الزيغ والانحراف، فنهى عن الألفاظ التي توهم الندية والمساواة بين الله وأحد من خلقه، كقول: ما شاء الله وفلان، وبيَّن أن المخرج هو أن يعطف بـ «ثُمَّ» لا بالواو، ونهى عن الألفاظ التي فيها تعظيم لغير الله مثل الحلف بغير الله - تعالى -، وقول لولا فلان لكان كذا، ونهى عن اتخاذ المساجد على القبور؛ لأن ذلك ذريعة إلى تعظيمها وعبادتها، قال ﷺ: "لعنة الله على اليود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها حتى لا يتشبه المصلون بعبّادها، وغير ذلك من الشركيات التي حذّر منها أمته.

- توحيد الأسماء والصفات:

إنّ لتوحيد الأسماء والصفات شأن عظيم وأثر كبير في القلوب، فعلى الداعي أن يوليه عناية كبيرة، لتعلّمه وتعليمه وبثّه في الناس. والقرآن الكريم تضمن الحديث المباشر عن الله - تعالى -، عن ذاته، وأسمائه، وصفاته، ومنه يستقي الداعي، فيعلّم المدعوين معاني الأسماء والصفات، وآثارها في النفس والكون والواقع الذي نعيشه، ومعنى إحصائها، وكيفية التعبد لله - تعالى - بها، وقطع الطمع عن إدراك كيفيتها، والإيمان بما ورد عنها في القرآن والسنة كما وردت في النصوص دون تشبيه أو تكييف أو تعطيل أو تحريف.

إن من أعظم ثمار معرفة أسماء الله - جلَّا وعلا - والإيمان بها هو الفهم الصحيح لمدلولاتها، والتجاوب مع هذا الإيمان وهذا الفهم، بحيث لا تصبح مجرد مفاهيم ذهنية لا رصيد لها في واقع الحياة على الفرد والأمة.

إن معرفة الاسم، ومن ثم معرفة الصفة تجعل المسلم يتجاوب مع تلك الحقائق ويتأثر بها، إنه لا بدَّ من العلم الذهني، والإيمان القلبي، والتفاعل الواقعي، ماذا يفيد معرفة أن الله هو الرزاق، وهو يطلب الرزق من غيره، ويعلم أنه العزيز القوي الجبَّار، ويطلب العزة من سواه، ويدرك أنه السميع البصير العَليمُ، ولا يستحي منه - جل وعلا - في صغيرة ولا كبيرة، ويقول: إنه الواحد وصفته الوحدانية، ويشرك معه في الطاعة والعبادة، وغير ذلك من أنواع الشرك من الأحياء والأموات.

ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله -:

والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر، اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكلِّ صفة عبودية خاصة، هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها. وهذا مطرد بجميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب - تعالى - بالضر والنفع، والعطاء، والمنع، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً.

وعلمه بسمعه - تعالى - وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياة باطناً، ويثمر له الحياة اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزته تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي من موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى، يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلُّها إلى مقتضى الأسماء والصفات،

وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه – سبحانه – وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها.

فلا ينقطع حديث الداعية عن أسماء الله – تعالى – وصفاته، حتى يمتلئ قلبه وقلوب مستمعيه من محبة خالقهم ومولاهم، وتعظيمه وخشيته والخضوع له، فيثمر لهم ذلك عدم التردد في طاعته، واجتناب ما يسخطه، وحب من يحب وبغض من يبغض، فوالله إنهم حينئذ وقد قرّت أعينهم بمولاهم، لفي أطيب عيش وأكبر نعيم، وحالهم يصدقه قول ابن القيم – رحمه الله تعالى –:

(في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلاّ الأنس به، وفيه حزن لا يذهبه إلاّ السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلاّ الفرار إليه، وفيه فاقة لا يسدها إلاّ محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسدّ تلك الفاقة أبداً.

٣- تأصيل عقيدة الولاء والبراء في نفوس المدعوين:

لأنه من أصول العقيدة الإسلامية، ومعناه أنه يجب على كل مسلم يدين بهذه العقيدة أن يوالي أهلها ويعادي أعداءها، فيحب أهل التوحيد والإخلاص ويواليهم ويبغض أهل الإشراك ويعاديهم.

ونظراً لما لعقيدة الولاء والبراء من أهمية، فإن أعداء الإسلام ما فتئوا منذ زمن طويل يسلطون معاولهم لهدمها في نفوس المسلمين، وذلك ليقينهم بعدم جدوى خططهم للنيل منهم ما دام هذا الحاجز المنيع من الشعور ببغض الكافرين والاستعلاء عليهم موجوداً عند المسلمين، ولقد نجحوا إلى حدٍ بعيد في إضعاف هذه العقيدة والتهوين من شأنها.

والدليل على ذلك واضح بيّن في رضا الكثير من المسلمين بأحوال الكافرين بداية من ملبسهم ومأكلهم ومشربهم إلى الاحتفال بأعيادهم ذات الأصل العقدي الفاسد، ومروراً باتخاذهم قدوة ورمزاً للتقدم والحضارة..!

فإذا كان هذا هو فهم المسلم؛ فقد رَضِيَ لنفسه بمركز الذَنَب لسفلة الناس وأحقرهم.. وهو الذي رفعه الله – تعالى – بإيمانه وتوحيده؛ ليقود العالم بأسره ويُعَبّده لمولاه – جلَّ وعلا –، فجعله الأعلى بإيمانه، وجعل عُلُوّه هذا مقتضٍ لعزةٍ وفرحٍ دائمين ملازمين له ما دام معه إيمانه بالله – تعالى –، قال – تعالى –: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

هكذا أراد الله لعبده المؤمن أن يكون رأساً في الناس بإيمانه قولاً وعملاً واعتزازاً، وجعل ذلك سبباً رئيساً لنفي الذلة والحزن عنه، وبالتالي إذا تخلى عن هذه المكانة السامقة ورضي بالدون حلَّت به الأحزان وركبته الذلة.

هذا الكلام ليس وعظاً مؤثراً نخاطب به الناس، وإنما قوانين وسنن ربانية لا تشذُّ ولا تخطئ. هكذا ينبغي أن نعلمهم إياها.

ومن أفضل الأوقات لطرح هذه القضية عند ملابسة المسلمين لمواطن غيابها أو ضعفها، مثل وقت الاحتفال بالأعياد الدخيلة، مثل: عيد الحب، عيد النيروز أو ما يسمى بـ(شمِّ النسيم).

وكذلك يطرح الدعاة قضية الولاء والبراء عند تفنيد مظاهر التغريب التي غزت ديار المسلمين، في الأفكار والتوجهات والجوانب العملية مثل التشبه بالكافرين وتقليدهم في الملابس وغيرها.

فعليهم إذاً أن يولّوا هذا الجانب من العقيدة الاهتمام اللائق به في دعوتهم، فهو الجدار الصلب والسور المنيع الذي يحمي الله به المجتمعات المسلمة من الذوبان في ثقافات الكفار وأفكارهم ونُظُمِهم وعاداتهم.

وما أحسن ما أوصى به الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – حيث قال:

"إنّ الواجب على الرجل أن يعلِّم عياله وأهل بيته الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة فيه مثل تعليم الوضوء والصلاة؛ لأنه لا صحة لإسلام المرء إلا بصحة الصلاة ولا صحة لإسلامه أيضاً إلا بصحة الموالاة والمعاداة في الله."

٤- التأكيد على معاني الاعتزاز بالدين، والاستعلاء بالإيمان والتوحيد:

والاستعداد التام لبذل الأرواح والمهج في سبيلها، والتأكيد على أن نهضة الأمة تكمن في عودتها للتمسك بدينها، وأن المسلمين لم يتأخروا إلا يوم فرّطوا في دينهم وانهزمت معاني العزّة في نفوسهم.

ومن الممكن عرض هذا الموضوع من خلال القصص القرآني والنبوي (قصة أصحاب الأخدود – مؤمن آل فرعون – مراحل الدعوة المكية وعرض ما تحمّله النبي ﷺ وأصحابه في سبيل دينهم وعقيدتهم).

٥- ربط العقيدة بالسلوك:

وهذا المحور مهم جـداً، لأنّ مهمة الأنبياء لم تقتصر على مجرد بيان العقيدة وتبليغهـا، إذ إنّ المعرفة الذهنية مجردة لا تصنع شـيئاً مهما كانت قوية وباهرة؛ بـل لا بدَّ أن تنتقل من الذهـن إلى القلب، فتصبح وجداناً حيـاً يملؤه، ثم تفيض آثار ذلك الوجدان على الجوارح، فيتحول إلى سـلوك عملي ينبض بروح التوحيد في واقع الحياة، فيصير سلوك المسلم هو التطبيق العملي لشريعة الإسلام؛ منطلقاً فيه من عقيدته وتوحيده.

إذ لا يمكـن تحقيـق الانضباط الشـرعي في السـلوك والأخلاق، إلا باستحضار الأثر المترتب عليه في الآخرة ثواباً أو عقاباً، وهذا هو منهج القـرآن الكريم في الأمر والنهي؛ لذلك تجد القـرآن الكريم يربط بين الجـذور العقدية والتطبيقات الشـرعية. قال - تعالى -: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين: ١ - ٥]، فعند مخاطبة من يطفف الميـزان ونهيه عن هذا الفعل المحرم، لابدَّ من التذكير وإثارة الشعور بقضية عقدية مهمة، وهي هنا قضية البعث بعد الموت ثم الحساب على كلِّ ما سبق.

وقال ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسـن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت".

الربط واضح تماماً في الحديث الشريف كذلك بين العمل والعقيـدة، فمن كان مؤمناً حقاً مصدقاً بالله - تعالى - واليوم الآخر وما فيه من جزاء الأعمال، فسـيدعوه ذلك الإيمان إلى الالتزام بتلك المكارم رغبةً في ثوابها.

هذا هو نهج القرآن الكريم، والسـنة النبوية في الإصلاح، فعلاج الانحرافات الخلقية والاجتماعية وغيرها لا يأتي إلا تبعاً لتحقيق التوحيد والاستسـلام التام لله - عزَّ وجلَّ - والخضوع لأمره وتعظيم شريعته والرضا بها كمنهج متكامل للحياة.

وكلمة أخيرة للدعاة ولكل من عُهِدَ إليه أو حمل على عاتقه تعليم العقيدة والتوحيد:

إنّ قضية العقيدة لا تنحصـر في بعض القضايا العلمية فقـط، ولكنها طاقة حية وقوة دافعة، ولذلك مثّل الله - تعالى - لها بالشـجرة الطيبة، عميقة الجذور، وفيرة الثمار، وارفة الفروع والظلال، قـال - تعالى -: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَـلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَـا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّـمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

فالكلمة الطيبة، كلمة التوحيـد -لا إله إلا الله- لها أصل ثابت في قلب العبد المؤمن مـن العلم والاعتقاد، ولهذا الأصل فروع باسـقات تثمر كلماً طيباً وعملاً صالحاً وأخلاقاً مرضية وآداباً حسنة.

فليسـت العقيدة هي دروس نظريـة يعلمها الدعاة للناس، وإنما عليهم أن يعلموهم كيف يقيمون الحياة كلَّها على مقتضى هذا العلم.

إنّ حاجتنا إلى العقيدة فوق كل حاجة، وضرورتنا إليها فوق كلِّ ضرورة، لأنه لا سـعادةَ للقلوب، ولا نعيم، ولا سرور إلا بأن تعبد ربها وخالقها.

و دعوة النـاس إلى توحيد الله علمـاً وعملاً ومعرفة في القلب والضمير، وعبادة وتوجهاً بالعمل والسـلوك؛ هي السبيل الوحيد لنصر المسـلمين على عدوهم، ولعودة الأمة إلى سالف مجدهـا وعزّها، وإلى دورهـا المنوط بها في قيادة البشـر، وتعبيدهم لله - تعالى - وحده لا شريك له.

ولذلـك فإن علـى الدعاة اليوم تبعة ثقيلـة، إنّ عليهم أن يعيدوا لدروس العقيدة شحنتها الحية المتدفقة بقدر ما تحمله من قوة الحق، كما كانت أول مرة، يوم أن كانت نوراً تسـتضيء به الأمة، وروحاً تحيا بها.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صدر حديثاً

مجلة البيان

موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

حكم تكوين الأحزاب والمشاركة في الانتخابات(*)

أ. د. ناصر بن سليمان العمر(**)
@naseralomar

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الديمقراطية بضاعة غربية المصدر والمضمون، تعارض محكمات شرعية، بجعلها حق التشريع مكفولاً للشعب أو ممثليه، ومن مقاصدها التسوية وكفالة التعددية والحريات وفقاً لمقررات الأكثرية المقيدة بحدود الحقوق الأساسية، وهذه الحقوق تفسرها وترعاها مؤسسات أممية ومنظمات معنية بالمراقبة والتقويم، وليس شأن الحريات والحقوق الأساسية متروكاً لكل أمة تفسره وفقاً لدينها.

وأما آلياتها الانتخابية فشأنها أهون، وإن كنَّا لا نراها نظاماً شرعياً في اختيار الحاكم أو النُّواب، ولا كان الناس ينصِّبون عرفاءهم بهذه الطريقة، لكن النظر فيها يبقى اجتهادياً، فإن لم يكن ثمة خيار غير الاستبداد أو تلك الآليات الانتخابية فلعل تلك الآليات تكون سبباً في دفع مفسدة أكبر، خاصة في عصور رقَّت فيها الدِّيانة، وغدا بعض أهلها يستَخْفُون من الناس ولا يستخفون من الله.

(*) وهو جواب عن سؤال ورد من بعض مشايخ موريتانيا، عن مشروعية تأسيس الأحزاب والمشاركة السياسية في البرلمان، بغرض التمكين للدين، وحماية الدعوة وتبليغها.

(**) الأمين العام لرابطة علماء المسلمين، والمشرف العام على موقع المسلم.

وأما سؤالكم عن إمكانية فصل جانبها النظري والفكري عن جانبها الإجرائي، فلا يصلح له جواب مجملٌ بنفي أو إثبات، بل لا بدَّ من تفصيل؛ فلا يمكن عند التزام مقاصد النظام الديمقراطي القائم على إطلاق الحريات والمساواة، ويمكن باعتبار الأخذ بالآليات الانتخابية في ظروف معينة، والعمل على أسلمتها بفرض قيود لا تتعداها طريقة الاختيار، ولا ما يقرره المُخْتَار عبرها؛ كأن تستبعد في الاختيار النساء من مناصب معينة مثلاً، أو تستبعد مشاركة الأحزاب الكافرة وكذا الفاجرة التي تدعو إلى الرذائل مثلاً، أو تُقيِّد من يُطْلَق عليهم بالمُشَرِّعين أو المُمثِّلين بحدود الشريعة، كل هذا ممكن تحققه لكن الشأن في تسمية مثل هذا النظام (ديمقراطية)، فلو فُرض وجود نظام كهذا فلا يمكن أن تسلم المنظمات الأممية والمعنية بمراقبة الديمقراطيات والحريات بأنها ديمقراطية حقيقية، ولن تُغني عن المسلمين تسميتهم لها (ديمقراطية) شيئاً عند المتحكمين المقوِّمين، ولأجل هذا كان النظام الإيراني مثلاً من أسوء الأنظمة في نظر الغربيين والمؤسسات الأممية، حتى إن بعض المؤسسات العريقة المعنية بالحكم على الأنظمة السياسية تصنفه أردأ من أكثر الأنظمة الملكية. وهو كذلك فالنظام الإيراني يُدَّعى أنه إسلاميٌ ديمقراطي لكنه في حقيقته لا إسلامي ولا ديمقراطي، بل قمعي طائفي عِرقي شعوبي.

وأما الدستور المبيَّنة مواده فليس بالدستور الشرعي وإن نص على أن الإسلام دين الشعب والدولة، لأن المواد الأخرى تدل على أن هذا النص لا يقتضي الإلزام به في الحكم والتشريع، وأن القانون أعلى مرتبة من مقرراته، أشبه طريقة النصارى الذين تنُصُّ بعض دساتيرهم العلمانية على دين الدولة، لكنهم يجعلون محلَّه الكنائس والبيع! وشريعة الإسلام لا يصحُّ فيها ذلك، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ودلائل الكتاب والسُّنَّة القطعية المتواترة دالة على وجوب تحكيم شرع الله وإن خالف الأهواء التي لا تهتدي بهدى الله.

ومع ذلك فإن المشاركة في العملية الانتخابية لأجل تخفيف منكرات النظام، ومعارضة كلِّ تشريع يخالف حكم الله، والدعوة إلى إعادة صياغة الدستور صياغة إسلامية، جائزة، وليست من الرضا بالدستور المذكور في شيء، وعلى هذا فتاوى جلِّ أكابر المعاصرين من أهل العلم، فقد سئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: هل يجوز التصويت في الانتخابات والترشيح لها؟ مع العلم أن بلادنا تحكم بغير ما أنزل الله.

فأجابت: لا يجوز للمسلم أن يرشح نفسه رجاء أن ينتظم في سلك حكومة تحكم بغير ما أنزل الله، وتعمل بغير شريعة الإسلام، فلا يجوز لمسلم أن ينتخبه أو غيره ممَّن يعملون في هذه الحكومة، إلا إذا كان مَنْ رشح نفسه من المسلمين، ومن ينتخبون يرجون بالدخول في ذلك أن يصلوا بذلك إلى تحويل الحكم إلى العمل بشريعة الإسلام، واتخذوا ذلك وسيلة إلى التغلب على نظام الحكم، على ألَّا يعمل من رشح نفسه بعد تمام الدخول إلّا في مناصب لا تتنافى مع الشريعة الإسلامية.

وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم[1].

وسئلت أيضاً: كما تعلمون عندنا في الجزائر ما يسمى بـ (الانتخابات التشريعية)، هناك أحزاب تدعو إلى الحكم الإسلامي، وهناك أخرى لا تريد الحكم الإسلامي. فما حكم الناخب على غير الحكم الإسلامي مع أنه يصلي؟

فأجابت: يجب على المسلمين في البلاد التي لا تحكِّم الشريعة الإسلامية، أن يبذلوا جهدهم وما يستطيعونه في الحكم بالشريعة الإسلامية، وأما مساعدة من ينادي بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية فهذا لا يجوز، بل يؤدي بصاحبه إلى الكفر؛ لقوله – تعالى –: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩ – ٥٠]، ولذلك لما بيَّن الله كفر من لم يحكم بالشريعة الإسلامية، حذر من مساعدتهم أو اتخاذهم أولياء، وأمر المؤمنين بالتقوى إن كانوا مؤمنين حقاً، فقال – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم[2].

---

(١) السؤال الخامس من الفتوى رقم (٤٠٢٩)، المجموعة الأولى ٢٣/٤٠٧، والفتوى بإمضاء أصحاب الفضيلة العلماء: عبد العزيز بن باز، عبد الرزاق عفيفي، عبد الله بن غديان، عبد الله بن قعود، رحمهم الله أجمعين.

(٢) فتوى رقم (١٤٦٧٦)، المجموعة الثانية (١/٣٧٣)، والفتوى بإمضاء المشايخ: عبد العزيز بن باز، وعبد الرزاق عفيفي، وعبد الله بن غديان – رحمهم الله أجمعين –.

وسئل الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله -: عن شرعية الترشيح لمجلس الشعب، وحكم الإسلام في استخراج بطاقة انتخابات بنية الدعاة والإخوة المتدينين لدخول المجلس، فأجاب:

(إن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»؛ لذا فلا حرجَ في الالتحاقِ بمجلسِ الشعبِ إذا كان المقصود من ذلك تأييد الحق، وعدم الموافقة على الباطل، لما في ذلك من نصر الحق، والانضمام إلى الدُعاة إلى الله.

كما أنه لا حَرَجَ كذلك في استخراج البطاقة التي يُستعان بها على انتخابِ الدُعاة الصالحين، وتأييد الحق وأهله، والله الموفق)[1].

وأجاب الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - سائلاً عن حكم الانتخابات الموجودة عندهم في الكويت وادَّعى السائل أن أغلب من دخلها من الإسلاميين ورجال الدعوة فتنوا في دينهم؟

فقال: (أنا أرى أن الانتخابات واجبة، يجب أن نعين من نرى أن فيه خيراً، لأنه إذا تقاعس أهل الخير من يحل محلهم؟ أهل الشر، أو الناس السلبيون أتباع كل ناعق)[2] وذكر أنه يرى ذلك ولو كان الإسلاميون قلة.

وفتاوى أهل العلم بالتجويز والإيجاب كثيرة، والمشارك ما شارك إلا ليصل إلى إبطال الدستور المخالف للشريعة أو تغيير منكره أو تخفيفه، يعلن ذلك ويؤيده عمله، فلا يُقال: إن دخوله للإصلاح والإنكار دليل رضى، فبناء على ما سبق، فإن المشاركة بقصد الإصلاح جائزة بشروط من أهمها:

١ أن تكون المشاركة خالصةً لوجه الله، لإعلاء كلمة الله تعالى ورفع الظلم والطغيان، وإنهاء الحكم بغير ما أنزل الله في حدود الطاقة والوسع.

٢ أن تكون فعليةً بحيث ينهض المشاركون بمهمتهم التي قصدوا إليها.

٣ ألَّا يتضمن دخولهم محظوراً من نحو القسم الصريح على احترام الدستور أو التزامه، فإن كان ذلك لا بدَّ منه لأجل المشاركة ففي المعاريض عند المضايق مندوحة عن الحلف الكاذب، ولها وجه في مثل هذا المقام، وقد يتيسر الاستثناء الصريح في المجلس نفسه كما فعله ويفعله كثير من النواب في الكويت ومصر إبَّان الثورة.

٤ أن يكون المشاركون على قدرٍ من العلم والفهم، أو يصدرون عن رأي طائفة من أهل العلم والنظر، بحيث لا تروج عليهم مخالفة الشريعة، ولا يخدعون بالتأويلات.

٥ ألا يركن الداخل إلى الذين ظلموا، وأن تبقى جذوة الولاء على الدين والبراء بسببه متقدة في قلبه، لا تطفئوها مخالطة الآخرين، وألَّا يألوَ جهداً في الإصلاح والإنكار.

٦ ألَّا يكون العمل السياسي على حساب الدعوة إلى توحيد الله، ومحاربة البدع، ونشر العلم، فلا يزاحم المهم الأهم؛ ولكن لتتصدى لهذا شريحة تحسنه ترجع إلى العلماء أو ليكن من العلماء فيهم نفر لا يخل بالدعوة والتعليم ونشر السنة في البلد.

فهذه جملة شروط إن توافرت فنرى جواز المشاركة لتحقيق مصلحة أعلى، ودفع مفسدة أعظم.

واللهَ أسأل أن يكتب لإخواننا ما فيه خير الدنيا والدين، وأن يوفقهم لما يحب ويرضى، وأن يأخذ بنواصيهم للبر والتقوى، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الحمد لله، أؤيد ما جاء في هذه الفتوى من جواز المشاركة بالشروط المذكورة.

أملاه: عبد الرحمن بن ناصر البرَّاك

١٤٣٣/٦/١٥هـ

(١) مجلة لواء الإسلام العدد (٣) ذو القعدة ١٤٠٩، وانظر كذلك مجلة الإصلاح العدد ٢٤١-١٧ بتاريخ ١٩٩٣/٦/٢٣م.

(٢) تسجيل صوتي، تجده في موقع الشيخ على الرابط أدناه:
http://www.ibnothaimeen.com/all/sound/artice_1623.shtml

الانتماء إلى الوطن أم إلى المبدأ

أ. د. جعفر شيخ إدريس(*)
jsidris@gmail.com

في سبيل الدعاية لأنفسهم ليكونوا رؤساء لبعض البلاد أو ليكونوا أعضاء في مجالس تشريعية يقول بعض الناس على سبيل التزكية لأنفسهم إنهم «لا ينتمون إلى جماعة أو فكرة» وإنهم إذا ما انتخبوا فسيكونون حريصين على مصلحة البلد لا غير..

وهذه الدعاية مبنية على افتراض أن هنالك تناقضاً بين الانتماء إلى الوطن أو الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة أياً كانت وهذا افتراض غير صحيح.

أولاً: لأن الانتماء إلى الوطن يلزم عنه الانتماء إلى عقيدة قد لا يشعر بها صاحبها، فإنه إن عرضت عليه مشكلة فأراد حلّها لمصلحة وطنه فكيف سيفكر فيها؟

ثانياً: لأن الانتماء إلى فكرة أوعقيدة معينة لا يلزم عنه أن يكون الشخص متعصباً غير عاقل ولا متجرد؛ بل إن الفكرة التي ينتمي إليها قد تكون هي نفسها مبنية على الدعوة إلى مكارم الأخلاق التي من بينها الصدق والأمانة والتجرد، وقد كان هذا في الإسلام فحين سرق أحد المنتمين إلى هذا الدين درعاً وخبّأها عند يهودي فوُجدت عنده فحلف أنه ما سرقها فسأل قومه النبي ﷺ أن يجادل عنه ويبرِّئه أنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥] فبرّأ القرآن الكريم اليهودي.

لست أدري ماذا كان سيكون موقف الذين يجعلون الوطن هو الأساس فيقدمونه على مكارم الأخلاق في مثل هذه الحال؟

ثالثاً: من أقوى الأدلة على أن الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة لا يلزم عنه التنكر للوطن؛ بل إن الإنسان قد ينتمي إلى عقيدة معينة ويظل مستمسكاً بالحنين إلى وطنه، قول رسول الله ﷺ حين أجبره الكفار على الهجرة من مكة:

«مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ أَخْرَجُونِي مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ». قال الحاكم في المستدرك حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وكذلك كان أصحابه يعبرون عن هذا الحنين إلى الوطن ومن ذلك قول بلال بن رباح – رضي الله عنه –:

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة
بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردنَ يوماً مياه مجنة
وهل يبدون لي شامة وطفيل

رابعاً: أن تحول الوطن إلى عقيدة تعلو على كلِّ العقائد والأفكار الأخرى فإن هذا قد يؤدي بالمؤمن بهذا الاعتقاد إلى أن يجعله كارهاً لكلِّ المعتقدات والأفكار التي يراها متناقضة مع فكرته هذه فيصير كما كان هتلر عدواً لكلِّ من يراه معتقداً لغير ما يعتقد، ومحارباً له بكلِّ الوسائل.

(*) هذه المقالة هي أول مقالة يتيسر لفضيلة الشيخ جعفر شيخ إدريس كتابتها بعد الوعكة الصحية التي ألمَّت به، نسأل الله – تعالى – له تمام الصحة والعافية.

تحـرير موقف الصحـــابة من المرتدين

سلطان العميري

تعـــد ظاهرة الردة من أكبر الحـــوادث التي مرَّت بالصحابـــة، وهي من الحوادث التاريخية المهمة التي لها أبعاد معرفية وشرعية وسياسية عديدة، وهي عبارة عن حال ارتداد واســـعة وقعت من بعض قبائل العرب في الجزيرة عن قبولهم الإسلام أو بعض شـــرائعه، وقام الصحابة – رضي الله عنهم- بمقاومتهـــا ومواجهتها، ودامت الحروب فيها سنة كاملة، وذكر بعض الباحثين أنه قتل فيها من الطرفين ما يُقارب ستون ألفا[1].

وكُتبت في تاريخها ومشـــاهدها كتابات تاريخية كثيرة فـــي القديم والحديث؛ بل إن بعض المؤرخين أفرد لهـــا مؤلفات خاصة، مثل كتاب: الردة، للواقدي، وكتاب: الردة للمدائني، وكتاب: حروب الردة، للكلاعي، وغيرها[2].

واهتم بأخبار الردة وتفاصيلها كبار المؤرخين من علماء المســـلمين، وقد تتبعوا كثيراً من تفاصيلها، ورصدوا قدراً من مشـــاهدها، فتناولوا بداية تاريخها والقبائل المشـــاركة فيها والأوطان التي ظهرت فيها، والأسباب التي أدت إلى حدوثها، والقيادات المؤثرة فيها.

ولكن أكثر المشـــاهد التفصيلية المنقولـــة عن حادثة الردة جـــاءت على رواة غير موثوقين، فإن أكثر من اعتُمِد عليه في نقل مشـــاهدها: ســـيف بن عمر التميمي، وأبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد، وهشام بن محمد الكلبي، وهؤلاء مقدوح في عدالتهم ومطعون في أخبارهم[3]، وهذه الحال توجب الاحتياط الشـــديد في التعامل مع أخبار الردة، وتحوِّل مهمة البحث في كتابة مشاهدها ودلالاتها إلى صعوبة بالغة تتطلب قدراً من الجهد والهدوء في استخلاص النتائج.

ومع ذلك فأخبار أهل الردة متفاوتة فيها بينها، وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمـــه الله – على ذلك حيث يقول عمَّا نقل عن تلك الحادثة: «فمن ذلك ما هو متواتر عند الخاصة والعامة، ومنه ما نقله الثقات، ومنه أشـــياء مقاطيع ومراسيل يحتمل أن تكون صدقاً وكذباً، ومنه ما يعلم أنه ضعيف وكذب»[4].

(١) انظر: حروب الردة، محمد أحمد باشميل (٥).

(٢) انظر: عصر الخلافة الراشدة أكرم العمري (٣٩١)، وأثر التشيع على الراويات التاريخية، عبدالعزيز محمد نور ولي (٣١٧).

(٣) انظر في دراسة أحوال هؤلاء وغيرهم: أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري عبدالعزيز محمد نور ولي (٦٧-١٣٠).

(٤) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٨/ ٣٢٥).

ومـــن أهم المصادر التـــي يمكن من خلالهـــا توثيق قدر من مشـــاهد حادثة الردة، ومعرفة طبيعـــة عدد من المواقف الغامضة فيها: الأشعار التي قيلت في تلك المرحلة، فهي عادة تتصفُ بالصدق مع أنها لم تســـلم مـــن التحريف والكذب أو الضياع، وقد أشـــار المؤرخون إلى شـــيء منها، وجمع الأدباء بعضها، وقام بعض المعاصرين، وهو د/ علي العتوم، برصد ما نُقل إلينا منها، وأخرجها فـــي كتابه (ديوان الردة)، جمع فيه أكثر من ســـتمئة بيت، مع أنه أشار إلى أن كثيراً ممَّا قيل في الردة ضاع ولم يصل إلينا[1].

وقد اهتم العلماء بكتابة أصنـــاف المندرجين في ظاهرة الارتداد وبيان الفروق بينها، فمنهم من يجعلهم ثلاثة أقسام، ومنهم من يجعلهم أربعة أقسام، ومنهم من يجعلهم ستة أقسام.

وهـــذه الحادثة لها تعليقـــات مختلفة، وفيهـــا تفاصيل مطولة ومســـائل متفرعة، ونتيجة لذلك كان لحادثة المرتدين ومشاهدها حضور كثيف ومتنوع في البحث العقدي والفقهي في المدونات الإسلامية المعتمدة.

وقـــد اختلفت تـــداولات العلمـــاء لمشـــاهدها، وتنوعت استدلالاتهم بها واســـتحضارهم لها، فإن القارئ لكتب الفقه يجد لحادثة الردة ذكراً في أبواب الزكاة وفي أبواب المواريث، وحضـــوراً في كتاب الـــردة وفي أحكام القتـــال وفي أبواب الأسماء والأحكام لدى علماء العقيدة.

ومـــع طغيان التفســـير المـــادي وضغط مفهـــوم الحرية الليبرالية؛ بدأ يطفو على السطح البحث في حادثة الردة وفي مواقف الصحابة منهم، وغدونا نشـــهد تقريرات وتفسيرات أخرى لمواقف الصحابة من المرتدين، تحاول تفسيرها بطريقة تنسجم مع المستجدات التفسيرية الحديثة.

وهـــذا كله يدعو بإلحاح إلى الكتابـــة من جديد في بيان موقـــف الصحابة من حادثـــة الردة، ومحاولة الكشـــف عن أبعادها الشرعية.

وليس المـــراد من هذا البحث ذكر تفاصيل الأحداث التي مرَّت بها حادثة الردة، ولا رصـــد تفاصيل مواقف الصحابة منها، وإنما القصد منه دراسة أبرز المواقف الشرعية التي لها تعلق بالفكر والمعرفة.

(١) انظر: ديوان الردة، علي العتوم (١٥).

وأهـم القضايـا التي ينبغـي فيهـا كتابة موقف الصحابة ثلاث قضايا، وهي:

الأولى: كتابة موقف الصحابة في حكم المرتدين، وهل كانوا يكفرون كل أصنافهم أم لا؟!

والثانية: كتابة موقف الصحابة في قتالهم، وهل كانوا مجمعين على ذلك أم لا؟!!

والثالثـة: كتابة السـبب المؤثر والمنـاط الحقيقي الذي دعا الصحابة لقتالهم.

أما القضيـة الأولى: وهـي كتابة موقف الصحابة من حكم المرتدين:

فالوقـــوف على حقيقة موقـــف الصحابة من جميع الأصناف التي شـــملها اسم الردة في زمنهم تكتنفـــه صعوبات عديدة؛ وذلـــك أن الآثار المنقولة تتصف بالإجمـــال والاقتضاب الشـــديد، ولا تقدم جواباً بيِّناً في تحديد موقفهم من جهة الحكم عليهم بالكفر والخروج من الإسلام.

وقد اشـــتُهر عند كثير من المتأخرين القول: إن الصحابة كانوا مجمعين علـــى كفر كل من قاتلوهم في أحداث الردة، وإذا رجعنـــا إلى مواقف العلماء المتقدمين نجد أنهم لم يتفقوا على نقل موقف واحد، وإنما اختلفـــت أقوالهم في تحديد موقف الصحابة من هذه القضية على قولين:

القول الأول:

من يقول: إن الصحابة كانوا مجمعين على أن كل من دخل تحت اسم الردة كافر خارج عن الإسلام، وإنهم كانوا يحكمون على كلٍّ من قاتلوهم بالكفر والردة عن الإسلام، إما لأنهم خرجوا عن جملة الإسلام وتركوا الدين واتبعوا المتنبئين، وإما لأنهم طوائف ممتنعة وقاتلوا الصحابة على أمر ظاهر في الدين.

ومن أقدم من يدلُّ ظاهر كلامه على أن الصحابة كانوا مجمعين على كفر كلِّ من اندرج في ظاهرة الردة: أبو عبيد القاسم بن سلام، فإنه لما ذكر قضية الإقرار بالزكاة والامتناع عن أدائها وحكم عليهم بالكفر قال:«والمصدق لهذا جهاد أبي بكر – رضي الله عنه – بالمهاجرين والأنصار على منع بعض العرب للزكاة، كجهاد رسول الله ﷺ أهل الشرك سواء، لا فرق بينهما في سفك الدماء وسبي الذرية واغتنام الأموال، فإنما كانوا لها غير جاحدين بها»[1]، فهذا التقرير من أبي عبيد يدلُّ في ظاهره على أنه يرى أن الصحابة – المهاجرين والأنصار – كانوا يعدون مانعي الزكاة كفاراً؛ لأنهم عاملوهم معاملة الكفار.

(١) كتاب الإيمان، أبو عبيد القاسم سلام (١٧).

وممَّن نصَّ على ذلك: أبو يعلى الفراء حيث يقول: «وأيضاً فإنه إجماع الصحابة، وذلك أنهم نسبوا الكفر إلى مانع الزكاة، وقاتلوه وحكموا عليه بالردة، ولم يفعلوا مثل ذلك بمن ظهرت منه الكبائر، ولو كان الجميع كفاراً لسَوّوا بين الجميع»[2]، ومع هذا فلا بد من التنبيه على أن أبا يعلى له تقريرات أخرى تخالف في ظاهرها ما قرره هنا[3].

وممَّن يدلُّ ظاهر كلامه على نقل إجماع الصحابة على كفر كلِّ المرتدين: الجصَّاص، فإنه قال معلقاً على قوله – تعالى –: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]: «وفي هذه الآية دلالة على أن مَن ردَّ شيئاً من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء أكان ردّه من جهة الشك أم ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع عن أداء الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم؛ لأن الله تعالى حكم بأن من لم يُسلم للنبي ﷺ وحكمه فليس من أهل الإيمان»[4].

وممَّن يدلُّ ظاهر بعض كلامه على أن الصحابة كانوا مجمعين على تكفير كل المرتدين: ابن تيمية، حيث يقول في بعض تقريراته: «وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة، وإن كانوا يصلون الخمس ويصومون شهر رمضان، وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة، فلهذا كانوا مرتدين، وهم يقاتلون على منعها وإن أقروا بالوجوب كما أمر الله»[5].

وهناك تقرير آخر أصرح من السابق، ولكن إنما أُخر لأنه لم يوجد في شيء من كتب ابن تيمية المطبوعة، وإنما نقله عنه علماء الدعوة النجدية، وهو قوله: «والصحابة لم يقولوا: أأنت مقرٌّ لوجوبها أو جاحد لها؟ هذا لم يعهد عن الخلفاء والصحابة، بل قد قال الصديق لعمر – رضي الله عنهما –: والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فجعل المبيح للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب، وقد روى أن طوائف منهم كانوا يقرون بالوجوب لكن بخلوا بها، ومع هذا فسيرة الخلفاء فيهم جميعاً سيرة واحدة، وهي قتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم والشهادة

(٢) مسائل الإيمان، أبو يعلى (٣٣٠).
(٣) انظر: الأحكام السلطانية، أبو يعلى (٥٣).
(٤) أحكام القرآن، الجصاص (٢/٢٦٨).
(٥) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢٨/٥١٩).

على قتلاهم بالنار، وسموهم جميعاً أهل الردة»[1].

ولكن ابن تيمية له تقريرات أخرى تقتضي في ظاهرها أنه يرى أن الصحابة كانوا يفرقون بين أصناف المرتدين، فيجعلون بعضهم كفاراً، كأتباع مسلمية الكذاب، وبعضهم مسلمين لهم أحكام أهل القبلة، ومن تلك التقريرات: أنه جعل قتال مانعي الزكاة من جنس قتال أهل القبلة، فقال: «والعلماء لهم في قتال من يستحق القتال من أهل القبلة طريقان: منهم من يرى قتالاً على يوم حروراء ويوم الجمل وصفين كله من باب قتال أهل البغي، وكذلك يجعل قتال أبي بكر لمانعي الزكاة، وكذلك قتال سائر من قوتل من المنتسبين إلى القبلة، كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة والشافعي ومن وافقهم من أصحاب أحمد وغيرهم»[2] – رحمهم الله –.

وهو كثيراً ما يقرن بين مانعي الزكاة والخوارج، ويجعل قتالهم من جنس واحد، وقد استحضر هذين الصنفين في مقامات عديدة، وأكد على أن نوع القتال فيهما مختلف عن قتال أهل البغي، وكرر الاستدلال بهما على تأسيس مشروعية قتال الطائفة الممتنعة في عدة مواطن[3]، فإذا ضممنا هذا الاطراد في الاقتران مع تصريحه بعدم كفر الخوارج فإنه يفيد في ظاهره أن مانعي الزكاة ليسوا كفاراً كالخوارج لأنه جعل قتالهم من جنس واحد.

ومن النصوص الداخلة في هذا الاتجاه قوله:: «فعمر وافق أبا بكر على قتال أهل الردة مانعي الزكاة وكذلك سائر الصحابة، وأقرَّ أولئك بالزكاة بعد امتناعهم منها ولم تسب لهم ذرية، ولا حبس منهم أحد»[4]، فهو يقتضي في ظاهره أن الصحابة لم يعاملوا مانعي الزكاة معاملة باقي المرتدين.

وهذه الاعتبارات تجعل نسبة القول إلى ابن تيمية – رحمه الله – بأنه يرى إجماع الصحابة على تكفير كل المرتدين محل تردد، وتؤكد على أن كتابة رأيه في هذه القضية يحتاج إلى مزيد بحث وكتابة وجمع للنصوص وتحليل دقيق لها.

(١) مفيد المستفيد في حكم جاهل التوحيد، محمد بن عبدالوهاب (١٥٤)، والدرر السنية (٨/١٣١).
(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢٨/٥١٥).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢٨/٥١٢، ٥٤٥، ٥٥٧).
(٤) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٦/٣٤٨).

ومن أشهر من تبنى القول بإجماع الصحابة على تكفير كلٍّ من قاتلوهم في ظاهرة الردة: كثير من أئمة الدعوة النجدية، فإنهم نصُّوا في مواطن عديدة على أن الصحابة كانوا مجمعين على تكفير من قاتلوهم على منع الزكاة، وفي هذا يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب بعد نقله عن بعض كلام ابن تيمية: «ومن أعظم ما يحلُّ الإشكال في مسألة التكفير والقتال عمَّن قصده اتباع الحق: إجماع الصحابة – رضي الله عنهم – على قتال مانعي الزكاة، وإدخالهم في أهل الردة وسبي ذراريهم»[5]، وكرر التنصيص على نقل الإجماع عدد من علماء الدعوة النجدية[6].

وقد بالغ بعض المعاصرين وربط بين القول بتكفير الصحابة لكلِّ المرتدين وبين قول أهل السنة في الإيمان، وصف القول الآخر الذاهب إلى أن الصحابة لم يكفروا كل المرتدين بأنه متأثر بمذهب المرجئة وجار على مقتضى أصولهم.

ولكن هذا الوصف مشكل جداً؛ لأن أظهر من تبنى القول الآخر وقرره هو الإمام الشافعي، فكيف يكون متأثراً بمذهب الإرجاء؟!! ثم إن تصرفات المحققين من العلماء – كابن تيمية وغيره – لا تدلُّ على ذلك، فلو كان القول الآخر متأثراً بالمرجئة، فلماذا لم ينبه عليه ابن تيمية؟ ولو تأملنا طريقة استدلال العلماء في هذه القضية ومنهجية بنائهم لآرائهم لوجدنا أنها منفصلة عن الانطلاق من أصول المرجئة، وكون بعض المرجئة ينطلق في هذه القضية من أصوله في الإيمان، ليس معناه أن كل من وافقه على قوله يكون موافقاً له في أصوله أو منطلقاً منها.

وعند التأمل في تقريرات المتبنين لهذا القول نجد أنهم استدلوا على نسبة الإجماع إلى الصحابة بعدة أدلة ترجع في مجملها إلى ثلاثة أدلة:

الدليل الأول: هو أن أبا بكر والصحابة – رضي الله عنهم – عاملوا المرتدين معاملة الكفار، وطبقوا عليهم أحكامهم من غير تفريق بين أصنافهم.

(٥) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، محمد بن عبدالوهاب (١٥٦).
(٦) انظر: الدرر السنية (١٠/١٧٩)، ومصباح الظلام، عبداللطيف بن حسن آل الشيخ (٣٥٩–٣٦٠)، وتبرئة الشيخين، سليمان بن سحمان (١٢٧)، ومجموع فتاوى محمد بن إبراهيم آل الشيخ (٦/٢٠٢).

ومن الآثار التي تدلُّ على ذلك: ما جاء عن طارق بن شهاب، قال: «قدم وفد بزاخة، من أسد وغطفان، على أبي بكر، يسألونه الصلح، فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية، فقالوا له: هذه الحرب المجلية قد عرفناها، فما السلم المخزية؟ فقال: أن تنزع منكم الحلقة والكراع وتتركوا أقواماً تتبعون أذناب الإبل، حتى يرى اللهُ خليفةَ نبيه والمهاجرين أمراً يعذرونكم به، ونغنم ما أصبنا منكم، وتردوا إلينا ما أصبتم منا، وتَدُوا قتلانا، وتكون قتلاكم في النار»[1]، فهذا الأثر يدلُّ على أن الصحابة كانوا يرون المرتدين كفاراً لأنهم حكموا على قتالهم بالنار[2].

وممَّا يدلُّ على ذلك أيضاً: أن الصحابة أسروا المرتدين وغنموا أموالهم واسترقوا نساءهم[3]، ولو كانوا يرونهم مسلمين ما فعلوا بهم ذلك.

ولكن الاستدلال بهذه الآثار في إثبات أن الصحابة كانوا يكفرون كلَّ المرتدين حتى مانعي الزكاة ليس قوياً؛ لأنها ليست صريحة في أنهم - رضي الله عنهم - عاملوا كلَّ أصناف المرتدين معاملة الكفار، فمن المعلوم أن المرتدين كانوا أصنافاً كثيرة، وكثير منهم ممَّن ارتدوا عن الإسلام جملة، فهناك احتمال قوي في أن الصحابة إنما تعاملوا بأحكام الكفار مع من حكموا عليه بالخروج من الإسلام وليس مع كلِّ المرتدين[4]، وهذا ما يدلُّ عليه أثر طارق بن شهاب فإن الذين خاطبهم أبو بكر بقوله ذلك هم قبيلة أسد وغطفان، وهم ممَّن ارتدوا عن جملة الإسلام، واتبعوا بعض المتنبئين وقاتلوا الصحابة على ذلك[5].

ولم يرد ما يدلُّ نصاً على أن الصحابة عاملوا كلَّ المرتدين معاملة الكفار، بل جاء في بعض الآثار ما يدلُّ على أنهم كانوا يقسمون المرتدين إلى صنفين، وأشار ابن تيمية في بعض كلامه إلى أن مانعي الزكاة لم تسب لهم ذرية حيث يقول: «فعمر وافق أبا بكر على قتال أهل الردة مانعي الزكاة وكذلك سائر الصحابة وأقر أولئك بالزكاة بعد امتناعهم منها ولم تسب لهم ذرية، ولا حبس منهم أحد»[6].

الدليل الثاني: الاستناد إلى قتال المرتدين للصحابة، ووجه ذلك هو أن نصب مانعي الزكاة القتال للصحابة دليل على عدم إيمانهم وتصديقهم بها؛ إذ كيف يتصور أن يكونوا مؤمنين بها، ثم يقاتلون من يدعوهم إلى فعلها، فهذه الحال لا تقع إلا ممَّن لم يكن مؤمناً بأصل وجوب الزكاة عليه.

ولكن الاستناد إلى هذا المعنى في إلحاق وصف الكفر والردة بالمانعين لدفع الزكاة في ذلك الزمن غير دقيق؛ لأن هناك إشارات كثيرة تدلُّ على أن المؤثرات الحقيقة في منعهم الزكاة، وقتالهم للصحابة عليها هي الاعتبارات القبيلة والنعرات الجاهلية، والمعروف من حال القبائل العربية في تلك الأزمان هو طغيان تلك الاعتبارات على تصرفاتهم ومواقفهم في كثير من الأحوال ، وهذه الأحوال تدلُّ على أن السبب الداعي إلى قتالهم الصحابة على منع الزكاة لم يكن عدم الإيمان بها، أو على الأقل يدخل الاحتمال في ذلك، فإن من المحتمل جداً أن يكون تصلبهم وتمنعهم أمام الصحابة إنما كان منشؤه التعصب القلبي لا عدم الإيمان بالزكاة، وهناك إشارات أخرى تدلُّ على أنه إنما منعهم هو بخلهم وشحهم وليس كفرهم بوجوبها.

ولا بد من التأكيد هنا على أن البحث ليس في سبب منعهم للزكاة ولا في سبب ردة العرب، وإنما في سبب إصرارهم وقتالهم للصحابة على فعلهم.

وأما المعنى الذي أشار إليه ابن تيمية في كفر تارك الامتثال للعمل الظاهر مع عرضه على القتل حيث قال: «فرض متأخروا الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها، وهو أن الرجل إذا كان مقراً بوجوب الصلاة فدُعِيَ إليها وامتنع واستتيب ثلاثاً مع تهديده بالقتل، فلم يصلِ حتى قتل. هل يموت كافراً أم فاسقاً؟. على قولين: وهذا الفرض باطل، فإنه يمتنع في الفطرة أن يكون الرجل يعتقد أن الله فرضها عليه، وأنه يعاقبه على تركها ويصبر على القتل، ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك، هذا لا يفعله بشر قط»[7].

فهذا المعنى صحيح ويمكن تصوره في حق المعين الذي

---

(١) أخرجه: أبو عبيد القاسم ابن سلام في الأموال (٢٥٤)، وابن زنجويه في الأموال من طريق أبي عبيد (٧٤٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٤٠٠)، وسعيد بن منصور في السنن (٢/٣١٦)، وإسناده صحيح.

(٢) انظر: المغني، ابن قدامة (٤/٩).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/٣١٦، ٣١٨، ٣٣٠، ٣٤٢، ٣٧٨)، والبداية والنهاية، ابن كثير (٩/٤٨٢، ٥٠٣)، وكتاب الردة، الواقدي (٢٥٣).

(٤) انظر في معنى هذا الجواب: المغني، ابن قدامة (٤/٩).

(٥) انظر: تاريخ الطبري (٣/٢٥٣-٢٥٩).

(٦) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٦/٣٤٨).

(٧) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٧/٢١٩).

يعـــرض عليه فعل الصلاة أو الـــزكاة، ويمتنع عن ذلك مـــع تهديده بالقتل، ولكن هـــذا المعنى لا يلزم في حق الجماعة الكبيرة الممتنعة إذا عُرض عليها القتال، فإن ورود المعنى الذي أشـــار إليه ابن تيمية في هذه الحال بعيد، خاصة مع قـــوة التأثير القبلي في زمن المرتدين والتعصب الجاهلي للأنســـاب، فمن المحتمل جداً أن ترفض القبيلة الكبيرة دفع الزكاة إلى الصحابة حميةً وتعصباً.

والاحتمـــال في المقاتلة بالنســـبة إلـــى الجماعة الممتنعة هو أحد الأسباب التي دعت إلى جود الخلاف في تكفيـــر الطائفة الممتنعة، فمـــن المعلوم أن العلماء أجمعوا على وجوب مقاتلـــة الطائفة الممتنعة، ولكنهم اختلفـــوا في إلحاق وصف الكفر بهـــم، ونبه عدد من العلماء كابن قدامة وابن تيمية إلى ذلك الخلاف، وفي هذا يقـــول ابن تيمية حين ذكر اختـــلاف العلماء في تكفير الخوارج: «كمـــا أن مذهبه في مانعي الزكاة إذا قاتلـــوا الإمام عليها هل يكفرون مـــع الإقرار بوجوبها على روايتين»[1].

ولو كان ورود الاحتمال في الطائفة المقاتلة ممتنع لنبه ابـــن تيمية على امتناعه كما نبه على امتناعه في حال الفرد الذي يعرض على القتل.

الدليل الثالث: تسمية الصحابة لهم بالمرتدين من غير تفريق بين أصنافهم، واســـم الردة يقتضي كونهم كفاراً خارجين عن الإسلام[2].

ولكن الاســـتدلال بهذا الدليل غيـــر صحيح؛ لأن الردة في اللغة والشـــرع لا تقتضـــي بالضرورة الحكم بالخروج من الإســـلام، وإنما تستعمل في بعض الموارد بمعنى مطلق الرجـــوع، وتحديد المقصود منها وضبط معناها يرجع فيه إلى تصرفات الصحابة وتعاملاتهم، وهي تدلُّ في حادثة المرتدين على مطلق النكوص على التســـليم للإســـلام، وقد نبه على هـــذا المعنى الإمام الشافعي وغيره كما سيأتي التنبيه عليه.

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية(٢٨/٥١٨)، وانظر: المرجع السابق (٣٥/٥٧)، والمغني، ابن قدامة (٤/٨).
(٢) انظر: تبرئة الشيخين، ابن سحمان (٥٦).

القول الثاني:

إن الصحابـــة لـــم يجمعـــوا علـــى كفـــر كل مـــن دخلوا في ظاهرة الارتداد ومن شـــملهم اســـم الـــردة، وإنما كانوا مجمعـــين علـــى أن أهل الـــردة صنفان: صنـــف كافر خارج عن ملَّة الإســـلام، وصنف بـــاق على الملَّة ولكنه بغى بترك بعض شرائعه الكبرى.

وقد نســـب هذا التقسيم إلى الصحابة عدد من كبار علماء الإســـلام، ومن أولهم وأعلمهم: الإمام الشافعي، فإنه نصَّ على ذلك بوضوح حيث يقول: «وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ضربان: منهم قوم كفروا بعد الإســـلام، مثل طليحة ومسيلمة والعنسي وأصحابهم، ومنهم قوم تمسكوا بالإسلام ومنعوا الصدقات»[3]، ثم أشار إلى أن أبا بكر وعمر – رضي الله عنهما – كانا مجمعين على أن الصنف الثاني ليســـوا كفاراً، حيـــث يقول بعد أن ذكر حوارهما: «معرفتهما معاً بأن ممَّن قاتلوا من هو على التمســـك بالإيمان».

وممَّن قرر هذا القول: الخطابي حيث يقول: «الذين يلزمهم اسم الردة من العرب كانوا صنفين: صنفاً منهم ارتدَّ عن الدين، ونابـــذ الملة، وعاودوا الكفر، وهم الذين عناهم أبو هريرة بقوله: «وكفر من كفر من العرب»، وهم أصحاب مسيلمة الكذاب، ومن سلك مذهبهم في إنكار نبوة محمد ﷺ، وصنفاً آخر: هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، وهؤلاء على الحقيقة أهل بغي»[4].

وممَّن ذكر ذلك أيضاً: ابن حزم، فإنه قال في ســـياق كلامه عن أصناف المرتدين: «والقسم الثاني: قول أسلموا، ولم يكفروا بعد إســـلامهم، ولكن منعوا الزكاة من أن يدفعوها إلى أبي بكر – رضي الله عنه – فعلى هذا قوتلوا»[5].

وقـــد توارد على تأكيد هذا القول عـــدد من كبار العلماء العارفين بمواطن الإجماع والمدركين للأقوال المختلفة، ومنهم: ابن عبدالبر وابن المنذر والماوردي والقاضي عيـــاض وابن العربي والبغوي والنووي وابن حجر، وغيرهم كثير[6]، ولو أخذنا في نقل أقوالهم لطال بنا المقام جداً.

(٣) الأم، الشافعي (٩/٢٠٤).
(٤) أعلام السنن، الخطابي (١/٧٤١).
(٥) المحلى، ابن حزم (١١/١٩٣))،
(٦) انظر: الاستذكار، ابن عبدالبر (٩/٢٦٦)، والإشراف على مذاهب أهل السنة، ابن المنذر (٣/٢٥٤)، والحاوي، الماوردي (١٣/٢١١)، وشرح السنة، البغوي (٥/٤٨٩)، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض (١/٢٤٣)، وعارضة الأحوذي، ابن العربي (١٠/٧٣)، وشرح صحيح مسلم، النووي (٢/٢٠٢)، وفتح الباري، ابن حجر (١٢/٢٧٦)، وإكمال إكمال المعلم، الأبي (١/١٧٣)، وغيرها كثير.

وقد استدلُّ هؤلاء على صحة قولهم من أنه ليس كل من دخل في ظاهرة الارتداد يكون كافراً خارجاً من ملة الإسلام عند الصحابة بعدة أدلة، منها:

الدليل الأول: المناظرة التي وقعت بين عمر بن الخطاب وأبي بكر – رضي الله عنهما –، فإن طريقة الحوار فيها وطبيعة الاستدلال تؤكد على أن موضوعه لم يكن البحث في حكمهم، وهل خرجوا من الإسلام أم لا؟ وإنما كان في حكم قتال قوم ثبت لهم وصف الإسلام، وقد نبه الشافعي إلى أهمية هذا الحوار ودلالته حيث يقول: «وقول عمر لأبي بكر: أليس قد قال رسول اللَّهِ ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللهُ؟ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهُم على الله)، وفي قول أبي بكر: (هذا من حقها لو منعوني عناقاً ممَّا أعطوا رسول الله ﷺ قاتلتهم عليه) معرفة منهما معا بأن ممَّن قاتلوا من هو على التمسك بالإيمان، ولولا ذلك ما شكَّ عمر في قتالهم، ولقال أبو بكر: قد تركوا لا إله إلا الله فصاروا مشركين»[1].

ويؤكد هذا المعنى قول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في آخر الحوار: «فوالله ما هو إلا قد شرح الله صدري للقتال، وعرفت أنه الحق « فهذا القول يدلُّ على أن قضية النقاش والحوار بين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – إنما كانت في القتال، وليس في الكفر.

وقد يعترض على هذا الدليل بأن حوار الصحابة كان قبل أن يحصل من مانعي الزكاة الممانعة والمقاتلة، فلما حصل منهم ذلك تحقق فيهم وصف الكفر.

ولكن هذا الاعتراض غير صحيح؛ لأنه مبني على اعتقاد كفر الطائفة الممتنعة، وعلى أن الامتناع أحد الأوصاف الموجبة للكفر، وهذا غير صحيح كما سبق التنبيه عليه.

وقد أطلق بعض المعاصرين القول: إن ابن تيمية يكفر الطائفة الممتنعة عن الشرائع الظاهرة والمقاتلة عليها[2]، ولكن الإطلاق هذا غير دقيق؛ فإن المتتبع لتقريرات ابن تيمية يجد أنه لا يكفر كل طائفة قاتلت على الامتناع عن شريعة ظاهرة، فهو لم يكن يكفر الخوارج مع أنهم طائفة ممتنعة عنده قاتلت على أمر ظاهر في الشريعة، وهو تكفير صاحب الكبيرة واستحلال دماء المسلمين، ونصَّ على عدم كفرهم ونسب ذلك إلى علي – رضي الله عنه ومن معه من الصحابة –[3].

الدليل الثاني: مخاطبة بعضهم لأبي بكر – رضي الله عنه – بكونهم لم يتركوا الإسلام وإقرار الصحابة لهم، وقد اعتمد الشافعي وابن حزم وابن عبدالبر على هذا الدليل، وفي هذا يقول الشافعي في سياق الاستدلال على قوله: «وذلك بيِّنٌ في مخاطبتهم جيوش أبي بكر وأشعار من قال الشعر منهم ومخاطبتهم لأبي بكر بعد الإسار (أي: الأسر)... وقالوا لأبي بكر بعد الإسار ما كفرنا بعد إيماننا ولكن شححنا على أموالنا»[4].

ويؤكد الماوردي قوة هذا الدليل فيقول بعد ذكره لأشعارهم: «فلم يرد عليهم أبو بكر ولا أحد من الصحابة ما قالوه، مع بقائهم على إيمانهم، فدلَّ على ثبوته إجماعا»[5].

وممَّا يدخل في هذا الدليل: قصة مالك بن نويرة وقومه، فإنهم ممَّن منعوا دفع الزكاة إلى أبي بكر – رضي الله عنه –، وكانوا من القبائل التي وجه أبو بكر خالداً إلى قتالها، فلما وصل إليهم أعلموهم بأنهم باقون على الإسلام، ثم قتل خالد مالك بن نويرة، ولما علم أبو بكر بمقتله جزع من ذلك ودفع ديته لأهله وردَّ عليهم المال والسبي، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: «قدمَ أبو قتادة على أبي بكر، فأخبره بمقتل مالكٍ وأصحابه، فجزع من ذلك جزعاً شديداً. فكتب أبو بكر إلى خالد، فقدم إليه، فقال أبو بكر: هل يزيد خالدٌ على أن يكون تأوّل فأخطأ؟ وردَّ أبو بكر خالداً، وَوَدَى مالك بن نويرة، وردَّ السبي والمال»[6]، فهذا الصنيع من أبي بكر يدلُّ على أن بعض من شملهم اسم الردة لم يكونوا كفاراً خارجين من الملة.

وقد ذكر عدد من المؤرخين أخباراً عديدة تدلُّ على أن الصحابة لم يكونوا يحكمون بالكفر على كل من شملهم اسم الردة في زمن أبي بكر – رضي الله عنه –[7].

الدليل الثالث: ظاهر كتاب أبي بكر إلى المرتدين، فإنه – رضي الله عنه – كتب إليهم كتاباً طويلاً اشتمل على بنود عديدة مختلفة في مقتضياتها، وممَّا جاء فيه قوله: «بسم الله

(١) الأم، الشافعي (٩/٢٠٦)، وانظر: المحلى، ابن حزم(١١/١٩٣).
(٢) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية، محمد الوهيبي (٢/١٩٠)، والحكم بغير ما أنزل الله، عبدالرحمن المحمود (٢٤٣).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢٨/٥٠٠).
(٤) الأم، الشافعي (٩/٢٠٦)، وانظر: التمهيد، ابن عبدالبر (٢١/٢٨٢).
(٥) الحاوي، الماوردي (١٣/١١١).
(٦) تاريخ خليفة خياط (١٥٠)، وانظر: كتاب الردة، الواقدي (١٠٦)، وتاريخ البطري (٣/٢٧٩)، والبداية والنهاية، ابن كثير (٦/٣٥٤)، وانظر دراسة مطولة لتحليل موقف خالد: حركة الردة، علي العتوم (٢٢٢-٢٢٧).
(٧) انظر: كتاب الردة، الواقدي (١٧٤-١٧٧).

الرحمن الرحيم. من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا، من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه»[1]، فهذا يدلُّ على أن بعض أهل الردة بقي على إسلامه ولم يخرج عنه، وذكر في أثنائه ما يدلُّ على أن الذي رجع عن الدين إنما هو صنف من المرتدين فقط.

ولا بدَّ من التنبيه على أنه جاء عند بعض المؤرخين جملة ربما يُفهَم منها خلاف ما سبق وهي قول أبي بكر: «فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نقر بما جاء به، (ونكفِّر من أبى ذلك ونجاهده)»[2]، وهذه الجملة لم ترد في كل روايات كتاب أبي بكر، ثم إنها لا تقتضي أن أبا بكر كان يحكم على كل من دخل في نطاق الردة بالكفر؛ لأنها جاءت في سياق بيان الحكم العام على من ترك الدين، والهدي الذي جاء به النبي ﷺ، وليست في سياق بيان موقف أبي بكر من المرتدين.

ولا بدَّ من التنبيه أيضاً على أن بعض العلماء استدلوا على القول: إن الصحابة ليسوا مجمعين على تكفير كلِّ المرتدين بأدلة غير صحيحة، ومن ذلك ما أشار إليه ابن عبد البر من أن عمر خالف أبا بكر في حكم مانعي الزكاة؛ ولهذا أرجع بعض السبي إليهم[3]، ومن ذلك أيضاً ما فعله ابن حجر، فإنه احتج بالخلاف الذي وقع بين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - في بعض أحكام سبي المرتدين كما جاء في أثر طارق بن شهاب على أنهم مختلفون في كفرهم[4].

وهذه الاستدلالات غير صحيحة؛ فإن عمر بن الخطاب أقر أبا بكر على أن قتلى المرتدين في النار، وأيده على ذلك ولم يخالفه إلا في بعض الجزئيات فقط كما يدلُّ عليه خبر طارق بن شهاب السابق فإنه ورد عنه أنه قال لأبي بكر: «قد رأيت رأياً، وسنشير عليك، أما أن يؤدوا الحلقة والكراع فنعم ما رأيت، وأما أن يتركوا أقواماً يتبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة نبيه ﷺ والمسلمين أمراً يعذرونهم به، فنعم ما رأيت، وأما أن نغنم ما أصبنا منهم ويردون ما أصابوا منا، فنعم ما رأيت، وأما أن قتلاهم في النار وقتلانا في الجنة، فنعم ما رأيت، وأما أن لا نَدِي قتلاهم فنعم ما رأيت، وأما أن يدوا قتلانا فلا، قتلانا قتلوا عن أمر الله فلا ديات لهم»[5].

وأما إرجاع السبي فهو لا يستلزم أن عمر كان يرى عدم كفرهم؛ لأنه جائز ومقبول في الشريعة، وقد فعله النبي ﷺ مع بعض قبائل العرب[6]، ، فكيف يُقال: إنه لا يكفرهم، ثم إن عمر ردَّ السبي على كل المرتدين ولم يقتصر على مانعي الزكاة فقط.

وإذا لم يكن كل من شملهم اسم الردة كفاراً خارجين عن الملة، فلماذا سموا باسم الردة إذاً؟، وقد أوضح العلماء الأسباب الداعية إلى ذلك وأرجعوها إلى سببين، وهما:

السبب الأول: أن هذا الإطلاق يصح في اللغة؛ إذ معنى الردة في اللغة الرجوع، ومن أقر بالصلاة وأنكر الزكاة بعدما كان مؤمناً بها، فإنه يصدق عليه بأنه رجع عن بعض دينه، ولا يصحُّ لنا أن نحاكم إطلاقات المتقدمين على ما استقر عليه اسم الردة في كتب الفقه المتأخرة، وقد نبه الشافعي على هذا الوجه إذ يقول: «فإن قال قائل: ما دلَّ على ذلك والعامة تقول لهم: أهل الردة، قال الشافعي -رحمه الله تعالى-: فهو لسان عربي، فالردة الارتداد عمَّا كانوا عليه بالكفر والارتداد بمنع: يمنع الحق، قال: ومن رجع عن شيء جاز أن يقال: ارتد عن كذا»[7].

السبب الثاني: أنهم دخلوا في غمار أهل الردة فأضيف الاسم في الجملة إلى الردة؛ إذ كانت أعظم الأمرين خطراً وأكبرها جُرماً كما أشار إلى ذلك الخطابي[8].

وبعد هذه الجولة المطولة في البحث عن حقيقة موقف الصحابة من أصناف المرتدين ندرك أن هذه القضية كانت محل خلاف بين العلماء المتقدمين، ويظهر أن القول الثاني هو الأقرب للصواب؛ لقوة أدلته وظهورها في الدلالة على حقيقة موقف الصحابة - رضي الله عنهم -.

(١) انظر نص الكتاب: كتاب الردة، الواقدي (٧١)، وتاريخ الطبري (٣/ ٢٥٠).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٢٥٠).
(٣) انظر: الاستذكار، ابن عبدالبر (٣/ ٢١٤).
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٢/ ٣٣٦).
(٥) أخرجه: ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣٤٠٠)
(٦) انظر في هذا الجواب: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٦/ ٣٤٩)، وانظر: موقف الصحابة من الردة والمرتدين، فهد القرشي - رسالة ماجستير في جامعة أم القرى - (٢٤٦).
(٧) الأم، الشافعي (٩/ ٢٠٦).
(٨) انظر: أعلام السنن، الخطابي (١/ ٧٤٢).

ألوان العذاب في سجـــــ

أحمد أبو دقة(*)

فـي بداية تسـعينيات القرن الماضي طلب أعضاء كنيسـت من رئيس الوزراء الصهيوني الهالك إسـحاق رابـين بـأن يضع حداً للعمليـات الفدائية التي ينفذها الفلسـطينيون داخل المـدن الصهيونية فردً عليهم قائلاً: «شخص أراد أن يموت كيف أواجهه؟!».

كانت تعلم حكومة الاحتلال جيداً أن الإيمان يمنح القوة والصبر لأعدائهـا؛ لذلك ابتكرت أسـاليب كثيرة لتعذيب الفلسـطينيين وتحطيم معنوياتهم، ومن أبرزها سياسـة الاعتقال التي مارستها بقوة في العقدين الأخيرين؛ لكن الأسرى حولوا زنازينهم إلى قاعدة انطـلاق للمقاومة الفكرية والثقافية، فقدمـوا نتائج رائعة فمنهم من أكمل دراسـته الثانوية و الجامعيـة داخل الزنازين، ومنهم من ألَّف روايات وكتب وأبدع في ذلك، إبداعات الأسرى تواجهها أيضاً أسـاليب جديدة لتحطيمها من قبل مصلحة السـجون الصهيونية لذلك أوجدت أنظمة تجسـس داخل السـجون ومن بينها ظاهرة العصافير التي تتلخص فكرتها بزرع جواسيس داخل غرف الأسرى لتسجيل اعترافاتهم وابتزازهم تمهيداً لمحاكمتهم.

وتظهر الإحصائيات التي نشـرتها وزارة الأسرى و المحررين الفلسطينيين الأخيرة التي صدرت بمناسبة يوم الأسير الفلسطيني أن الكيان الصهيوني اعتقل منذ عام ١٩٦٧م مابين نساء وأطفال وشبان وسياسيين أكثر من ٧٥٠ ألف فلسطيني.

ويعود نظام الاعتقال الإداري إلى عهد نظام الطوارئ الذي شرعنه الانتداب البريطاني عام ١٩٤٥م، وقد أصدر القضاء الصهيوني أكثر من ٢٠ ألف أمر إداري بحق فلسـطينيين منذ بداية انتفاضة الأقصى الثانية، حيث يقبع في معتقلات الاحتلال ٣٠٩ سجين إداري.

ويظهر في الجدول التالي إحصائية نشرتها مؤسسة الضمير لرعاية الأسـير في مطلع العام الحالـي توضح بالتفصيل عدد الأسرى داخل سجون الاحتلال الصهيوني.

الأسرى	العدد
مجمل أعداد الأسرى	٤٦٥٣
الأسرى الإداريين	(٢٤ منهم أعضاء مجلس تشريعي) ٣٠٨
الأسيرات	٧
الأطفال الأسرى	(٣٣ تحت سن ١٦ سنة) ٢١٨
اعضاء المجلس التشريعي الاسرى	٢٧
اسرى القدس	١٦٠
اسرى الداخل (فلسطينيو ١٩٤٨)	١٩٧
اسرى غزة	(١ تحت امر المقاتل غير الشرعي) ٤٥٣
اسرى محكومين مدى الحياة	٥٢٧
اسرى محكومين اكثر من ٢٠ سنة	٤٤٩
اسرى قضوا اكثر من ٢٥ سنة	٢٣
اسرى قضوا اكثر من ٢٠ سنة	٥٢

(*) مجلة البيان.

ـــــــون «إسرائيل»

أساليب التعذيب

إن الممارسات التي يخضع لها الأسرى في سجون الاحتلال سيئة جداً حيث تمارس أساليب تعذيب بشعة بحقهم في أثناء فترة التحقيق، وحتى طوال فترة قضائهم لمحكوميتهم، ويقول الباحث الفلسطيني المتخصص في مجال الأسرى إن الأسرى يخضعون لـ٨٠ نوعاً من التعذيب، أبرزها: الشبح، الهزُّ العنيف، الضرب على مؤخرة الرأس، تكبيل الأيدي وعصب الأعين، الضرب على المعدة، الموسيقى الصاخبة، التحرش الجنسي، تكبيل اليدين والقدمين سوية على شكل موزة، الضرب على الجروح ومنع الأدوية والعلاج، الحرمان من النوم، الجلوس على كرسي صغير على شكل زاوية حادة، استخدام الكلاب، الحرمان من الطعام، شد الشعر وخلعه، الضغط على الركبتين والضغط على أماكن حساسة في الجسم، المكوث في ثلاجة ضيقة ومعتمة، التعرية من الملابس، الصعق بالكهرباء، الوقوف تحت المطر أو في البرد القارص عراة، الخنق بالماء، العزل الانفرادي، واعتقال الأقارب خاصة الزوجات والأمهات للضغط والابتزاز... إلخ.

وتقوم مصلحة السجون الصهيونية باللجوء إلى العزل الانفرادي لبعض قيادات الحركة الأسيرة أو الأسرى كإجراء عقابي لإذلالهم، وتقدم على وضع الأسير في حيز مكاني يتميز بالضيق الفيزيائي والسيكولوجي (النفسي)، يتم الحرص فيه على التأكد من خلوه من مظاهر الحياة المختلفة وجعلها في حدودها الدنيا أو دون ذلك، وعلى الأخص منها مظاهر الحياة الاجتماعية والإنسانية، وذلك لإبقاء الأسير في حال حصار وانحباس دائمين بتضييق المساحات الفيزيائية والإنسانية إلى أدنى درجاتها؛ كي يصبح هذا الحصار والانحباس نمط حياة قسري مفروض على الجسد والحواس للوصول إلى حصار الروح والقدرات الذهنية وهو "أي العزل" بهذا يعدُّ بحق "كسجن داخل السجن"[١١].

وتقول دراسة صادرة عن الهيئة القيادية العليا لأسرى حركة حماس: "إن الإجراء القانوني بحق المعزول يمر بمراحل، وإن كانت هذه المراحل في غالبيتها محض صورية وشكلية؛ لأن القرار الأساسي المتخذ بحق أي معزول لا يقرره القضاة في المحاكم؛ بل يقرره ضباط أمن "الشاباك" ويعود لهؤلاء وحدهم تقدير المدة الزمنية التي ينبغي أن يمضيها المعزول في العزل، ونكاد لا نعرف عن حالات المعتقلين بأمر من الشاباك عزلها من خلال قرار محكمة، وفيما يلي تسلسل هذه العملية:

١ - إبلاغ السجين بصورة مفاجئة من قبل إدارة السجن بأنه منقول إلى سجن أو قسم آخر، وفي العديد من الحالات لا يعلم السجين المراد عزله على وجه التحديد أنه مساق إلى أحد أقسام العزل؛ لذلك قد يعاني في أنه لم يتحسب ويأخذ ما يلزمه من حاجياته الضرورية، وفي بعض الحالات الاستثنائية كان يتم تحويل السجين المراد عزله مباشرة بعد انتهاء التحقيق معه إلى أقسام العزل دون المرور بأقسام السجن العادية.

٢ - بالعادة لا تخضع الفترة الأولية "٦ شهور - سنة" للمعزول لقرار قضائي من المحكمة، والإجراء المتبع هنا أنه بعد مرور ٤٨ ساعة على التواجد في العزل، أو في حدودها يتم عقد جلسة لها صفة "بروتوكولية" يديرها إمَّا مدير السجن وإمَّا نائبه وفي أحيان أخرى مدير المنطقة "الجوش" وإمَّا نائبه والتي بالعادة من صلاحياتهم إيقاع عقوبة مخففة من العزل يصل حدها الأقصى إلى شهرين قابلين للتمديد حتى انقضاء المدة القانونية "٦ شهور - سنة".

٣ - بعد مضي فترة الستة الشهور الأولى للمعزول بشكل فردي وفترة السنة للمعزول بشكل ثنائي يتوجب عرض قضية عزل المعزول على محكمة مدنية للبتِّ في القضية؛ بحيث تصبح إقامة السجين في أقسام العزل بعد ذلك سارية بحكم قضائي من المحكمة وتخرج عن صلاحيات إدارة السجون، بالعادة يتم تسليم السجين قبل أسبوع أو عدة أيام من انعقاد جلسة المحكمة أوراق بروتوكول فيها عدة نقاط يضعها الادعاء العام ويدور حولها النقاش في المحكمة وبعد مضي سنوات عديدة يتلاشى مثل هذا الإجراء، ويذهب المعزول فجأة إلى محكمة تمديد العزل عند اقتراب موعد انتهاء آخر تمديد له.

٤ - الملف السري: بالعادة يقوم المدعي العام برفع ملف سري يقدمه للقاضي بحق المعزول بأمر من الشاباك، وكما هو معلوم لا تتاح معرفة وبالتالي مناقشة بنود مثل هذا الملف بحجة السرية، ويعتمد القضاة التوصيات الواردة في الملف السري كما

هـــي، وهنا علامة جبن هذا القضـــاء خاصة وأنه مدني وليس عسكري، فلم يحدث أن قام أي قاضٍ بمناقشة القضية متحرراً من توصيات الشـــاباك وفي مرات نادرة،وفي محاولة من بعض القضاة التدقيق في الملف موضوع النقاش كان يتم تأجيل جلسة التمديد لوقت آخر لاستدعاء أحد مندوبي الشاباك؛ ليستوضح منـــه تفاصيل الموضوع،،ولكن النتيجة في كل مرة هي نفســـها التمديد !!.

٥. تنقسم طبيعة المدة الزمنية التي تصدرها المحكمة بحق المعزول تبعاً لشـــروط حياة العزل فإن كان ممَّن تقضي المحكمة بعزله عزلاً انفرادياً أحادياً بدون أي شـــريك آخر في الحجرة، فإن المـــدة الزمنية القصوى التي تحكم بها المحكمة هي ســـتة شـــهور،بينما الذين تقضي لهم المحكمة بـــأن يكونوا ممن لهم شـــريك آخر في الحجرة، فإن المدة الزمنيـــة لعزلهم ولمثولهم القادم مرة أخرى أمام المحكمة هي سنة كاملة. وتقول الدراسة إن مصلحة السجون الصهيونية بنت مبانٍ خاصة لأقسام العزل وهي تكون أشبه بمختبرات يشرف عليها خبراء في علم النفس وعلم الإجرام فضلاً عن خبراء في الأمن والشرطة ولعل أحدث أنموذج لذلك هو قسم عزل "إيلون الرملة" الذي افتتح في العام ٢٠٠٧م.

الإنتاج الفكري للأسرى:

إن إقدام أجهزة الأمن الصهيونية وفي مقدمتها الشـــاباك على اعتقال النخبة المثقفة والمتعلمة ساعد الأسرى على القدرة على العطاء الفكري، وقد أنهى عـــدد كبير منهم كتباً وروايات داخل زنازين الســـجن؛ لأن الكثير منهـــم كان يعمل باحثاً في مراكز دراســـات، وبعضهـــم كان يعمل مدرســـاً أو صحافياً أو مهندســـاً أو طالباً جامعياً، هنـــاك الكثير من بينهم من يمتلك موهبة في فنون الكتابة،فهناك من ينظم الشـــعر كالشاعر وليد خالد، وهناك من لهم محاولات شـــعرية نبت بعضها في العزل، وهنـــاك من يكتب القصـــة القصيرة أو الطويلـــة مثل القاص محمود عيســـى الذي أنجز كتابة مجموعة كبيرة من القصص في أثناء وجـــوده الطويل في العزل منـــذ ٢٠٠٢م، وهناك من أنتج بعض الدراسات والأدبيات والخواطر وقد طبع في الفترة الأخيرة إحدى تلك الأدبيات للأسير مروان البرغوثي مع آخرين عن ذكرياتهم وتجربتهم في العزل، ولعل هذا النوع من الإنتاج له أهميته لخصوصية ظروف العزل التي كتب فيها من هنا يستحق الاهتمام عند دراســـة ونقد نتاجات الحركة الأسيرة، ويضاف لما تقدم تطور أدب المراســـلة خاصة وأن بعض الرســـائل تصل إلـــى ٢٥-٣٠ صفحة أحياناً لعل بعضهم يجد فيها تعويضاً عن حرمان التواصل المختلفة كما أنه يجدر أن نذكر هنا أن العديد مـــن أولئك المعزولين يحفظون القرآن الكريم غيباً، وكان يجتمع في نفس القســـم أحياناً خمســـة منهم؛ كما أن بعض المعزولين تعلـــم اللغة العبرية لأول مرة من خـــلال جهد ذاتي محض في أثناء وجوده في حجرة العزل.

معركة الأمعاء الخاويةمع بداية شهر نيسان/ إبريل الماضي أطلق الأســـرى في الســـجون الصهيونية حملة للإضراب عن الطعام منددين بالإجراءات العقابية التي تمارســـها مصلحة الســـجون الصهيونية، وطالبوا بإيقافها ومـــن هذه الإجراءات العزل الانفرادي وحرمان أهالي الأسرى خاصة في قِطَاع غزة من زياراتهم.

وبعد أكثر من ثلاثة أســـابيع من الإضراب المتواصل الذي تســـبب بنقل عدد من الأسرى إلى المستشـــفيات بسبب تردي وضعهـــم الصحي، فقد عقد اتفاق بين قيادة الحركة الأســـيرة في السجون والجانب الصهيوني برعاية مصرية تكلل بموافقة الكيان الصهيوني على مطالب الأسرى.

ويقول أحد كبار قادة الأســـرى المحرريـــن نائل البرغوثي في تصريح صحفي: "إن الانتصار حليف الأسرى لأنهم يملكون مـــا لا يملكه الاحتلال من الإرادة والعزيمـــة والتحدي والقرار الصلب، الذي جعل السجان يخضع لكلمة قيادة الإضراب. وما يجري من إضراب وخطوات تصعيدية نفذها الأسرى جعل حال الإرباك تســـيطر على كافة مؤسســـات الاحتلال، التي عجزت أمام جوع الأبطال، كما أنها فشـــلت في قمعهم والالتفاف على مطالبهم وتهميش قضيتهم".

وفي رسالة سربت من زنزانته، كتب عميد الأسرى المعزولين محمود عيســـى، كلمات تتحدث عن الآلام التي يعيشها الأسرى في سجون الاحتلال.

وقال عيسى في رســـالته:"زارني مرة في زنزانتي المحكمة الإغلاق مدير الســـجن ومســـؤول المنطقة العسكرية، فسألني الأخير هل من مشـــاكل؟ فقلت فقط أريد أن تســـمحوا للهواء بالدخول، فاتجه نحو الشباك الموصد، بصفائح الحديد، فوجد بضع ثقوب صغيـــرة. وقال يمكن للهـــواء أن يدخل من هنا!"، مضيفاً "أما مدير السجن فقال: أنت يجب أن نضعك في خزنة، مثل خزنة البنك".

يذكر أن الأسير عيسى من سكان بلدة عناتا التابعة لمحافظة

القدس، وهو معتقل منذ العام ١٩٩٣م، ويقضي حكماً بالسجن المؤبد المكرر ثلاث مرات بالإضافة إلى حكم بالسجن ٤٦ عاماً.

وعن سبب خوضه الإضراب يقول الأسير:"أخذنا قراراً وعزمنا أمرنا أن نمضي حتى النهاية في طريقنا الذي فرض علينا، لم نكن أحياء قبل اليوم؛ بل كنا نعاني سكرات الموت في كل أوقاتنا... نغَّصوا علينا الطعام، أما النوم فقد غدا علينا حراماً بشق الأنفس".

وتابع "لم يبقَ شيء اسمه ممنوع إلا وجُرب علينا، منعنا من زيارة أهلنا، حتى ما عاد أحدنا يتخيل شكل أهله، وما عاد أهلنا يذكرون ملامح وجوهنا. كما منعنا لفترات طويلة من شراء الكانتين (الوجبة الغذائية)، كما حرمنا من التعليم، وحيازة الكتب، والكتابة، وصودر مراراً ما كنا نكتبه من خواطر".

ويتابع عيسى من زنزانته قائلاً: "منعنا من الخشوع حتى في صلاتنا، فالصراخ والشتائم والموسيقى الصاخبة تصم آذاننا طوال نهارنا،منعنا حتى من الكلام فيما بيننا، أو رفع أذان صلاتنا، وكلما نادى أحدنا الآخر جاء السجان قائلاً لنا: ممنوع الكلام".

وفي ختام الرسالة كتب الأسير المعزول منذ ١١ عاماً "أقسمنا بالله ألَّا نتراجع حتى نحقق كل مطالبنا، ولتكن ما تكن نهايتنا، والله وحده هو سيقضي في أمرنا".

عصافير السجن:

داخل السجن يوجد مجتمع مترابط متضامن قضيته واحدة وهدفه الحرية المنشودة، وعلى الرغم من قسوة السجن إلا أن الحكومة الصهيونية تواجه صعوبة في اختراق هذا المجتمع الذي شرب من مشارب ثقافية عدة لكن جمعته قضية بلده المحتل؛ لذلك دائماً تحاول الحكومة الصهيونية إيجاد أساليب جديد لاختراق هذا المجتمع وأبرزها "العصافير".

" العصافير" هو مصطلح يطلق على العملاء داخل السجون، ومنذ سنوات تضع إدارة سجون الاحتلال الصهيوني هؤلاء العملاء في غرف خاصة بهم، تحت إشراف المخابرات التي تستخدمهم للوقيعة بالأسرى من أجل الإدلاء باعترافات.

خلال مرحلة التحقيق يقوم المحققون الصهاينة بتحويل الأسرى إلى إحدى الزنازين وقد يتواجد بها بعض الأسرى الآخرين ومعهم عدد من" العصافير" بهدف نزع اعترافات من الأسير دون علمه.

ويروي الأسير مازن أرشي قصته مع العصافير قائلاً: "بعد الانتهاء من أخذ البصمات، تم إبلاغي من قبل ضباط المخابرات بتوجهي الآن إلى أقسام السجن عند الأسرى العاديين، وفي الطريق إلى الأقسام بعد عصب العينين وتكبيل اليدين والقدمين، بدأت تدور الأفكار في رأسي وكانت كالتالي: هل حقاً انتهت قصة التحقيق معي هكذا بكل هذه البساطة والسهولة؟ وأين العصافير؟ وأين الحديث الذي كنا نسمعه عن قسوة التحقيق وما شابه؟.

بعد وصولي إلى أحد الأقسام، قام السجان المرافق لي بإزالة العصبة من على عينيي وفك أصفادي. ويستقبلني أحد الأسرى الذي عرف عن نفسه لاحقاً باسم (أبوعنان)، ومن أول لحظة رأيته فيها دخل الشك والريبة في داخلي،أدخلني القسم (كنت سابقاً أعتقد أن السجن من الداخل تحت سيطرة الإدارة بالكامل، وإذا به تحت سيطرة الأسرى) وهذا من ناحية المعيشة والنقل بين الغرف، والكنتينة وأمور أخرى كثيرة كانت تحت سيطرة الأسرى من الداخل وهناك لجان تنظيمية ودعوية وثقافية وماشابه.

دخلت عند العصافير وفي قلبي شك كبير جداً أنهم عصافير، طبعاً لا اختلاف عن الأسرى الذين كنا نراهم على التلفاز سابقاً، الجميع بلحية وفي يده مسبحة ومصحف وأمور أخرى، تدل على (أن هؤلاء الذين أمامي أسرى)، وبدأ الاستقبال من العصافير بحفاوة وهتاف وبعض توزيع الحلوى، ومن ثم أمطرت بوابل من الأسئلة عن حال المجاهدين بالخارج والناس والحياة العامة وأنا أجيب باختصار شديد وأغلب الأجوبة كانت كالتالي (أنا سجنت بالخطأ وكلها يومين وأذهب ويخلى سبيلي) وذلك لأظل في الجانب السليم.وبدأ الجميع بالتعريف عن نفسه، فهذا أبو خالد، وأبو علاء، وأبو مصعب، وأبو حذيفة، يعني (أسماء مشايخ ودعاة في فلسطين)، ويطلقون على أنفسهم أسماء حقيقية لأسرى معتقلين، مثل محمد أبو وردة، محمد السعدي، وأسرى فعلاً في السجن ولكن لم أرهم قبل ذلك. وأخبروني أن هذا قسم الاستقبال للأسرى الجدد، وعند التأكد من هوياتهم (أي الأسرى) والتأكد من نقائهم الأمني سيتم نقلهم إلى السجن فوق عند الشباب الأسرى العظام. وأضاف، إذا كان السجين من الضفة يحضرون له عصافير من غزة أو من منطقة بعيدة من الضفة، من غير منطقة الأخ السجين حتى لا يتم معرفتهم، وإذا كان السجين من غزة يتم إحضار عصافير غالبيتهم من الضفة. تحاول الحكومة بهذه الوسيلة التغلب على صبر وثبات الأسرى. الكثيرون من الأسرى يقع في هذه المصيدة بسبب جهلهم بوجود هؤلاء "العصافير" لكن الكثير من المنظمات المختصة تحاول توجيه تحذيرات للأسرى في السجون.

ولادةُ الفجر...

نجيبة بوغندة(*)

خيّمَ اللّيلُ على ردهاتِ السّجنِ فزاد المكانَ وَحشةً ووحدةً تجْثُمُ على الأرواحِ تكاد تزهقها... لاحت الأنوارُ خافتةً؛ بل شاحبةً في لونِ الموتِ... وازْداد الصّمتُ الرّهيبُ يضغطُ بقبضته على النُّفوس الحزينة يُنهي ما بقي داخلها من أملٍ لا يقطعه غيرُ أصواتِ أقدام السّجّانين المارّين بالعنابر الممتدّةِ على جانبيْ الرّدهة.

كانت تلك اللّيلةُ أثقلَ ليلةٍ تمرُّ بالعمِّ مصباح ذاك الرّجلُ الذي أمسكه البوليسُ السّياسيُّ بتهمة التّعدّي على سمعة الحاكم والنّيل من قدْر الدّولة...

خرج ذات يوم لابتياع بعض الأغراضِ من السُّوق المجاورة لمنزله، فشدَّ انتباهه صوتٌ أجشٌّ ارتفع من النّاحية الأخرى من السّوق... اشرأبّت عنقه كغيره من النّاس تستطلع الأمر ولا يعرف إلى حدود اللّحظة كيف أخذته رجلاه إلى مكان الخصومة:

– لماذا تبخسني الثّمن أيّها المطفّف...؟

– اخرسْ أيّها الأرعن... إن لم يعجبك الثّمن فامضِ في حال سبيلك إلى غيري...

– لكنّي لا أجد هذه البضاعة إلاّ عندك، وأنا في حاجةٍ أكيدة لها..

– لن أبيعك إلا بالثمن الذي يُرضيني...

تطوّرَ النّقاشُ إلى مشادةٍ كلاميّةٍ حادةٍ امتدت معها الأيادي لتأخُذ بالنّواصي والأقدام، وارتفعتِ الأصواتُ بالشّتم والسبّاب، وكأنّ الدّنيا قامت ولم تقعد.

لم يصبر صاحبنا ووجد نفسه تدخل محاولاً إيقاف الشجار بعد أن تسمر الجميعُ لمشاهدة ما يجري...

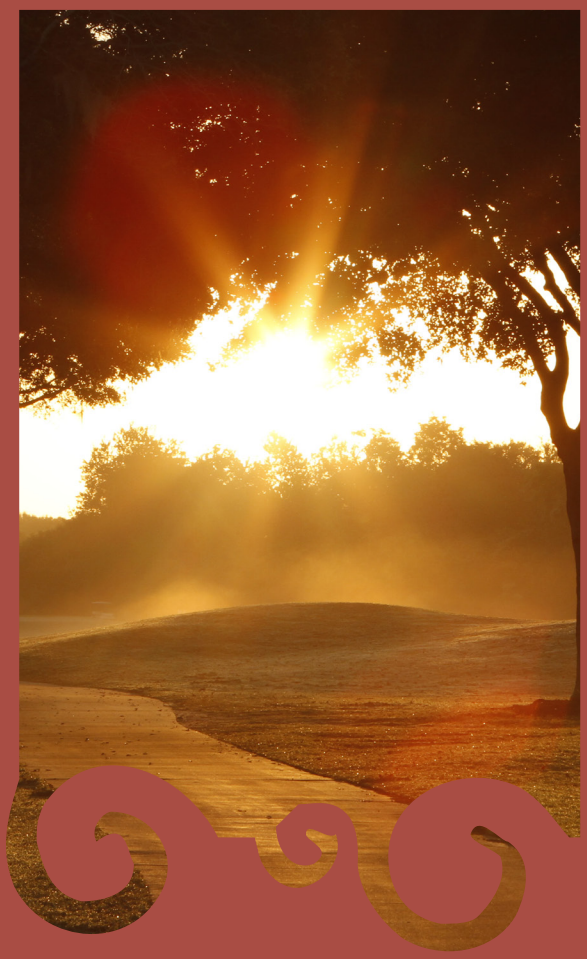

– كفا عن مثل هذه التّصرّفات المشينة..

– دعنا وشأننا... من طلب منك التدخلَ؟

– لكن الظلمَ حرمه الله حتى على نفسه...

– حرّم الله جلدك... هل تراني أظلمه لما أمتنع عن بيع سلعتي لأمثاله؟

– نعم... فهو في حاجة لها ولا يجدها إلا عندك؛ لكنك تصرُّ على ظلمه عندما تحاول ابتزاز حاجته إليها...

– اغرب عن وجهي وإلا كان مصيرك من اللكمات ما حصَّل غريمي..

(*) مدرّسة وكاتبة تونسية.

لا أستغرب الظلمَ من أمثالك فالظاهر أنك تأبى النصحَ... صحيح أن هذه البلادَ صارت أماً للظلم حتى كأني أرى الظلمَ رجُلاً يمشي بين أسواقها مترجلاً...

لم يكن مصباح يعلم بأنه مراقبٌ وهو السياسي القديمُ، ولا أنّ ما حدثَ بين الرجلين كان مفتعلاً... بل لم يكن يعلم أنّ كلّ ذلك كان معَدّاً مسبقاً وأن الفخَّ كان منصوباً له بكلّ دقة... و ما كاد يُنهي كلامه حتّى تحرّكت نحوه كتلتا لحم تنتهي برؤوس ضخمة أمسكتا بتلابيبه وكلّمه أحدهما بصوت أجشّ:

– أيُّ بلادٍ تقصدُ..؟ يعني حكامها ظُلّام يا بنَ....

– لا أقصد شيئاً فقد تكلمتُ في عموم الأمور..

سننظر في أمرك وكيف ستُطلق ساقيك أمام ما ينتظرك أيّها المتبجّح بما لا تعي...

ساد صمتُ رهيبٌ وهو يمتطي عربةَ الشرطة المقلة له بعد أن ألقوا به إلى جوفها، ثُمَّ وجد نفسه يُقادُ إلى مكان سبقته إليه روائحه العفنة؛ وهو مغمض العينين يتعثّر في مشيته... زجوا به إلى داخل غياهب السّجن المظلمة، ونسوه أو تناسوه لأيّام دون سؤالٍ ولا اتّهام ممّا زاد من تسارع الأفكار السّوداء المتزاحمة داخل فكره المشوَّش... داخل عقله السّجين.

وذات يوم بينما كان مُنزوٍ في ركنٍ من غرفته النّتنة يستمتع بضوء الشّمس الذي كان يتسلّل هو الآخر خلسةً من نافذةٍ في أعلى السّقف دخل عليه رجلٌ ضخمٌ، وقاده إلى زنزانة أكثر ضيقٍ وأشدّ ظُلمة.

– إلى أين تأخذونني...؟

– اصمت.

– متى سيستدعيني حاكم التّحقيق؟

– ههه... وهل لمثلك سيُضيع حاكم التّحقيق وقته؟ قضيّتك جاهزة وقد استوفت أركانها.

– لكنّي لا أعرف تهمتي حتّى... أريد محامياً... أريد محاكمةً عادلةً...

– ولك القدرة على التكلُّم من جديد بعد أن وقعتَ متلبّساً؟

– أنتم تصرّون على الظّلم وتغضبون لمّا تُرمون به...

ركله بقدمه ودفعه بعنف شديدٍ حتّى أوقعه أرضاً يلثم صفحةَ الأديم مُهاناً ذليلاً، ثمَّ جذبه بحركة أعنفَ من طرف قميصه وساقه أمامه كما تُساقُ البهيمةُ إلى الزّريبة.

قبع المسكينُ يراجع سجل ذاك اليوم المشؤوم علّه يظفر بإجابة تشفي غليله حول أسباب اعتقاله المفاجئ؛ لكنّه لم يصل إلى إجابةٍ شافية تُخرجه ممَّا هو فيه من حيرة.

نام الجميع تلك الليلة لكن النومَ لم يعرف إلى جفنه طريقاً... كانت الغرفة ضيّقة تكاد تضغطُ أضلاعه الوهنةَ تفوح منها رائحة العفن... غطّت أعشاشُ العناكب أركانها القريبة من الرّأس وزيّنت جدرانها طحالبُ الرُّطوبة القاتلة... كانت الصَّراصرُ تقرع الغرفة جيئةً وذهاباً لا تأبى لوجوده؛ إذ تجد في المكان ملاذاً لحياتها الصّاخبة في أواخر الليل؛ فتجوب شوارعها وأزقتها بكلّ حرّية واطمئنان.

حاول حبس أنفاسه حتّى لا تتسرَّب الرّطوبة الخانقةُ إلى جوارحه المنهارة وصار كالشّمعة يذوي بعد أن كاد يتسرّب اليأس المَقيتُ إلى قلبه.

بكى في داخله من القهر والظلم... بكى من جبروت المستبدِّ صديق الظّلام... لم يكن من اليسير مسح دموع اختزلها القلبُ في تنهيدات طويلة العُمق... بكى نفساً محطمةً بالكاد يمكن جمعُ أشلائها المبعثرة... تململَ في ضيق الغرفة بضيق نفسه يرنو إلى فضاءٍ أرحبُ قد يُهديه إليه الزّمن القادمُ... امتعض في داخله من قلة صبره، وسرعان ما جرى يشحنها بما قد يُسكّن ألمها في غربته الروحيَّة، ويُهدهدها براحة كفّه يُزيحُ عنها الوجعَ بما تيسَّر من الذّكر.

كان كلّما سمع خطوات تقتربُ في الممرّ الطّويل إلّا وقف منتظراً أملاً قد يلوح من بعيد، وتتسارع دقّاتُ قلبه تُهديه زفراتِ الفرح المتقطّعة وتؤجّجُ أحلامه وآماله وتُؤرجحها ذات اليمين وذات الشّمال؛ لكن يضيع كلُّ شيءٍ كلّما تلاشى وقع الأقدام وابتعد وتعود نفسه المكدودةُ في صمت اللّيل الرّهيب إلى ركنها وتسكن تنتظر صباحاً قد يستعير من مصباحه أملاً فيه الأمن والأمان المرتقبُ...

الشعب يريد إعادة التأهيل

أحمـــــد فـهـمـي
afahmee@hotmail.com
@ahmdfahmee

إنه ذلك الشعار الذي أصبح رمزاً للثورات العربية: الشعب يريد إسقاط النظام.

شعار مختصر بليغ، ممتلئ بالمعاني، فهو من نوع الشعارات التي يرفعها الشعب دون أن يتوفر لكل شرائحه إدراك كامل لدلالاتها ومعانيها.

نعم الشعب يريد إسقاط النظام.. لكن هل يدرك الشعب أن النظام لن يسقط بصورة كاملة ما لم تسقط دعائمه في داخل النفوس أولاً.

النظام السياسي - العربي - يعتمد في استقراره داخلياً على ثلاثة عوامل أساسية: الشرعية - القوة- تحييد المجتمع.

فلا بُدَّ للنظام من شرعية يسوغ بها حكمه ، لكن هذه الشرعية لا يشترط أن تكون كاملة، أو حقيقية، هي مجرد بند في العقد الاجتماعي بين السلطة والمجتمع: شرعية قانونية، دستورية، تقليدية، كاريزمية، ثورية، أو حتى شرعية الإنجاز.

أما القوة، فهي الأساس، وهي التي تعوض النقص في الشرعية، والمقصود بها قدرة النظام على ممارسة القمع ضد أي طرف أو فعل يهدد استقراره، وليس استقرار المجتمع، من هنا اختزلت المهام الحقيقية لأجهزة أمن الدولة؛ لتصبح «أمن النظام» ثم تقلصت أكثر لتصبح «أمن الرئيس»..

أما تحييد المجتمع، فيعمل أثره في اتجاهين:

الأول: رسم خطوط حمراء للنشاط المعارض لا يتخطاها في اتجاه المجتمع، أو في اتجاه النظام، فمن المهم أن تبقى المعارضة حية، لكن فاقدة للسيطرة.

الثاني: تغييب العقل الجمعي، وإغراقه في مسارات متعرجة، وتدميره ثقافياً وفكرياً، وتحطيم القواعد الاجتماعية والأخلاقية، وإشاعة فوضى ممنهجة في كافة المجالات، حتى لا يستقيم للمجتمع عود، ولا يرقى للتفكير خارج إطار متطلبات الحياة اليومية والمعيشية.

قامت الثورة في مصر، فسقط رأس النظام، وفقد شرعيته، ثم ضعفت قوته - أي النظام - وتلاشت الخطوط الحمراء أمام القوى المعارضة، وبقي فقط تأثير عامل وحيد، هو: العقل الجمعي المغيَّب.

تحركت القوى السياسية - وفي مقدمتهم الإسلاميون - بناء على افتراض - تبين خطؤه - أن الشعب الذي أسقط النظام في الواقع، سوف يُسقط بقاياه داخل النفوس، وأن مشاركة الملايين في الثورة، تعني أن الشعب كلَّه يؤيد الثورة وتداعياتها.

من نتائج هذه الفرضية، أنه لا أحد أبدى اهتماماً واضحاً بإعادة تأهيل الشعب، وإزالة رواسب ثلاثين عاماً من التشويه والتدمير الداخلي، فبقيت السلبيات والأمراض كما هي، ولنتخيل الأمر عن طريق هذا المثال الافتراضي:

أحد الأشخاص جاءه صديق فأخبره أنه تعرَّض لخسارة كبيرة نتج عنها فقد جميع ممتلكاته، فأصيب هذا الشخص بأزمة قلبية حادة، ثم تبين له لاحقاً أنه لا خسارة، وأن الأمر كان مجرد مزحة، فهل يتلاشى المرض بتلاشي سببه؟ طبعاً لا.. كذلك لا يمكن أن نتخيل زوال المرض الذي أصاب الشعب على مدى ثلاثين عاماً، بمجرد زوال مسببه، فهناك فرق بين زوال سبب المرض والشفاء من أعراضه.

تلك هي بعض المعاني التي يقدمها لنا التأمل في قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [**الرعد** : ١١].

لم يتغير الشعب بالدرجة الكافية والمطلوبة، فانعكس ذلك على واقعهم، فهلَّا تداركنا الأمر وأصلحنا الخلل، بأن نقرن بين تأهيل الشعب وتطويره، وبين إصلاح الواقع وتغييره.

[المسلمون.. والعالم]

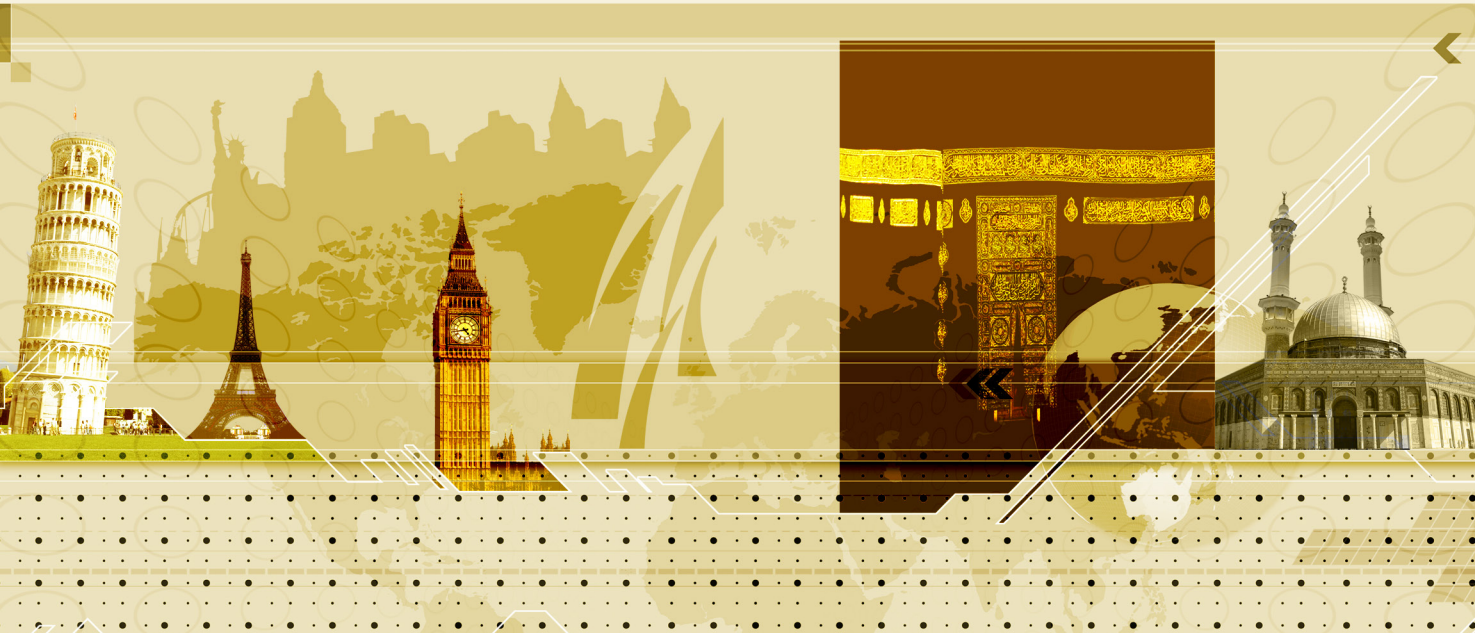

مجزرة الحولة... هل تكون نقطة تحول في سورية؟
هيثم محمد الكناني

دولة الباطنية المتحدة
د. يوسف بن صالح الصغير

التدافع الدولي نحو «القرن الإفريقي»...
د. نجلاء مرعي

مجزرة الحولة... هل تكون نقطة تحول في سورية؟
هيثم محمد الكناني

مبدأ «المساءلة» بين الشرعية والمزايدة العلمانية
مصطفى محمد الحسناوي

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

مجزرة الحولة... هل تكون نقطة تحول في سورية؟

هيثم محمد الكناني(*)

عبر التاريخ القديم والحديث وجدت أمور أدت إلى تغيير مجرى الأحداث، والانتقال بها إلى مستوى وأفق مختلف بالكلية عمَّا كان قبلها؛ في صدر الإسلام كانت غزوة بدر علامة فارقة في تاريخ الأمة كلها، حيث فرضت الحرب على المسلمين فرضاً دون استعداد كاف منهم، ودون قصد منهم للقتال كما هو معلوم، وكان يمكن أن تكون هذه المعركة هي القاصمة للمسلمين، كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»(1)! لكن الله - عزَّ وجلَّ - شاء أن يكون النصر وبدء التمكين للدولة الفتية، وعندما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يفتح المسلمون مكة قامت بنو بكر حليفة قريش بالاعتداء على خزاعة حليفة رسول الله وأعانتهم قريش فنقضوا بذلك صلح الحديبية مع النبي ﷺ، وهو ما كان سبب فتح مكة.

وفي العصر الحديث أدى اغتيال ولي عهد النمسا الأرشيدوق فرانز فرديناند مع زوجته من قِبَل طالب صربي في أثناء زيارتهما لسراييفو، إلى بدء الحرب العالمية الأولى بعد إعلان الإمبراطورية النمساوية المجرية الحرب على مملكة صربيا في يوليو/ تموز ١٩١٤م. وكذلك أدى هجوم القوات اليابانية عام ١٩٤١م على قاعدة بيرل هاربر الأميركية إلى دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية فعلياً إلى جانب الحلفاء، الأمر الذي أدى إلى تغير ميزان القوى ومن ثم هزيمة دول المحور في نهاية المطاف.

وبالنسبة إلى الثورة السورية المباركة، فقد كانت حادثة أطفال درعا المشهورة نقطة فارقة في المشهد، وسبباً رئيساً في اندلاع الثورة، حيث إنها كانت شرارة انطلاقها بصورة فعلية في (١٣ ربيع الآخر ١٤٣٢هـ - ١٨ مارس/آذار ٢٠١١م)، بعد أن فشلت الدعوات لانطلاقها في فبراير/شباط من العام نفسه، وبعد أن لاقت الدعوة للتظاهر في ١٠ ربيع الآخر / ١٥ آذار) استجابة محدودة للغاية. وخلال أكثر من أربعة عشر شهراً، مرت الثورة بكثير من المحطات والعلامات المميزة التي أثَّرت فيها سلباً أو إيجاباً، ولعل مجزرة الحولة التي وقعت في (٤ رجب ١٤٣٣هـ - ٢٥ مايو/آيار ٢٠١٢م) وراح ضحيتها أكثر من مئة من الرجال والنساء والأطفال تُعدُّ واحدة من أبرز هذه المحطات.

(*) كاتب مصري لأم سورية، كان مقيماً في سورية حتى منتصف ٢٠١١/٧م.

(١) صحيح مسلم (٣ / ١٣٨٤) ١٧٦٣، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

هل تكون مجزرة الحولة نقطة تحول على الصعيد الدولي؟

تسارعت الأحداث بعد مجزرة الحولة، حيث دعت بعض الدول الغربية إلى عقد جلسة لمجلس الأمن، خرج على إثرها قرار رئاسي غير ملزم أدان المجزرة بشدة، وحمَّل النظام السوري مسؤولية قصف المناطق السكنية، لكنه لم يحمله المسؤولية المباشرة عن المجزرة بسبب الموقف الروسي. وبينما أدانت معظم دول العالم النظام السوري وحملته مسؤولية المذبحة، فقد توالى طرد السفراء والدبلوماسيين السوريين من العواصم الغربية وغيرها، وأدان مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة نظام الأسد، وتم التلويح بإحالة الملف لمحكمة الجنايات الدولية، وتكلم الرئيس الفرنسي الجديد هولاند بوضوح عن الخيار العسكري، وأبدى وزير الدفاع الأمريكي استعداد قواته لتنفيذ مهام عسكرية ضد النظام في حال طلب منها ذلك، رابطاً مثل هذه الخطوة بقرار من مجلس الأمن، وزادت وتيرة الاتصالات بين العواصم الغربية وموسكو في مسعى للتأثير عليها؛ لتغيير موقفها من نظام الأسد. وقد تباينت التصريحات الروسية على إثر ذلك - كما هي الحال من بداية الأزمة - ما بين مقترب من المواقف الغربية بالقول إن موسكو لا تدعم الأسد؛ لكنها تدعم الأمن وانتهاء العنف في سوريَة، إلى مبتعد عنها بالمطالبة بالكف عن محاولة إقصاء الأسد، مع التركيز على خطة عنان والتأكيد على أن موسكو لن تخضع لضغوط الغرب لتغيير موقفها، ومن جهتها عاودت أطياف المعارضة السورية الدعوة لاستخدام القوة من قبل الأمم المتحدة تحت الفصل السابع.

الكلام عن كون مجزرة الحولة يمثل تحولاً في مجريات الأمور، خاصة من قبل الأطراف الخارجية، بناء على المعطيات السابقة قد يداعب خيال كثيرين، لكنه قد لا يكون دقيقاً، فمن الواضح أن اللعبة الأممية ماضية كما هي، حيث يتم تبادل الأدوار بين الغرب من جهة وروسيا والصين من جهة أخرى؛ فالدول الغربية تبدو مرتاحة بالإيحاء بأن ما يكبل أياديها عن القيام بعمل مؤثر ضد الأسد إنما هو الفيتو المزدوج: الروسي - الصيني.

إن الأمر المؤكد الذي لا يغيب عن كل ذي لب أن قتلة المدنيين في العراق وأفغانستان واليمن والصومال وغيرها، والداعمين لقتل المدنيين في فلسطين لا يمكن أن يكون تحركهم الأخير بدوافع إنسانية، فالقوم لا يعرفون إلا لغة المصالح، وهذا أمر مشترك بين الجميع الغرب أو روسيا والصين، مع الإقرار بأن الرأي العام في الغرب قد يشكِّل عامل ضغط على حكوماته ممَّا يضطر هذه الحكومات لصبغ خطابها بشيء من الإنسانية، مع اتخاذ بعض الإجراءات غير الحاسمة.

إن ما قد يدفع إلى حصول مثل هذا التحول الجوهري، هو حصول تهديد حقيقي لمصالح أمريكا والغرب في المنطقة، وهذا التهديد لا يمثله بقاء الأسد واستمرار حكمه، فقد كان - كما كان أبوه من قبل - لاعباً إقليمياً مقبولاً، فبدءًا من تسليم الجولان عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، مروراً بدخول لبنان والوقوف إلى جانب القوى اليمينية الأقرب لأمريكا وإسرائيل ضد منظمة التحرير الفلسطينية والقوى اليسارية، إلى إذكاء حرب الخليج الأولى بالوقوف ضد العراق في حربه مع إيران، إلى القتال إلى جانب القوات الأمريكية ضد العراق بعد غزو الكويت، إلى مساهمة بشار الأسد فيما سمي بالحرب على الإرهاب ونيل شهادات حسن السلوك من المخابرات الأمريكية في عهد بوش الابن، إلى قيام ساركوزي بإعادته إلى الحظيرة الدولية بعد محاولة عزله إثر اغتيال الحريري، فضلاً عن كون النظام الأسدي لم يشكل طوال ٤٠ سنة أي تهديد للكيان الصهيوني، وهذه نقطة شديدة الأهمية والحساسية، حيث كانت الحدود بينهما أهدأ حدود بين كل دول المواجهة، بما فيها الحدود مع مصر والأردن التي شهدت بعض الحوادث التي تستهدف الإسرائيليين بخلاف الجبهة السورية، لدرجة أن حكم الأسد الأب والابن - مثلاً - لم يسعَ يوماً لإنشاء منظمة أو جماعة مقاومة لتحرير الجولان، ولو من باب ذرِّ الرماد في العيون، فكل هذا وغيره يدلل بقوة على أن وجود هذا النظام واستمراره لا يشكل أي تهديد لمصالح الغرب.

وكل ما كان يُقال قديماً من رغبة الغرب في تغيير سلوك بشار الأسد فيما يتعلق بالعلاقة مع إيران وحزب الله وحماس، فهو يدخل ضمن لعبة الصراع على النفوذ في المنطقة بين أمريكا وإيران، وهي لعبة أبعد ما تكون عن الصراع الحقيقي الذي يسعى كل طرف فيه للقضاء على خصمه، لكنها أشبه ما تكون بلعبة الورق حيث يسعى كل فريق لتحصيل أكبر المكاسب على حساب الآخر، دون سعي لإزاحته كلياً عن المشهد وإلا لانتهت اللعبة، خاصة أن وجود إيران بسياساتها المعروفة يمثل مصلحة أكيدة بالنسبة إلى أمريكا.

إن الخطر الحقيقي الذي يهدد مصالح الغرب وأمريكا في المنطقة - بل على امتداد رقعة العالم الإسلامي - هو الإسلام السُّنِّي، وهو كذلك يمثل تحدياً كبيراً بالنسبة إلى روسيا التي لم تنسَ ما لحق بها أيام الاتحاد السوفييتي من هزيمة منكرة

في أفغانستان، كما أن المقاتلين الشيشان يسببون لها إشكالات كبيرة في خاصرتها، بالإضافة إلى خوفها من صحوة الشعوب المسلمة في الجمهوريات المجاورة لها، أو داخل أراضيها. وقد كان من أهم عوامل كبح هذا المارد السُّنِّي وجود المحور الشيعي الممتد من إيران عبر العراق إلى سورية انتهاء بلبنان، وإلا فالجميع يعلم أن البندقية الحقيقية التي وقفت في وجه الغرب في العراق وأفغانستان وفلسطين، هي بندقية سنية، بل إن كل حركات المقاومة الإسلامية لكل أنواع السيطرة من قبل الغرب أو روسيا هي حركات سنية في الجملة، أما الاستثناء المتمثل في حزب الله فقد أثبتت الأيام أن بندقيته مستأجرة، وأنها ورقة ليس أكثر ضمن أوراق اللاعب الإيراني.

لقد مثل المشروع الإيراني الصاعد بقوة خطراً حقيقياً على العالم الإسلامي السُّنِّي، فخلال ثلاثين عاماً منذ الثورة الخمينية عام ١٩٧٩م انتقلت إيران من مرحلة الدفاع والانكماش خلال الحرب مع العراق، إلى مرحلة الاندفاع والتمدد خارج الحدود، فصارت لها الكلمة العليا في العراق بعد الغزو الأمريكي عبر عملائها، ووثقت تحالفها مع نظام الأسد خاصة في عهد الابن بشار الذي بدا تابعاً لإيران أكثر من كونه نداً لها كما كانت الحال أيام أبيه، انتهاء بلبنان حيث صار لحزب الله الكلمة العليا نتيجة كونه الفصيل الوحيد المرخص له بامتلاك السلاح خارج سلطان الدولة، مع كونه سلاحاً نوعياً من الخفيف إلى الثقيل، وكذلك ببسط سيطرته على حكومة نجيب ميقاتي وتحكمه في كثير من مفاصل الأمن داخل الدولة، وتغلغل أتباعه داخل مؤسسات الجيش اللبناني. هذا بالإضافة إلى تقوية أتباع إيران في البحرين وما أحدثوه من قلاقل، إلى الدعم الكبير للحوثيين في اليمن حيث صارت لهم مناطق نفوذ شبه مستقلة عن سلطة الدولة، مع استمرار الدعم لشيعة اليمن الذين أسسوا عدداً من الأحزاب فيه، ناهيك عن دعم إيران للحراك الجنوبي المنادي بالانفصال؛ وأما في بقية البلاد العربية فهناك الخلايا النائمة في شرق المملكة وفي الكويت، بالإضافة إلى الناشطين العلنيين فيهما، وهناك المحاولات الحثيثة لنشر التشيع في مصر والسودان والمغرب العربي.

وإذا أضفنا لما سبق الدور الخبيث الذي لعبته إيران في كل من أفغانستان والعراق، وأدى إلى سقوط هاتين الدولتين في يد أمريكا وحلفائها، ظهر لنا بجلاء أهمية استمرار الدور الإيراني بالنسبة إلى أمريكا وحلفائها وبالنسبة إلى روسيا على حدٍّ سواء، لما فيه من إضعاف وإشغال للعالم السُّنِّي، وكف لما يمثله قيامه ونهوضه من خطر على مصالح الكبار في عالم اليوم.

بناء على ما سبق فإن ما قد يدفع الغرب للتدخل ليس ارتكاب الأسد للمجازر ولا قصفه للمدن أو استمراره في قتل الشعب السوري، ولا أي شيء من الأعمال البربرية التي يقترفها، طالما كانت هذه الأعمال تسير بوتيرتها المعهودة من أول الثورة بما لا يؤلب الرأي العام في الغرب على سياسات حكوماته، لكن ما قد يدفع الغرب للتدخل تدخلاً حاسماً هو رجحان كفة الثوار على الأرض وقرب سقوط الطاغية، فعندها ستسارع الدول الغربية لإيجاد مخرج من مأزق احتمال وصول الثوار الحقيقيين إلى قلب دمشق والإطاحة بالأسد واستلام زمام الأمور دون أن يكون لأحد يد أو منَّة عليهم، وهو المخرج الذي يسعى الجميع لإيجاده من خلال خطة عنان على الطريقة اليمنية ولكن دون وجه عجلة حتى الآن.

إن الغرب يدرك أن نظام الأسد قد انتهى، لكن حال التوازن في القوة كما هي على الأرض اليوم تعني في محصلتها النهائية إنهاك كلا الطرفين، خاصة جيش النظام الذي بدا عاجزاً طوال أكثر من سنة عن قمع الحراك الشعبي السلمي، ثم هو يبدو اليوم أكثر عجزاً عن مجاراة حرب العصابات التي يشنها عليه الجيش الحر وتكلفه يومياً خسائر كبيرة في العدة والعتاد، وهذا في المحصلة يعني تدمير الجيش الذي هو ملك للشعب والوطن تدميراً بطيئاً، وهو ما تحبذه واشنطن وتل أبيب بكل تأكيد؛ وإذا كان ما تشير إليه بعض المصادر من وعود أمريكية لروسيا بعدم المساس بامتيازها في تسليح الجيش السوري بعد الأسد، فيبدو أن موسكو لن تمانع في استمرار هذا الاستنزاف للجيش النظامي.

إن الأسابيع الماضية شهدت نمواً مطرداً في قدرات الجيش السوري الحر على إلحاق الأذى والخسائر بالجيش الأسدي، ولا شك أن استمرار هذا الوضع على المدى الطويل سيؤدي إلى إضعاف الجيش النظامي وإلى تدمير كثير من مقوماته، وهذا بلا شك يمثل خدمة كبيرة لإسرائيل التي ليس من مصلحتها أن تنتقل الترسانة العسكرية السورية – التقليدية والكيماوية – من قبضة هذا النظام الذي كان أميناً على حدودها طوال ٤٠ سنة إلى نظام جديد يختاره الشعب السوري ويكون تحرير الأرض من ضمن أولياته، ولا شك أن إضعاف الجيش مع فقدان الأسد السيطرة على كثير من المناطق السورية يؤدي إلى إضعافه، وإضعاف المحور الإيراني مما يعطي الغرب ميزة في المفاوضات الجارية بشأن الملف النووي وكذا في تقسيم النفوذ في المنطقة، وما دام الأمر لم يخرج عن السيطرة بحيث يفقد الأسد سلطته لصالح الشعب السوري بقياداته الميدانية من عسكريين وثوار مدنيين، فإن نقطة التحول الجوهري في الموقف الغربي ستبقى بعيدة، ولن يكون لمجزرة الحولة دور في ذلك.

مجزرة الحولة خطوة على طريق التحرير:

هذا هو الوصف الصحيح لنتائج مجزرة الحولة، فإن هذه الدماء الزكية التي سالت على أرض الحولة، ومناظر الأجساد الطرية لأطفال في عمر الزهور وقد نهشتها ذئاب ووحوش بشرية، قد هزت وجدان الناس في المشرق والمغرب، وما يعنينا في المقام الأول هو أثر هذه المجزرة على الداخل السوري؛ أما بالنسبة إلى الثوار سواء أكان منهم من يخرج للتظاهر أم من حمل السلاح وانضم للجيش الحر، فلا شك أن هذه المجزرة قد زادت من تصميمهم على اقتلاع هذا النظام من جذوره، ولا شك أيضاً أن شيئاً لم يعد بإمكانه أن يثني عزيمة هؤلاء الرجال الأحرار ومن معهم من الحرائر عن المضي قدماً حتى نيل إحدى الحسنيين، وكلهم ثقة بالله – عزَّ وجلَّ – أنه لن يخذلهم، وإن تأخر النصر فإنما هو لحكمة يعلمها وتظهر تجلياتها في تمييز الصفوف، وتنقيتها من الشوائب، وفي إعادة اللحمة لمجتمع اكتشف أبناؤه فجأة أنهم كانوا يعيشون في عزلة نفسية عن بعضهم بعضاً، فأعادوا من خلال الثورة اكتشاف ذواتهم واكتشاف شركائهم في الوطن.

لكن الأثر الأكبر لهذه المجزرة كان في تحرك قِطَاع واسع من الجمهور الذي ما زال صامتاً منذ بدء الثورة، إمَّا لخوف من المشاركة، وإمَّا لخوف من المستقبل وخياراته المجهولة المحفوفة بالمخاطر، وإمَّا لقناعة بأكاذيب النظام نتيجة الاكتفاء به كمصدر وحيد للأخبار والمعلومات، أو نتيجة المكابرة وعدم الرغبة في معرفة الحقيقة أملاً في عودة الاستقرار الذي كانوا ينعمون به؛ وإن كان مغمساً بالذل أو الظلم على قطاعات كبيرة من المجتمع.

مجزرة الحولة جعلت نسبة كبيرة من تجار دمشق يدخلون في إضراب عن فتح المحلات والأسواق، وهذا مؤشر خطير جداً بالنسبة إلى النظام، فرأس المال بصفة عامة جبان، وتجار دمشق بالذات يحسبون الأمور جيداً جداً ويقدرون احتمالات الربح والخسارة إلى أقصى درجة، ومعنى دخولهم على خط الثورة أنهم قد أيقنوا أن هذا النظام خاسر، وأنهم لم يعودوا مستعدين للسكوت عن إجرامه.

النقطة الأخرى المهمة هي أن المجزرة قد حركت شوارع حلب في كثير من المناطق بأعداد غفيرة لم تشهدها المدينة من قبل، واقتربت الحشود من ساحة الجابري الشهيرة ولم يحل بينهم وبينها سوى رصاص الأمن الذي أبعدهم عنها قبل الوصول إليها بأمتار قليلة.

وبهذا نستطيع أن نجزم أن مجزرة الحولة تُعدُّ بما خلفته من أثر خطوة مهمة تخطوها ثورة المستحيل في سورية على طريق الحرية والانعتاق وإعادة المجد لحاضرة الشام وعاصمة الأمويين، بعد طول غياب وقهر وطمس للهوية العربية المسلمة الأصيلة.

وهنا قد يثور سؤال: كيف لهذا النظام أن يرتكب مثل هذا الخطأ الفادح؟

ولا شك أن هناك كثيراً من الأجوبة الممكنة والواقعية عن هذا السؤال، والتي يمكن أن تكون كلها تحمل قدراً كبيراً من الصحة، لكن المؤكد أن كل الأجوبة تتقاطع مع حقيقتين رئيستين؛ أولاهما غباء هذا النظام منقطع النظير، حيث إن فرص نجاته كانت ممدودة أمامه من اليوم الأول لحادثة الأطفال في درعا لو أنه أرضى الأهالي ولم تأخذه العزة بالإثم، لكنه ضيعها كما ضيع فرصاً أخرى خلال الأشهر الماضية، والحقيقة الثانية هي مصداق قوله – تعالى –: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [**الأنفال** : ٣٠]، فحقدهم الطائفي وعطشهم للدماء أعماهم عمَّا يمكن أن تؤول إليه الأمور.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾

[**يوسف** : ٢١].

دولة الباطنية المتحدة

د. يوسف بن صالح الصغير(*)

إن ما يجري في سورية هو أحد الفصول الدامية في التاريخ الإسلامي، وهو نتيجة مباشرة لتمييع القضايا الأساسية، وعدم الاهتمام بالأسس التي تقوم عليها الأمم، والخلط بين حقوق الرعية كافة في العيش الكريم والرعاية والعدالة مع واجب الحماية، وإدارة الدولة التي تنحصر فيمن ينتمي للأمة وكلما كان الانتماء تاماً كان أفضل وأكمل مع عدم التفريط في الأصل وهو الدين. فعناصر الانتماء متعددة ولكنها غير متساوية في الأهمية، فهناك الدين واللغة والعنصر والموطن، فالدين أساس وما عداه تكميل فقد أبعد الله أبا لهب، وقرَّب سلمان، ونحن في تاريخنا الإسلامي أُتينا عندما لم نحافظ على التعايش مع التمايز، فهناك في المجتمع النبوي وجد المؤمنون والكافرون، والمسلمون والمنافقون وأهل الذمة من اليهود والنصارى، ووجد هناك المهاجرون والأنصار وبقية العرب مع الموالي والأرقاء. يجتمعون كلهم في السوق وبعضهم في المسجد وبعضهم الآخر في الجهاد. أمَّا الولايات العامة فشروطها أدق وأهمها سلامة الدين والقدرة. وللأسف فقد قاد الصراع على السلطة عبر التاريخ إلى تغليب القدرة والتغافل عن سلامة الدين، ومن هنا تسلل أمثال الحجاج؛ بل وانحدرنا إلى أمثال أبي مسلم الخراساني والأفشين وهذا في الجانب السياسي والعسكري أمَّا في الجانب الديني فالأمر لا يختلف كثيراً فسلامة الدين تراجعت أمام نسب مدَّعى أو حتى أمام تسنُّك مصطنع مخالف للشرع، وما أكثر من يعدُّه بعضهم مرجعاً في الدين وبضاعته لا تتعدى السبُّ واللعن؛ بل والقذف فإجادتها كافية للسيادة مع بعض الإضافات البسيطة من عمامة ولحية.

إن المشهد الحالي في بلاد الشام بالغ التعقيد، وحتى نفهمه سنُخرِج منه الصراع الدولي على النفوذ في المنطقة، وهاجس أمن إسرائيل والصراع الإقليمي حول مشروع الهلال الشيعي، ونركِّز على أطراف الصراع المحلي في الشام وهم السُّنَّة والشيعة الاثني عشرية من الرافضة والنصيرية. أمَّا النصارى والدروز فهم أطراف هامشية مرجِّحة وليست أساسية.

أمَّا السُّنَّة فهم يخوضون صراعاً من أجل الحرية والانعتاق يصاحبه مظاهر بروز الهوية الحقيقية وعودة الدين إلى الواجهة ومِن ثَمَّ تمايزهم عن المكونات الأخرى؛ ولذا حذَّر وزير الخارجية الروسي من قيام دولة سنية.

وأمَّا الشيعة فهم كانوا إلى عهد قريب قبل الأحداث يعيشون عصرهم الذهبي في الشام، ففي لبنان تكونت حكومة حزب الله، أمَّا في سورية فقد كان نشاطهم مركزاً على نشر مذهبهم بين السنة تحت حماية الدولة النصيرية؛ بل تعدَّى نشاطهم الى النصيرية ومحاولة جذبهم من التشيع الباطني إلى التشيع الظاهر. إنهم يعيشون حالياً مرحلة صدمة ويحاولون الإبقاء على مكاسبهم المرتبطة برعاية وبقاء الدولة الحالية ولذا سيدعمون الدولة بقدر ما يستطيعون وقد ينقلبون عليها في المرحلة الأخيرة فهي ليست دولتهم.

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة – جامعة الملك سعود – الرياض.

أمَّا الطائفة النصيرية فهي تعيش مرحلة صعبة لا تقتصر على نهاية عصر التسلط والظهور؛ بل بداية انكفاء وتقوقع وصراع من أجل البقاء، وهنا يجدر بنا أن نعرف المزيد عن هذه الطائفة، ولا أكتمكم أن هناك أموراً سهلة مثل تواجدهم وزعمائهم المشهورين، ولكن المشكلة في حقيقة عقائدهم التي تختفي خلف أبواب من السرية والتَّقيَّة، وقد فرحتُ كثيراً بموقع عنوانه «موقع العقيدة العلوية النصيرية» وبالطبع لن تجد ما يفيدك فهو مدائح وقصائد وما يسمونه ردود على بعض علمائنا الأفاضل.

أماكن تواجدهم الحالية

يتواجد النصيريون في الجبال والسهول المحاذية للساحل السوري ومركزهم هو ما يعرف بجبال النصيرية أو جبال العلويين، وقد انتشروا مؤخراً في المدن السورية المجاورة لهم مثل حمص التي حاولوا جاهدين السيطرة عليها. ممَّا يفسر لنا إصرارهم على كسر شوكة الثورة في حمص؛ لأنهم يعدُّونها عاصمتهم الثانية، كما توجد أقلية نصيرية في محافظة حلب وبعض قرى الجولان، وبعد سيطرة النصيرية على الحكم في سورية؛ حصل بعض التعديل في توزيعهم السكاني؛ إذ إن معظم قياداتهم السياسية والعسكرية انتقلت مع عائلاتها وأتباعها إلى دمشق والمدن الكبرى. ويقدر نسبة الشيعة النصيرية في التعداد العام لسكان سورية بنحو ١٠ ٪ أي ما يقارب من مليون وسبعمئة ألف نصيري.

وفي لبنان يتواجد النصيريون في سهل عكَّار شمال لبنان وضواحي مدينة طرابلس خاصة جبل بعل محسن. كما يوجد عدد كبير من الشيعة النصيرية في غرب الأناضول في لواء إسكندرون. ويُقدر عدد النصيرية في دولة تركيا بنحو ٢ مليون نسمة. وهناك عدد من الشيعة النصيرية في فارس وتركستان الروسية وكردستان ويُعرفون باسم العلي إلهية، أمَّا في فلسطين فيوجد حوالي ٢٠٠٠ نصيري يسكنون منطقة الجليل، وفي العراق يوجد عدد قليل جداً في منطقة تسمى «عانة»، وهي قرب الحدود السورية، وهذه المنطقة كانت في القديم إحدى أهم معاقل شيوخ الطائفة النصيرية.

أهم الشخصيات

- مؤسس هذه الفرقة أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري (ت ٢٧٠هـ) عاصر ثلاثة من أئمة الشيعة وهم علي الهادي (العاشر) والحسن العسكري (الحادي عشر) والإمام الغائب (الثاني عشر). زعم أنه الباب إلى الإمام الحسن العسكري، وأنه وارث علمه، والحجة والمرجع للشيعة من بعده، وأن صفة المرجعية والبابية بقيت معه بعد غيبة الإمام المهدي.
- خلفه على رئاسة الطائفة محمد بن جندب.
- ثم أبو محمد عبد الله بن محمد الجنان الجنبلاني ٢٣٥ ـ ٢٨٧ هـ من جنبلا بفارس.
- حسين بن علي بن الحسين بن حمدان الخصيبي : المولود سنة ٢٦٠ هـ مصري الأصل جاء مع أستاذه عبد الله ابن محمد الجنبلاني من مصر إلى جنبلا، وخلفه في رئاسة الطائفة، وعاش في كنف الدولة الحمدانية بحلب كما أنشأ للنصيرية مركزين أولهما في حلب ورئيسه محمد علي الجلي، والآخر في بغداد ورئيسه علي الجسري، وقد توفي في حلب وقبره معروف بها.
- انقرض مركز بغداد بعد حملة هولاكو عليها.
- انتقل مركز حلب إلى اللاذقية وصار رئيسه أبو سعد الميمون سرور بن قاسم الطبراني ٣٥٨ ـ ٤٢٧ هـ.

ممَّا سبق نستنتج ما يلي:

إن هذه الطائفة في الأصل شيعة إمامية اثني عشرية ادَّعى زعيمهم أنه الباب أو الواسطه بين الإمام الغائب والشيعة، وأنه وارث علم الإمام الحادي عشر. ببساطة جماعة اخترعوا وجود الإمام الثاني عشر واختلفوا على الواسطة ومن الغرائب أنهم

اتفقوا على النص في الإمام، وأنه من نسل الحسن العسكري، واتفقوا على أن الواسطة من غير آل البيت، واختلفوا على شخصه ويبدو لي أنهم لم يجدوا من آل البيت في ذلك الوقت من يوافقهم على ادِّعاء وجود ذريه للإمام الحادي عشر.

سعة انتشار الطائفة الحالي يدل على أنه كان انتشارهم أوسع في السابق، وإذا علمنا أنه بواقعهم الحالي وتصريحهم أنهم لا يدعون غيرهم، فهذا معناه أن انتشارهم كان له أسباب سياسية أو بصورة أخرى انتشروا برعاية سلطة أو دولة أو من جانب آخر هل كانت البيئة التي نمَوا فيها بيئة شيعية أم سنية عششت فيها الصوفية الغالية؟ كله ممكن فمن يقبل بوحدة الوجود والاتحاد والحلول وإسقاط الشعائر الظاهرة وتقديس المشائخ؛ لا يبعد أن يكون ضحية لكل أفاك أثيم. تدعي النصيرية أن دولة بني بويه نصيرية، وأنه كذلك الدولة الحمدانية نصيرية، وأن الشيعة الإمامية نمت تحت رعاية الدولتين، وأن أمهات كتب الإمامية أُلفت أيام البويهيين، وهنا ملاحظة وهي أن التشيع الظاهر انتشر تحت سلطة الدول الباطنية، فهذه الدولة العبيدية التي أقامها الإسماعيلية رعت اعتبار المذهب الجعفري مذهباً خامساً، وكذلك فعل البويهيون نفس الشيء وهو أمر طبيعي، فالمذهب الباطني لا يمكن تسويقه إلَّا بصورة سرية وفردية، وأمَّا العوام فتبعيتهم لأصحاب الشخصيات القيادية الآسرة، ومِن ثمَّ كان التشيع أو التصوف الغالي مرحلة أولى لنشر العقائد الباطنية عن طريق الغلو بالأشخاص؛ ولذا فإن انتشارهم كان نتيجة لمراحل تفكك سياسي وعقدي عصفت بالأمة سيطرت فيها دول باطنية لفترات طويلة، ولكن بقاءهم إلى الوقت الحالي هو نتيجة تقصير من الدول السُّنية وإهمال الدعاة في استكمال دورهم في استنقاذ عوامهم من الاستعباد والرضى بمجرد إبعادهم عن المراكز الحضرية، والسماح لهم بتكوين تجمعات في الجبال، ففي الشام نجد أن الشيعة والدروز والنصيرية الموجودون هم بقايا لجأت الى مناطق نائية ووعرة وأهملت على مرِّ السنين.

عقائدهم

إن حرص النصيرية على سرية معتقداتهم وقصرها على شيوخ الطائفة يدل على مدى الانحراف عن ظاهر الإيمان الذي يدَّعوه وانهم هم المؤمنون حقاً، ومن هنا أكتفي بما يمكن استنتاجه من خلال المناظرة بين العلوي الشيعي والعلوي النصيري التي انتهت كعادة القوم بالسبِّ والشتم والقذف والذي يهمنا هو أن التقية موجودة لدى الطرفين، ولكنها لدى الشيعة أعمق ومتفقون على الغلو في علي وفاطمة، وخلافهم فلسفي ويلاحظ اتهام النصيري للشيعة بالتخلي عن الحسين وآل بيته أمَّا بغض أبي بكر وعمر وابن تيمية فهو مشترك؛ ولكنهم يختلفون في عبدالرحمن بن ملجم قاتل – علي رضي الله عنه – فالشيعي يلعنه والنصيري يستعمل التقية ويتوقف فيه ممَّا يثبت تقديسهم له؛ لأنه خلَّصه من الناسوت واعترف النصيري بتقديم الخمر في مزاراتهم وأن النهي للاجتناب وليس للحرمة! وبرر عدم وجود كتب للطائفة بتبريرين متناقضين أحدهما اعتمادهم على نقل الصدور، والآخر إحراق كتبهم من قبل العثمانيين، واتهم الشيعة بمحاولة دعوة النصيرية وأن تصرفاتهم مع السُّنَّة ستجرُّ المصائب على النصيرية، وكان يكرر تعرضهم للمجازر عبر التاريخ وخاصة في حلب أيام السلطان العثماني سليم الأول، ويبدو قلقه من المستقبل واضحاً للعيان. استعمل التقية في محاولة نفي تأليه علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – واتهم الشيعة بذلك، وفي ختام المناظرة أترككم مع النص التالي مع الاعتذار للقارئ الكريم..

العلوي النصيري للعلوي الشيعي:

بصراحة أنا لو كنت مكانك لبكيت على نفسي. طبعاً من يأخذ بجواز التمتع بالرضيعة لا يستغرب عنه شيء، وهنا سأفرد مقالات مضحكة لتشبع ضحكاً عليها أيها الغبي ردَّاً عليك وعلى أمثالك، وما كتبتموه عن تهمة اللواطة لسيدي أبي شعيب رضوان الله عليه.

– الخميني يبيح وطء الزوجة في الدبر: يقول الخميني في تحرير الوسيلة ص٢٤١ مسألة رقم ١١ (المشهور الأقوى جواز وطء الزوجة دبراً على كراهية شديدة)!

– إعارة الفروج.

روى الطوسي عن محمدعن أبي جعفر قال: قلت الرجل يحل لأخيه فرج امرأته. قال: نعم. لا بأس به. له ما أحل منها (كتاب

الاستبصار) طبعاً نحن العلويين اتهمنا بذلك زوراً وبهتاناً.

– حتى مجامعة الرضيعة جائزة عند الخميني الذي يقول:

« وأمَّا سائر الاستمتاعات كاللمس بشهوة والضم والتفخيذ فلا بأس بها حتى في الرضيعة» (تحرير الوسيلة ٢١٦/٢).

والخوئي يبيح لعب الرجل بعورة الرجل، والمرأة بعورة المرأة من باب المزاح والمداعبة!

سؤال ٧٨٤: هل يجوز لمس العورة من وراء الثياب من الرجل لعورة رجل آخر، ومن المرأة لعورة أخرى؛ لمجرد اللعب والمزاح، مع فرض عدم إثارة الشهوة؟

ما هذا يا هذا؟ فسِّر لنا.

الخوئي: لا يحرم في الفرض، والله العالم. المصدر: صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات ج٣ (مسائل في الستر والنظر والعلاقات).

ماذا تقول في ذلك أتتهم السيد الخامنئي والسيد الخوئي؟ أنا من جهتي لا أتهمهم وأستطيع تعليل ما قال هل تستطيع أنت؟ انتهى.

وأخيراً فإذا كان التسلط النصيري لم يكن ممكناً بدون غطاء من السُّنَّة المنتسبين لحزب البعث، فقد حكم الأسد الأب منذ ١٩٦٦م وزيراً للدفاع مستتراً خلف رئيس سُّني (نور الدين الأتاسي) وعندما تمكَّن قام بما يسمى الحركة التصحيحية ونصب نفسه رئيساً للوزراء، ثم رئيساً للدولة، وبدأ بناء دولة الطائفة وتغلغل النصيرية في كل مفاصل السلطة خلف ستار شخصيات منسوبة للسُّنَّة مسلوبة الإرادة منهم مصطفى طلاس وزير الدفاع المشغول بالفن وتنسيق الزهور، وعبد الحليم خدام الذي خدم طويلاً وزيراً للخارجية ونائباً للرئيس وانتهى به المطاف هارباً خارج البلاد لا يثق به أحد، وحالياً نحن أمام فاروق الشرع نائب الرئيس الفخري. إنهم أركان لنظام طائفة النصيرية ولا ينتهي العجب فالطامة الكبرى ليست مجموعة من العلمانيين الذين بدؤوا بخدمة حزب البعث وانتهى بهم المطاف خدماً للباطنية، بل هي مجموعة ممَّن لبسوا عمائم علماء أهل السُّنَّة وخدموا بكل إخلاص؛ حرب الطائفة ضد الشعب ولنسمي مثلاً المفتي (أحمد حسون) والشيخ (محمد سعيد رمضان البوطي) فنظرة سريعة تكفي لمعرفة السبب الحقيقي لثبات مواقف بعضهم مع النظام. إنها عقدة ابن تيمية والوهابية والسلفية ومحاولة الحفاظ على جناب التصوف الغالي وهنا أؤكد على أن الباطنية بأنواعها وطوائفها المختلفة في النهاية ملة واحدة؛ ولذا لا تستغرب اندماج الصوفي الغالي مع كل طائفي وتحول الصوفي الساذج الى شيعي أمر سهل فمِنْ غلو في آل البيت إلى بغض شديد ليزيد ثم بني أمية ثم الصحابة وآخر حقنة هي لعن الشيخين؛ ولذا أرى أن تطهير الشام من رجس الباطنيين يمر عبر نشر مبادئ الإسلام الصافية، والأخذ من المنبع وعدم الالتفات إلى الخرافات والأباطيل التي تراكمت عبر العصور، ونعود الى ميزان سلامة الديانة والقدرة من جديد ولا يصح أن يُقتل الموحدون في الميادين ويتكلم باسمهم العلماني والنصراني وإذا رفعنا شعار «ما لنا غيرك يا أالله» فلا حاجة لنا بواسطة غيرنا بيننا وبين القوى الخارجية، أين القوي سليم الدين؟ ابحثوا عنه وارفعوه عالياً أمام العالم الذي ينتظر أن نقدم له رجالاً ليتكلموا باسم الثورة حتى يدعمها. ادفعوا بالسياسي العاقل سليم الديانة الذي انقاد للثورة، فالنصر قريب وقطف الثمرة قبل أن تسقط في الحوض الآسن هو التحدي في هذه المرحلة.

التدافع الدولي نحو «القرن الإفريقي»...

د. نجلاء مرعي(*)

أسهمت طبيعة التفاعلات الداخلية والخارجية المرتبطة بالتطور الجيواستراتيجي لمنطقة القرن الإفريقي في إعادة صياغتها وتركيبها أكثر من مرة؛ فالحروب الأهلية والصراعات العنيفة على السلطة، وانهيار مشروع الدولة الوطنية، والكوارث الطبيعية، والتنافس الدولي على الثروة والنفوذ أسهمت في صياغة وتشكيل هذا الإقليم المضطرب.

وقد أعيدت صياغة خريطة منطقة القرن الإفريقي مرة أخرى بعد انتهاء الحرب الباردة لتعكس حقيقة سياسات الهيمنة والنفوذ للقوى الأجنبية الفعالة في المنطقة، وقد تمَّ في هذا السياق صك مفهوم القرن الإفريقي الكبير؛ ليعبر عن المصالح السياسية والاقتصادية والأمنية والإستراتيجية للدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية في شمال شرق إفريقيا، بالإضافة إلى منطقة البحيرات العظمى. وعقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م دفعت الاعتبارات الأمنية ببعض أدبيات التفكير الإستراتيجي الغربية إلى التوسع في استخدام مفهوم القرن الإفريقي ليشمل اليمن.

الواقع إن التنافس بين القوى الدولية في منطقة القرن الإفريقي انتقل إلى حلقة جديدة وهي الصراع فيما بين هذه القوى عليها، ذلك أنه ينطوي على عنصر النفط وأولوية تأمين الإمدادات من الطاقة والتي تُعدُّ واحداً من الاعتبارات الرئيسة التي تصوغ بها الدول سياساتها وعلاقاتها الخارجية. وفي ظل التطورات المتلاحقة على أطراف النظام الإقليمي العربي في امتداداته الإفريقية والتي تبشر بإعادة رسم خريطة التوازن الإقليمي في المنطقة، وربما يكون ذلك في غير مصلحة النظام الإقليمي العربي وينذر بوجود تهديدات خطيرة لمنظومة الأمن القومي العربي، وهنا يطرح سؤال نفسه ألا وهو: ما طبيعة التنافس الدولي في منطقة القرن الإفريقي؟ وما موقع العرب من هذا الاستقطاب المحموم عليها؟ وما تأثير التدافع الدولي نحو المنطقة على منظومة الأمن القومي العربي؟ وهو ما تحاول المقالة الإجابة عنه من خلال المحاور التالية:

(*) باحثة متخصصة في العلوم السياسية.

أولاً: "القرن الإفريقي" بين مصالح القوى الإقليمية والاهتمام العالمي:

تتسم منطقة القرن الإفريقي بخصائص ثقافية واقتصادية وسياسية تسببت في خلق العديد من الأزمات التي عادة ما تكون نتاجاً لتشابكات العوامل الداخلية والخارجية، ومن أبرزها التعددية الثقافية، وحداثة الدولة الإفريقية، وسوء إدارة الدولة[١].

وتتسم مصالح القوى الإقليمية في المنطقة بالتشابك والتعقد بين الأطراف المكونة للإقليم من ناحية، والقوى الخارجية سواء أكانت إقليمية أم دولية من ناحية أخرى، ولكنها تتجه في مجملها نحو تحفيز الصراع واستمراره، خاصة في الصومال والسودان؛ بل وتعدُّ المحدد الرئيس لمستقبل التفاعلات في الإقليم[٢].

عوامل ومتغيرات استمرار اهتمام القوى الكبرى في النظام العالمي بالقرن الإفريقي:

وثمة مجموعة من العوامل والمتغيرات كانت سبباً في استمرار اهتمام القوى الكبرى في النظام العالمي بالقرن الإفريقي، تتمثل في:

١ الموقع الجغرافي وأثره على التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمنطقة، حيث يمثل القرن الإفريقي ممراً وبوابة للبحر الأحمر وخليج عدن، بالإضافة إلى الخليج العربي والمحيط الهندي، الأمر الذي جعله محطَّ اهتمام القوى الدولية المسيطرة.

٢ قرب القرن الإفريقي من مصادر النفط في الخليج العربي، وهو ما دفع الولايات المتحدة والدول الغربية إلى محاولة الدفاع عن هذه المصادر، وتأمين الوصول إليها، ومن أبرز الأدوات التي استخدمت في ذلك إقامة القواعد العسكرية، وتبادل المعلومات الاستخباراتية مع دول المنطقة.

٣ الأهمية الاقتصادية للقرن الإفريقي، حيث إن اكتشاف النفط والذهب والغاز الطبيعي في المنطقة قد أضاف بُعداً جديداً للتنافس الدولي، ودخول قوى أخرى جديدة فاعلة بجانب القوى الاستعمارية السابقة مثل الولايات المتحدة والصين والهند والبرازيل.

٤ تأثيرات الحرب الباردة وما بعدها، فقد شكَّل التنافس بين القوى الدولية الكبرى على القرن الإفريقي طبيعة النظم الأمنية والسياسة السائدة في الإقليم، فالتأثيرات الإيديولوجية للحرب الباردة أدت إلى تأسيس نظم سياسية متباينة، بما في ذلك نظم الاستبداد العسكرية، كما تمت إقامة قواعد عسكرية أجنبية، وشبكات اتصال استخبارتية في المنطقة[٣].

وقد حولت الأهمية الإستراتيجية لمنطقة القرن الإفريقي إلى منطقة نفوذ غربي جعلتها دائماً محل تنافس بين الدول الكبرى في مرحلة الحرب الباردة. ومع بداية النظام العالمي الجديد في التسعينيات من القرن الماضي، تصاعدت حدة هذه المنافسة وتعددت أطرافها، ولكنها ظلت ملعباً للدول الكبرى، وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة. حيث سعت القوى الكبرى المسيطرة في النظام الدولي إلى التدافع عليه من أجل كسب مناطق نفوذ لها هناك، إمَّا سلماً من خلال العلاقات الوثيقة مع نظم الحكم في المنطقة، وإمَّا كرهاً من خلال استخدام القوة المادية.

ثانياً: التدافع الدولي نحو "القرن الإفريقي"... وحلقة جديد من الصراع:

الواقع أن التنافس بين القوى الدولية في منطقة القرن الإفريقي انتقل إلى حلقة جديدة وهي الصراع فيما بين هذه القوى عليها، حيث يبدو التنافس الصيني- الأمريكي في القرن الإفريقي الأصعب والأكثر شراسة، ذلك أنه ينطوي على عنصر النفط الذي يُعدُّ أولوية لدى الطرفين ويؤثر بشكل أساسي ورئيس على الأمن القومي لهما، كل من زاوية أوضاعه الداخلية الخاصة أو مكانته ومكانة اقتصاده. إذ تتطلع الولايات المتحدة إلى المزيد من الاعتماد على هذا النفط ممَّا يجعلها تسعى للسيطرة على المخزون العالمي منه، وهذا ما دعاها إلى محاصرة النفوذ الأوروبي في القرن الإفريقي، ومواجهة التحرك الصيني[٤].

وتحتل هذه المنطقة موقعاً مهماً في الإستراتيجية العسكرية الأمريكية، خصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في إطار

(١) د. إجلال رأفت، «العوامل الداخلية وأزمة الدولة في القرن الإفريقي»، السياسة الدولية، يوليو ٢٠٠٩م، ص ١٦٨-١٦٩.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن مصالح القوى الإقليمية في القرن الإفريقي يمكن الرجوع إلى: نجلاء محمد مرعي، «تأثير البترول في توجهات السياسة الخارجية الأمريكية تجاه إفريقيا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠١١م «دراسة حالية: السودان»، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠١١م، ص ١٢٢-١٢٦.

(٣) د. حمدي عبد الرحمن حسن،»التنافس الدولي في القرن الإفريقي»، السياسة الدولية، يوليو ٢٠٠٩م، ص ١٧٢-١٧٣.

(٤) نجلاء محمد مرعي، «السياسة الأمريكية تجاه السودان خلال الفترة ١٩٨٩م-٢٠٠٢م»، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٦م.

"الحـــرب على الإرهاب"، وإعادة طرح مشـــروع القرن الإفريقي الجديد الذي يهدف إلى: تأمين الممرات المائية العالمية في البحر الأحمر والمحيط الهندي بما يخدم المصالح الأمريكية، فضلاً عن تأمين الوصول إلى منابع النفط والمواد الخام. وعليه، استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من الأدوات الدبلوماســية والاقتصادية والعسكرية من أجل تأمين النفط الإفريقي، وضمان تدفقه إليها دون أية عقبات أو مشاكل، منها:

التواجد العسـكري المباشـر فـي المنطقـة: وذلك لتدريب الجيش الإثيوبي، وتوفير المساعدات الاستخباراتية واللوجيستية لإثيوبيا، وانطلاق بعض قوات التدخل السريع من قاعدة جيبوتي لتأمين منطقة الساحل الإفريقي.

الاعتمـاد علـى بعـض دول الأركان الإقليميـة: فإثيوبيا أصبحـــت تمثل الذراع العســـكري للولايات المتحـــدة في القرن الإفريقي الكبير، حيث تمتلك واحداً من أكبر الجيوش الإفريقية ســـواء أمِنْ حيث العدد أم العدة، كما توجد في جيبوتي القاعدة العسكرية الأمريكية في المنطقة التي توفر قوات التدخل السريع لأية عمليات عسكرية قد تشارك فيها الولايات المتحدة[1].

كما ان التكالب الجديد على إفريقيا ارتبط أساســـاً بالدور الصيني تحديـــداً منذ أعوام التســـعينيات، وســـعيها الدؤوب للحصـــول على النفط الخام وفتح أســـواق جديـــدة، فالتحرك الصينـــي الجديد في القارة، والذي يعتمـــد على فكرة "التغيير الناعم"، أخذ ينحي جانباً عوامل السياســـة والإيدولوجيا، وذلك مقابل هيمنة الاقتصاد والمصالح النفعية البحتة[2]. حيث اعتمدت لنفسها إستراتيجية جديدة تمثلت في "تنويع مصادر النفط" مع إعطاء إفريقيا أولوية جيوبوليتيكية في هذه الإستراتيجية، وعلى الرغم من أن هذه الإســـتراتيجية لهـــا مظهر اقتصادي، إلا أنها تتمتـــع بقيمة أخرى من الناحية الإســـتراتيجية، ذلك أن التوجه الصينـــي نحو الطاقة الإفريقية إنما يتم في إطار إســـتراتيجية أكبر وهي إســـتراتيجية المساعدات مقابل النفط " Aid – For Oil –"، ونظـــراً لوجود احتياطيات نفطية مهمة في إفريقيا فإن الصين لم تألُ جهداً في تجنيد مواردها الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والعســـكرية بهدف ضمان الســـيطرة على الموارد النفطيـــة الجديدة في القارة، حيث تحصل الصين على ٢٥٪ من واردتها النفطية من إفريقيا[3].

وقد شجعت الصين محاولات تحقيق تنمية اقتصادية داخل منطقة القرن الإفريقي، وذلك من خلال تقديم قروض منخفضة الفائدة، وإعفاء بعض الدول من الديون، ووضع تعريفات جمركية تفصيلية، وإقامة مشروعات لتحسين البنية الأساسية مثل الطرق والكباري ومحطات المياه والكهرباء وشـــبكات الري والاتصالات. وعلى الجانب الآخر، كانت الصين مصدرًا مهماً للأســـلحة التي حصلت عليها بعض دول القرن الإفريقي مثل الصومال، وإريتريا، وإثيوبيا .كما حرصت الصين على تعميق التعاون العسكري بينها وبين جيبوتي، خاصة بعد إقامة قاعدة عسكرية أمريكية داخلها.

وربما يمثـــل الاهتمام الأمريكي والصينـــي المتزايد بالقارة الإفريقية تدخـــلاً بالطبع في مناطق النفوذ الأوروبية التقليدية، خاصة النفوذ الفرنســـي[4]، ففي منطقة القـــرن الإفريقي، بدا هـــذا الأمر جلياً في حال التنافس الأمريكي – الفرنســـي حول دولة جيبوتي ذات الأهمية الإستراتيجية، نظراً لاحتلالها موقعاً متقدماً في منطقة بحرية يمر عبرها ربع إنتاج العالم من النفط، بالإضافة إلى وجودها على الشـــريط الإستراتيجي بين الساحل والقرن الإفريقي الذي تســـعى واشـــنطن إلى فرض الأمن فيه. وعلى الرغم من احتفاظ فرنســـا بقاعدتها العسكرية الأساسية هناك – كامب لموان – فإن النفوذ الأمريكي في جيبوتي في تنام مستمر[5].

لكن يمكن القـــول: إن هناك عوامل عديدة من شـــأنها أن تحكـــم وتيرة هذا التنافس ومدى حدته أهمها القوّة العســـكرية وهـــي عنصر فعال في تحديد مصير التنافس على النفط، إذ لا يجب أن ننسى أن الولايات المتحدة وعلى الرغم من الأزمات التي تمر بها والمشاكل التي تعاني منها، إلا أنها ما تزال "الدولة الأكثر قـــوّة في العالـــم"، وهي موجودة في معظم أماكـــن إنتاج النفط المهمة والحيوية العالمية كما وتسيطر على معظم طرق الإمدادات والنقل العالمية؛ البحرية والبرية، وهو الأمر الذي من شـــأنه أن يكبح إمكانية تحول سياســـة الصين في إفريقيا ومناطق أخرى من العالم إلى سياسة هجومية متشددة تهدد المصالح الأمريكية بشكل "فج".

---

(١) د. نجلاء مرعي، النفط والدماء: الإستراتيجية الأمريكية تجاه إفريقيا «السودان أنموذجاً»، القاهرة: المركز العربي للدراسات الإنسانية، ٢٠١٢م.

(٢) محمد جمال عرفة، «الصين و«التغيير الناعم» في إفريقيا..»العولمة الجديدة»!»، قراءات افريقية، يوليو – سبتمبر ٢٠١١م، ص ٦٦–٧٦.

(3) Brooks, Peter., «China & influence in Africa: Implications For the united states», backgrounder (Washington : The heritage Foundation, 2006). No.1916. p.7.

(٤) نجلاء محمد مرعي، «تأثير البترول في توجهات السياسة الخارجية الأمريكية تجاه إفريقيا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠١١م، «دراسة حال: السودان».

(٥) جورج ثروت فهمي، «أوروبا وإفريقيا ... إستراتيجية جديدة للتنافس»، السياسة الدولية، ع ١٦٣، يناير ٢٠٠٦.

ثالثاً: "موقع العرب في ظل التدافع الدولي نحو "القرن الإفريقي":

على الرغم من بؤر التوتر والصراع التي تشـــهدها منطقة القرن الإفريقي، فإن عام ٢٠١١م يبشـــر بإعادة رســـم خريطة التوازن الإقليمي في المنطقة، وربما يكون ذلك في غير مصلحة النظـــام الإقليمي العربـــي إذ تقاطع المصالـــح القومية للدول العربية المطلة على البحر الأحمر ودول القرن الإفريقي، ويمكن أن نشير في هذا السياق إلى أمرين مهمين:

أولهمـا: التعامـــل مـــع جمهوريـــة أرض الصومال بمنطق الاعتراف الواقعي بوصفها بديلاً عن الدولة الأم.

ثانيهمـا: ظهور دولة جنوب الســـودان المســـتقلة لكونها فاعلاً جديداً في منطقة القـــرن الإفريقي، وهو ما يعني تغير وتبدل طبيعة الأدوار الإقليمية. إذ تصبح دولة جنوب السودان بتوجهها الإفريقي أقرب إلى إثيوبيا وكينيا، وهو ما يجعلها ذات تأثير بالغ على معادلة توزيع مياه نهر النيل. فالجدير بالذكر أن السياسة المصرية عملت دوماً على إقامة توازن إقليمي لمواجهة إثيوبيا نظراً لحال العداوة التقليدية بين إريتريا وإثيوبيا، حيث حظيت مصر دوماً بدعم السودان. وهو ما يعني أن وجود دولة جنوب الســـودان في هذه المعادلة سيؤدي إلى إعادة النظر في طبيعة التحالفات القائمة.

وبعد، فإن ما يحدث من تطـــورات متلاحقة على أطراف النظام الإقليمي العربي فـــي امتداداته الإفريقية ينذر بوجود تهديدات خطيرة لمنظومـــة الأمن القومي العربي، وذلك نتيجة الانفلات الأمني وانتشـــار التطرف وظاهـــرة القرصنة، والتي فتحت المنطقة أمام وجود عســـكري دولي دائم يحد من حرية حركة الجوار العربي، وإنها ستؤثر يقيناً في أمن البحر الأحمر وتدفق مياة النيل إلى كل من السودان ومصر. فلقد تم انفصال جنوب الســـودان برعاية دولية وإفريقية وغياب عربي واضح، وتقوم أوغندا وبوروندي بعملية حفظ السلام في الصومال، كما باتت دول إفريقية كبرى مثل إثيوبيا وجنوب إفريقيا والســـنغال مـــن أبرز المؤيديـــن لجمهورية أرض الصومـــال داخل الاتحاد الإفريقي. ويبدو أن الولايـــات المتحدة والدول الغربية أضحت تفضل الحل الإفريقي على الحل العربي بالنســـبة إلـــى مناطق التوتـــر والتأزم على خط التماس العربـــي الإفريقي. لذا فإن ما يحـــدث في منطقة القرن الإفريقي من تفاعلات وتجاذبات ســـيفضي لا محالة إلى إعادة تشـــكيله وصياغته من الناحية الجيوســـتراتيجية، حيث يعكـــس طبيعة التحالفـــات الإقليمية والدولية الجديدة، وإن هذا التغير ســـيكون معادياً للمد العربي والإسلامي في المنطقة[1].

ومع قيام موجة التغيير بثورات الربيع العربي، بدا أن إعادة التفكير فـــي خريطة المصالح الإســـتراتيجية العربية أمر مهم، لتســـليط الضوء على واحدة من المناطق التي أهملت أو حيدت في العقود الماضية، وهي منطقة القرن الإفريقي وحوض النيل. والذي أكد علي تأثير الغياب العربي في عزل الدول الإفرو-عربية عـــن المنطقة وحرمانها من أي نفـــوذ أو مبادرة لحل الصراعات التي تنشب في الإقليم كما يحدث في السودان والصومال. وهو ما أدى إلـــى ترك المنطقة إلى النظام الدولـــي والإقليمي الذي لم يعمل على حل مشـــاكل منطقـــة القرن الإفريقي؛ بل عمقاها بحروب الوكالة وبالتشجيع على قيام دولة جنوب السودان والذي سيؤثر سلبياً في التوازن الإستراتيجي في المنطقة إذا ما سادت علاقات التوتر مع الســـودان بدلاً من التعاون، فيما حيد العرب تمامًا طوال العقدين الماضيين عـــن التأثير في مجريات الأمور هناك، أو حتى المســـاهمة في حفظ أمن الممرات البحرية المهمة التي تسيطر عليها المنطقة في خليج عدن وباب المندب.

كما أدى هذا الغياب إلى زيادة التغلغل الإسرائيلي والإيراني في المنطقة، الذي لم يقتصر على الشق الإفريقي؛ بل كان هناك تاريخ إســـرائيلي من التغلغل في الســـودان وإثيوبيا واليمن في

---

(١) د. حمدي عبد الرحمن،»القرن الإفريقي.. إعادة تشكيل وصياغة جيوإستراتيجية وتحالفات إقليمية ودولية جديدة»،
http://www.aleqt.com/201121/01//article_494309.html

زمن حكم الإمام، إلى أن اســتقر اليوم بنفوذ إسرائيلي في كينيا وإثيوبيا وأوغندا. فبالنسبة إلى إسرائيل، تُعدُّ منطقة القرن الإفريقي مســرحاً إستراتيجياً حيوياً في إدراة صراعها وعلاقاتها مع الدول العربية، ويهدف هذا التواجد إلى استمرار مصادر النزاع عبر دعم قوى التوتر في كل من الصومال والســودان (بشكل غير مباشر من خلال إريتريا)، ودعم علاقاتهــا بكل من إثيوبيا وكينيا وإريتريا، ضمن منظومة من المصالح الأمنية والعسكرية، لتأمين تواجدها الإستراتيجي في المنطقة، والذي يحمل أهدافاً عســكرية فــي المقام الأول. كمــا كانت مهمته هو الحصول علــى الاعتراف الدبلوماســي من جانب الــدول الإفريقية، وذلك في إطار ســعيها الدؤوب إلى تثبيت وضعها كدولة طبيعية فــي المجتمع الدولي، من خلال برامج المســاعدات الخارجيــة، وتطوير التعاون الاقتصادي مع هذه الدول[1].

ومما لاشــك فيه أن تزايد النشاطات الإيرانية في منطقــة القرن الإفريقــي تُلقي بظلالها وانعكاســاتها الســلبية على الأمن القومي العربي ككل، وتهديد نظم الأمن الوطنية لبعض الدول العربية. فيشكل كثافة النفوذ الإيراني في العمق الإفريقي، وفى ضوء التراجع وسلبية الأداء العربي، خصمــاً موضوعياً من الوجود والمصالح العربية. وعلى الرغم من أنه توجد جاليات عربية مؤثرة فــي بعض الدول الإفريقية خاصة في الغرب، فإنها لا تمارس دوراً سياسياً فاعلاً في خدمة المصالح العربية؛ بل في الاتجاه المعاكس فــي خدمة المصالح والأهداف الإيرانية. كما حاولت تفجيــر مناطق الأطراف للنظام الإقليمي العربي، فلم تكن بمنأى عن النيات والتحركات الإسرائيلية، ليس من زاوية التطابق الكلي في الأهداف المرجوة، ولكن لعدم ترك هذه الساحة بالمطلق؛ بل ربما لتوظيف كثافة الوجــود والنفوذ الإيراني ضمن الأوراق الضاغطة والمهمة في أي مقايضات سياســية محتملة، أو لدرء أخطار متوقعة[2].

(١) أحمد إبراهيم محمود، الحروب الأهلية في إفريقيا، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، ٢٠٠١م.

م(٢) إبراهيم أحمد عرفات، «مصالح القوى الإقليمية في القرن الإفريقي»، السياسة الدولية، ع١٧٧، يوليو ٢٠٠٩م.

رؤية مستقبلية...
للأمــن القومــي العــربي في ظـل التدافـع الدولي نحو "القرن الإفريقي":

يتوقــع مراقبون للشــأن الإفريقي أن تشــهد العلاقــات الإفريقيــة - العربية تنامياً في شــتى المجالات التجارية والاقتصادية والسياسية من أوسع الأبواب، خاصــة بعد الربيع العربــي الذي يطوف بغالبية البلــدان العربية، في الوقــت الذي تحولت فيه غالبية البلاد الإفريقية للمسار الديمقراطي في العقود الأخيرة.

وأياً كان الأمر، فإن تدعيم الأمن القومي العربي يتطلــب الاعتماد علــى عدد من الركائــز الواقعية والموضوعية لتغييــر الواقع الســلبي في العلاقات بين العرب وشــعوب منطقة القــرن الإفريقي، من بينهــا: إعادة التفكيــر مجدداً في الأمــن القومي العربي ومجاله الحيــوي كنقطة انطلاق للعمل على بناء علاقات تعاون إســتراتيجي سياسي واقتصادي وأمني ومائي مع هذه المنطقة بما يصبُّ في مصلحة الأجيال العربية المقبلة. ومعالجة آثار الفترة الماضية بالاســتفادة المأمولة مــن الثورات العربيــة، والتي سيكون لها انعكاس على السياسة الخارجية العربية، لوضع حد لسياســة تهميش العرب في هذه المنطقة من أطراف إقليمية ودولية على حد سواء.

الجمعية الخيرية
لتحفيظ القرآن الكريم بأبو عريش

مشروع وقف القرآن الخيري

أخي المحسن الكريم

ساهم معنا في إنجاز هذا المشروع الخيري

يخدم المشروع عدد ١٢١ حلقة
للرجال بها ١٠١٥ طالب
٣٢ دار نسائية بها ٢٧٥ حلقة
تخدم ٣٠٩٢ طالبه

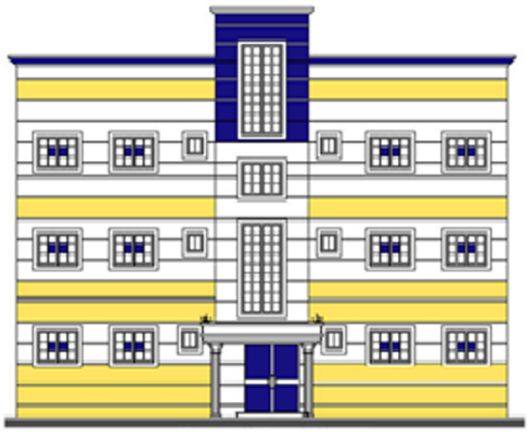

يمكنك دعم المشروع

في حسابنا رقم ٢٢٥٦٠٨٠١٠٠٧٩٠٠١

للإستفسار هاتف ٠٧٣٢٤٤٢٠٠-٠٧٣٢٤٠٦٣٣

((وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا))

إسرائيل تُهجِّر الفلسطينيين مِن النقب

حسن بن محمد

النقب هي منطقة صحراوية تقع في جنوب فلسطين والقسم الأكبر من سكان النقب هم من العرب البدو الذين بقوا في هذه المنطقة بعد حرب سنة ١٩٤٨م، ولقد صادقت الحكومة الإسرائيلية في الفترة الأخيرة على ما يعرف بـ"مخطط برافر"، والذي يهدف إلى ترحيل ما بين ٤٥ ألفاً إلى ٦٥ ألف بدوي من قراهم العربية غير أن الحكومة الإسرائيلية قالت: إن المخطط يهدف أساساً إلى "إعادة توطين" عشرات الآلاف من المواطنين العرب البدو في النقب، وألمحت إلى أن هذا المخطط سيشمل ٣٠ ألفاً من البدو سيتم إخراجهم من قراهم وتجميعهم في بلدات بدوية أقيمت في بداية سبعينات القرن الماضي.

وبحسب عديد المراقبين فان هذا المخطط يبقى غامضاً؛ غير أن الأكيد هو مشروع تهجير جماعي جديد سيشمل أكثر من ٤٥ ألف بدويٍّ في النقب عن قراهم وهدم أكثر من ٢٥ ألف بيت، كما أظهرت ملفات ويكليكس أن الحديث يدور في إسرائيل عن ترحيل ٦٥ ألف بدوي أي كل سكان القرى غير المعترف بها.

و القرى غير المعترف بها هي تسمية لقرى عربية بدوية في النقب يزيد عددها عن الأربعين قرية، ولقد رفضت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ سنة ١٩٤٥م وحتى اليوم الاعتراف بها؛ ولذلك فإنها تعدُّ جميع المباني الموجودة فيها غير قانونية، وهي تخلو من كافة الخدمات والبُنى التحتية، والمرافق الصحية والتي يتعين على كل دولة توفيرها للسكان، وكانت حكومة الاحتلال الإسرائيلي قد شكَّلت لجنة برئاسة المحكمة العليا ومراقب الدولة السابق أليعازر غولدبرغ للبحث في قضية القرى غير المعترف بها وتقديم توصيات.

ولقد عملت لجنة برافر على مدار سنتين ونصف ولكنها وضعت خطة بعيدة كلَّ البعد عن توصيات غولدبرغ وعن قضايا عرب النقب الحقيقية ورغبتهم في حل قضاياهم، ولم يشارك في عضوية هذه اللجنة أي عربي أو مندوب عن عرب النقب، ولم تتشاور اللجنة مع أية جهة عربية في النقب

ولقد عارض عرب النقب مخطط برافر والذي يقضي بإعطاء تعويض مالي فقط للمواطنين البدو، والذين كانوا يسكنون في هذه المنطقة وتمَّ ترحيلهم عنها في سنوات السبعينات، وتجميعهم في بلدات أقيمت خصيصاً لهذا الغرض

لقد نجحت السلطات الإسرائيلية في حصار النقب وتطويقه وذلك منذ الانتفاضة الفلسطينية الثانية عندما تمَّ إغلاق قِطَاع غزة أمامهم، وكذلك تمَّ إغلاق جنوب الضفة من خلال بناء جدار الفصل العنصري في جبال الخليل، فضاقت بهم السبل ذلك أن الأسواق التقليدية لعرب النقب مثل بيع المواشي والحليب كانت متركزة أساساً في الخليل وغزة ولم يعد باستطاعتهم اليوم الوصول إليها.

وفي شهر تشرين الثاني الماضي تمَّ توزيع إخطارات بهدم بيوت وقرى وادي النعم؛ وهي أكبر قرية غير معترف بها في النقب، ويبلغ عدد سكانها ستة آلاف نسمة، وطلبت هذه الإخطارات من السكان مغادرة بيوتهم ومنحتهم ٤٨ ساعة؛ لكنَّ السلطات لم تقل للسكان أين عليهم أن يذهبوا، ويبدو أن هذه العملية كانت بمنزلة اختبار لردة الفعل من قبل السكان.

واليوم يتجمع سكان النقب في منطقة تعادل مساحتها ٥٪ من مساحة النقب، ولكن الحكومة الاسرائيلية تريد ترحيلهم منها؛ لأنها لا تريد أن ترى تواصلا جغرافياً وديمغرافياً بين شطري الدولة الفلسطينية المستقبلية أي بين الضفة وقِطَاع غزة.

ويحذر العديد من المراقبين من تفجِّر الأوضاع في النقب؛ لأن الوضع اليوم مشابه إلى حد كبير للوضع الذي ساد في منطقة الجليل عشية يوم الأرض في سنة ١٩٧٦م حيث جاء يوم الأرض آنذاك بعد أن صادرت حكومة الاحتلال الإسرائيلي عشرين ألف دونم في قرى سخنين وعرابة ودير حنا في الجليل، واليوم يدور الحديث عن مصادرة نصف مليون دونم في النقب.

إن عرب النقب يواجهونظماليوم مخطط برافر على عدة أصعدة قضائية وسياسية وكذلك دولية حيث تمكن الفلسطينيون من إحضار عشرات من سفراء الدول الغربية لدى إسرائيل إلى النقب واطلاعهم على أوضاع العرب فيه، كما زار أيضاً مندوب الأمم المتحدة النقب، ولقد طالبت لجنة الأمم المتحدة لمكافحة التمييز العرقي حكومة الاحتلال الاسرائيلي بإلغاء مخطط برافر.

كما زار وفد من عرب النقب مقرَّ الاتحاد الأوروبي والكونغرس الأمريكي، ودعا إلى مطالبة هذه الهيئات الدولية حكومة الاحتلال الإسرائيلي بإلغاء هذا المخطط والاعتراف بالقرى العربية غير المعترف بها.

مبدأ «المساءلة»

بين الشرعية والمزايدة العلمانية

مصطفى محمد الحسناوي

لا بـــدَّ بداية مـــن تجلية المقصود من بعـــض المصطلحات والمفاهيم الواردة في العنوان:

فالمساءلة، أقصد بها مراقبة ومحاسبة المسؤول مهما كانت رتبته في سلَّم المسؤولية.

وأقصد بالشـــرعية، شرعية هذه المساءلة، سواء استمدتها من الشـــرع وســـيادته في الدولة الإســـلامية، أم من الشعب وســـيادته في الدولة الديمقراطيـــة، وكلا النظامين يكفل هذه المســـاءلة، بل هي في النظام الإســـلامي، مأمور بها، أكثر من كونها مجرد حق.

أما المزايدة العلمانية، فهي الشطحات الديماغوجية التي لا عَلاقة لها لا بالمســـاءلة كمبدأ، ولا بالإسلام ولا بالديمقراطية ولا بالمنطق، بل هي مجرد عدمية وهوس وحقد علماني أعمى، وهو ما سنبينه في هذا المقال.

حين ننتقد المزايدات العلمانيـــة الصبيانية، لا نصادر حق الآخر في الانتقاد والمساءلة والمحاســـبة، فهذا مما ندعو إليه ونؤمن به، ففي النظام الإسلامي الذي نَعدُّه أمثل وأفضل نظام للحكم، يعدُّ مبدأ المســـاءلة أهم المبادئ الدستورية الإسلامية، ومساءلة الحكام والمسؤولين واجب على الأمة، بل جعلها الشرع من أفضل الجهاد، وهي تتم بآليات ومؤسســـات منضبطة، من أجـــل إقامة الدين وحفـــظ مصالح المحكومـــين، كما أن مبدأ المساءلة مكفول لأفراد الشعب؛ بل لأصغرهم وأقلهم شأناً.

والأمر في النظام الديمقراطي، عند من يحترمون أنفسهم، لا يقل أهمية، حيث تمارس الرقابة والمســـاءلة على مستويات، ويعدُّ الإعلام أحد آلياتها ووســـائلها، بقواعد وضوابط. بغرض حفظ مصالح الشعب وقيمه وهويته.

المســـاءلة إذاً في كلا النظامين غرضهـــا تحقيق مصلحة المحكومين، وفق نظام مجمع أو متفق عليه.

في مغربنا التائه بين الإســـلام والديمقراطية والحداثة، لا يمكنـــك أن تـــرى إلا العبث، ومنه ما تطالعنا بـــه بعض المنابر الإعلامية مـــن مزايدات، تعليقاً على تحـــركات وزراء العدالة

والتنمية، ووصفهم بالشعبوية، فقط لأنهم لامسوا هموم المواطن وتطلعاته، ثم لأنهم قبل ذلك، وهذا هو مربط الفرس، محسوبون على التيار الإسلامي، ومن ثم يصبح الانتقاد هدفاً وغاية و عملية "روتينية".

المتتبع لكثير من الإجراءات التي قام بها وزراء العدالة والتنمية (عبد العزيز رباح، الحبيب الشوباني، مصطفى الرميد، مصطفى الخلفي)، والتي تدخل ضمن إطار الوفاء بالتزامات الحزب أمام الناخبين خاصة والشعب المغربي عامة، أو تصحيحاً لأوضاع وممارسات سابقة، فرضتها نظرة ضيقة، أو هوس بنماذج علمانية متطرفة، أو حسابات سياسية، فجاءت لحظة التصحيح، التي لم تعجب دعاة الاستئصال، والحنين للنموذج التونسي أو الأتاتوركي البائدين، فتم وصف كشف لوائح المستفيدين من المأذونيات (إكراميات) من طرف وزير النقل، وكشف لوائح الجمعيات المستفيدة من الدعم الأجنبي من طرف وزير العلاقات مع البرلمان والمجتمع المدني؛ بالشعبوية.

واعترض على انتقاد الوزير نفسه لمهرجان موازين، بالقول إن ذلك غوغائية، وتم انتقاد دعوة وزير الاتصال لمنع بث الإشهارات المتعلقة بألعاب الرهان واليانصيب في القنوات العمومية، حيث جاء في يومية "المساء" أن محمد أوزين قال: إن "الخلفي وزير للاتصال ومسؤول حكومي وليس فقهياً أو مفتياً للديار يحرم ويحلل ويجرم ويخون"، واصفاً مقاربة الخلفي بـ "السطحية"، وبأنها "لا تهتم بالجوهر والمقاصد".

يقال هذا الكلام في دولة تقول: إنها إسلامية على مذهب الإمام مالك، والوزير إن فعل ذلك فإنما يفعله من موقعه ومسؤوليته كوزير ينطلق من هذه المرجعية، ومطالب إسلامياً ودستورياً وأخلاقياً، بالحفاظ عليها، وعدم تجاوزها، فأين الغوغائية والشعبوية والسطحية؟!

حقيقة لا يستطيع المتتبع حصر تلك المزايدات المجانية، حيث يتسع الخرق فيها على الراقع، وتتناسل الانتقادات الشعبوية والغوغائية كالخلايا الانشطارية، وتتكاثر كالفطر السام.

نختم بواحدة منها، لنرى كيف تعاملت معها بعض المنابر الإعلامية. يتعلق الأمر بالزيارة التي قام بها وزير العدل والحريات لجمعية دار القرآن بمراكش، حيث تحولت إلى مأتم ومناحة على صفحات عدة منابر علمانية، فراحت تولول وتحذر، وتصرخ، وتسرح بخيالها الواسع، لتترجمه إلى عناوين مثيرة ومكذوبة، على عادتها في اختلاق الكذب، وسياسة التهويل والتحريض ضد كل ما هو إسلامي، من قبيل:

(حين تنتصر وزارة العدل لفتوى المغراوي)

(الرميد يلتقي المغراوي ويغضب الأجهزة)

(غلطة الرميد وتضخيم الحكومة)

(هل فقد وزير العدل صوابه أم أنه يريد افتعال نقاش جانبي ليتجنب متابعة ناهبي المال العام؟)

(وزير العدل والحريات مصطفى الرميد يثني على السلفي صاحب فتوى الزواج ببنت التسع المغراوي ويهاجم السياحة)

(وزير العدل يزور بيت المغراوي مجيز اغتصاب بنات التسع بالزواج بتزامن مع إثارة قضية أمينة المنتحرة)

(هذا مبلغ الرميد من العلم)

وعلى الرغم من أن الزيارة قام بها وزير في حكومة منتخبة، لجمعية مغربية مرخصة، واستقبله مواطنون مغاربة، إلا أنها أثارت حفيظة الكثير ممَّن يحبون أن يأكلوا نصيبهم ونصيب غيرهم. حيث لم يكفهم أن أفكارهم سيطرت منذ الاستقلال، وكتمت أنفاس هذا الشعب، وتناوب علينا العلمانيون في السيطرة على مواقع التأثير، لا تكاد تجد بين قنافذهم أملس، ولا يتفاوتون إلا في درجة القتامة، وجرعات الحقد والكراهية، فضربوا حظراً على الإسلاميين، ووسموهم بكل نقيصة، لكن حتى لما ولَّى زمانهم وقالت الشعوب العربية كلمتها، واختارت الإسلاميين عن رضى وطواعية؛ بل برغبة وحماس، نجد هؤلاء العلمانيين يحشرون أنوفهم الجدعاء، ويستمرون في بلاهة منقطعة النظير في إعطاء دروس الحريات والحقوق، وما يجوز وما لايجوز؛ بل وينقلبون على الديمقراطية التي طالما تباكوا عليها، ويكفرون بها وبنتائجها.

المشكلة ليست في أن جهات لم ترقها زيارة عادية من وزير، لجمعية من جمعيات المجتمع المدني، تشتغل في مجال حفظ دين وهوية المغاربة؛ بل في الركوب على الحدث، من أجل ممارسة الوصاية والأستاذية على قِطَاع كبير وعريض من المغاربة، مسؤولين وجمعيات وأفراد، ومصادرة حقهم في الاختلاف والتفكير والتعبير، وتصبح هذه المزايدة لا عَلاقة لها بالمساءلة والمراقبة التي يمارسها المجتمع المدني على مسؤوليه، بغرض حماية حقوق ومصالح المواطنين وهويتهم وثقافتهم، بقدر ما هي ضربات تحت الحزام، وغوغائية وشعبوية وتشغيب، لا معنى له.

مرصد الأخبار

جـــلال ســعـــد الـــشـــايـــب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

مناورتان في «إسرائيل» إحداهما تحاكي سقوط صواريخ على مدينة القدس

من المتوقع أن تجـــري الجبهة الداخلية في مدينة القدس مناورة تحاكي ســـقوط صواريخ وقذائف على المدينـــة، والتي من المقرر أن تبدأ هذه المناورة يوم غد الثلاثاء وستســـتمر حتى نهاية يـــوم الخميس المقبل بشكل متواصل ليلاً ونهاراً.

وبحسب الموقع الإخباري العبري «واللا» فإنه سيتم خلال المناورة سماع أصوات انفجارات عدة كما وسيتم إلقاء عدد من القنابل الدخانية والصوتية التي تشـــبه سقوط الصواريخ وقذائف الهاون على المدينة.

وذكر الموقع أنه سيســـمع عصر يوم الأربعاء المقبل صفارات الإنذار، والتي ســـترتفع لمدة دقيقة ونصف بهدف تدريب الإسرائيليين، ومعرفتهم مدى جهوزيتهم فـــي حال تم ضرب المدينة، مشـــيراً إلـــى أن المناورة ستشمل كافة المستوطنات المجاورة للمدينة كمستوطنة بيت شيميش مثلاً.

وكما من المتوقع أن يجري الجيش الإسرائيلي غداً مناورة عســـكرية أخرى في مدينة ديمونا تحديداً ما بين الســـاعة الثامنة صباحاً حتى الرابعة مساءً حيث ستشـــهد المنطقة حركة غير اعتيادية لسيارات الأمن الإسرائيلية.

ويشار إلى أن «إســـرائيل» تقوم بعدة مناورات في أماكن مختلفة بهدف الاستعداد لأي طارئ قادم خلال المرحلـــة المقبلة خصوصاً بعـــد تصاعد التصريحات المتبادلة سواء أكان من القيادة الإسرائيلية أم الإيرانية بشأن اندلاع مواجهة عسكرية بين الطرفين.

[مركز عكّا ٢٠١٢/٦/٤م]

سلفاكير يتهم مسؤولين في حكومته بسرقة ٤ مليارات دولار

وجه رئيس دولة جنوب الســـودان ســـيلفا كير اتهامات الى مسؤولين حاليين، وآخرين سابقين وأشخاص لهم علاقة بالسلطة باختلاس ٤ مليارات دولار من الأموال العامة في البلاد.

وكتب الرئيس في رسالة مفتوحة تحت عنوان «إلى المسؤولين الفاســـدين» يوم ٤ يونيو/حزيران «هنـــاك ٤ مليارات دولار لا يعرف مصيرها، أو لنقل ببســـاطة ســـرقت من قبل مسؤولين حاليين وسابقين وفاسدين لهم علاقة بمسؤولي الحكومة».

وأضاف أن القســـمَ الأكبر من تلك الأموال خرج من البلاد وأُودع في حسابات أجنبية. وحثَّ سيلفا كير المعنيين على إعادة الأموال مقابل العفو عنهم.

وأوضح الرئيس كير في رســـالته: «يعانـــي الناس في جنوب السودان لكن بعض مســـؤولي الحكومة لا يهتمون إلا بأنفسهم». وقال الرئيس ســـيلفا كير في رســـالته: إنه على الرغم من مقتل الكثير من الرفاق في الصراع الطويل من أجل الاستقلال «ما إن وصلنا إلى الســـلطة حتى نسينا ما حاربنا من أجله وبدأنا نثري أنفسنا على حساب شعبنا».

[روسيا اليوم – ٢٠١٢/٦/٥م]

باكستان تجري تجربة ناجحة على صواريخ تحمل رؤوس نووية

أعلنت باكستان اليوم أنها أجرت تجربة ناجحة على إطلاق صاروخ باليســـتي قادر على حمل كافة أنواع الرؤوس الحربية خاصة النووية منها والتخفي عن أجهزة الرصد والرادار. وقال بيان للجيش الباكســـتاني: إن الصاروخ هو الجيل الســـابع من سلســـلة صواريخ «حتف» التي تطورها باكستان محلياً، ويبلغ مداه ســـبعمئة كيلومتر وهـــو يحلق على علـــو منخفض وله قدرات نفّاثة، وقدرة عالية على المناورة ودقة كبيرة في إصابة الهدف.

[صوت إسرائيل ٢٠١٢/٠٦/٠٥م]

(*) نرحب بمقترحاتكم البنّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

مرصد الأخبار

تقرير: الشيعة داخل نيجيريا..«دولة داخل الدولة»

رصد تقرير صحفي تنامي النفوذ الشيعي في نيجيريا، واتساع نطاق حركته هناك لدرجة وصفت بأنه «دولة داخل الدولة» بما يُشكِّل تهديداً حقيقيّاً للبلاد، بحسب محللين.

وذكر التقرير أن مدينة كادونا تُعدُّ أكبر معقلٍ للحركة الشيعية في نيجيريا، وتُصدر الحركة صحيفة يومية واسعة الانتشار منذ عقدين، وستطلق الحركة قريباً محطة إذاعية عبر موقعها على شبكة الإنترنت، وذلك عبر الموجات الرئيسة للدولة، وكذلك قناة تلفزيونية.

وأشار التقرير إلى تلك الأفلام الوثائقية التي تمتدح الحركة الشيعية وقادتها، والتي تباع بكثرة للسكان المحليين في المدينة في صورة أسطوانات دي في دي، وذلك بعد ترجمتها إلى لغة الهوسا المحلية.

وقد أصبح زعيم هذه الحركة الشيعية إبراهيم زاكزاكي نصيراً للتشيع في الفترة التي وقعت فيها الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، وهو البالغ من العمر ٥٧ عاماً، ويرى أن لديه الآن «مئات الآلاف من الأتباع»، كما يحرص على تعليق صورة للخميني فوق رأس مجلسه.

ويؤكد أتباع زاكزاكي أنهم يتفقون مع وجهات نظره، كما أنهم يدعمون أفكاره الدينية التي يرون أنها تنتشر الآن ليس فقط في نيجيريا؛ بل في جميع أنحاء أفريقيا. [مفكرة الإسلام ٢٠١٢/٥/٩م]

علامة تعجب!

حتى الأطفال العرب لم يسلَموا!!

أعلنت مصادر مسؤولة بمطار القاهرة؛ أن شركة مصر للطيران تلقت برقية من مطار «جي إف كنيدي» في نيويورك تطلب فيها إعادة تفتيش ثلاثة ركاب بينهم الطفل «أشرف صابر» مواليد ٢٠٠٨م، وهو أمريكي من أصل مصري، وتفتيش والدته رشيدة صالح (٢١ عاماً) يمنية، وذلك قبل إقلاع الطائرة المتجهة إلى نيويورك، دون إيضاح أسباب التفتيش.

وبحسب المصادر نفسها، فقد تم إبلاغ رجال الأمن الذين قاموا بالتعاون مع أمن مصر للطيران بإعادة تفتيش الطفل ووالدته والراكب الثالث تفتيشاً دقيقاً، وإعادة فحص حقائبهم؛ ما أدى إلى تأخر إقلاع الطائرة وعليها ٢٦٣ راكباً.

وتشترط الولايات المتحدة إرسال قائمة ببيانات ركاب رحلات نيويورك قبل إقلاعها من القاهرة في إطار التعاون الأمني بين الجانبين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.

[جريدة البيان ٢٠١٢/٥/٣١م]

مرصد الأرقام

• نشرت صحيفة «ديلي ميرور» البريطانية نتائج دراسة تؤكد أن ٤٠ ٪ من البريطانيات العاملات يتعرَّضن للتحرش الجنسي من قِبل زملائهن الذكور بطريقة تجعلهن يشعرن بعدم الارتياح، والرغبة في ترك العمل.

ووجدت أن ٥٠ ٪ من البريطانيات العاملات يتعرَّضن لمضايقات على أساس يومي، بما في ذلك التعليقات الجنسية وجعلهن موضع سخرية.

وأضافت الدراسة – التي شملت ٣٤٣٤ موظفة بريطانية – أن ٢٧٪ منهن تعرَّضن للتقبيل من زملائهن الذكور من دون رغبتهن، و٦٦٪ إلى تعليقات غير لائقة عن ملابسهن من أرباب العمل أو غيرهم من الموظفين الذكور.

وأشارت إلى أن ٤٦٪ من الموظفات البريطانيات تعرَّضن للتوبيخ من قِبل أرباب العمل بسبب نوعية الملابس التي يرتدينها.

وقالت الدراسة: إن المضايقات الجنسية جعلت ٣٣٪ من البريطانيات العاملات يفكِّرْنَ في ترك العمل، و٢٥٪ يُعانيْنَ مشاكل في الصحة العقلية والجسدية. [لها أون لاين ٢٠١٢/٥/٣٠م]

• أفادت بيانات صادرة عن دائرة الإحصاءات العامة الماليزية بانخفاض نسبة البطالة خلال الثلث الأول من هذا العام إلى نحو ٢,٩٪، وهو ما يشير إلى خلو البلاد من البطالة بحسب المعايير الدولية التي تعدُّ أي دولة خالية من البطالة إذا قلت نسبة العاطلين فيها إلى ما دون ٤٪.

وأظهرت البيانات انخفاض عدد العاطلين إلى نحو ٣٨٠ ألف شخص، في حين ارتفع عدد العاملين إلى نحو ١٢,٥ مليوناً، كما أن نحو ٦٠٪ من طلاب الجامعات يحصلون على عمل حال تخرجهم، خصوصاً في مجالات الهندسة والحاسوب والتكنولوجيا، في حين يتأخر الباقون بسبب انخفاض الطلب على تخصصاتهم. [الجزيرة ٢٠١٢/٥/٢٩م]

• قال عبد المنعم عبد المقصود – محامي جماعة الإخوان المسلمين في مصر–: إن «حصيلة التنكيل الذي تعرضت له الجماعة في عهد المخلوع مبارك كانت ٣٢ ألف معتقل من أعضائها، بالإضافة إلى تعذيب الآلاف منهم على يد جهاز مباحث أمن الدولة المنحل».

وأضاف «عبد المقصود» في تصريحات صحافية له أن «مبارك» أهدر أكثر من ٦٢ ألف حكم قضائي صدر لصالح الجماعة، تراوحت بين البراءة والإفراج عن متهمين.

وأوضح أنه من ضمن هذه الحصيلة تم غلق أكثر من ١٤٠٠ شركة لأفراد الإخوان بالمخالفة للمبادئ الدستورية التي كفلت وحصنت الملكية الخاصة للمواطنين. وقال: «بجانب الشركات التي تم غلقها، وصل الأمر إلى التحفظ على أكثر من ٨٠٠ سيارة وإتلافها من خلال إيداعها في أماكن غير مناسبة».

وتعرض أكثر من ٤٤ ألف طالب على مدار عهد مبارك لانتهاكات تمثلت في القبض على عدد منهم، وفصل طلاب بسبب انتمائهم، أو التعبير عن آرائهم وشطبهم من انتخابات الاتحادات الطلابية، والتحقيق بسبب التعبير عن الرأي والحرمان من السكن في المدن الجامعية.

وأكد عبد المقصود أنه في عهد مبارك أيضاً تم منع ٣٢٠٠ من قيادات الإخوان من السفر، واستبعاد ١١ ألفاً من العمل في الوظائف المختلفة، وأن الأخطر من ذلك حرمان الإخوان المسلمين من تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية التي كان يسعى إليها الإخوان في الوقت الذي كان يتهرب منها بعضهم.

[صحيفة الغارديان البريطانية ٢٠١٢/٥/٣م]

• نشرت صحيفة «البينة» تقريراً أعدته وزارة التخطيط العراقية تحت عنوان «خارطة الحرمان ومستويات المعيشة في العراق لعام ٢٠١١م»، أن ٣٠٪ من العراقيين يعيشون تحت خط الفقر، منهم ما يقارب ٤٪ يعيشون في مستوى معيشي منخفض جدّاً.

وأوضح التقرير أنه بالنسبة للأسر، فإن حوالي ٢٨٪ منها تعيش في مستوى متدن، وما يقارب ٣٪ منها تعيش في مستوى معيشي منخفض جدّاً.

وأفادت النتائج بأن أقل المحافظات حرماناً هي الأنبار وبغداد وكركوك والبصرة ومحافظات كردستان، حيث لا تتجاوز نسبة السكان المحرومين في أي منها ٣٠ في المئة بينما أكثر المحافظات حرماناً هيميسان والمثنى والقادسية وذي قار جنوبي البلاد حيث تتراوح نسبة السكان المحرومين فيها ما بين ٤٨ و٥٦٪.

وقالت الصحيفة: «التقرير نفذ ميدانيّاً لجمع بيانات اجتماعية واقتصادية على مستوى المدن والبلدات والقرى والأرياف في جميع المحافظات من ضمنها محافظات إقليم كردستان». [شبكة أخبار الناصرية ٢٠١٢/٤/٣٠م]

• أفاد تقرير صادر عن منظمة العمل الدولية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة (يونيب) تحت عنوان «العمل من أجل التنمية المستديمة.. فرص العمل اللائق والاندماج الاجتماعي في الاقتصاد الأخضر»، بأن التحول إلى الاقتصاد الأخضر الصديق للبيئة، قد يسهم في توفير ما بين ١٥ إلى ٦٠ مليون وظيفة على الصعيد العالمي، خلال العقدين المقبلين.

وتقدر المنظمة الأممية عدد الشباب العاطلين ثابت عند معدلاته العالية عند ٧٥ مليون عاطل. [شبكة سي إن إن ٢٠١٢/٦/٢م]

• أصدر قضاة في محكمة لاهاي حكماً على رئيس ليبيريا السابق تشارلز تيلور بالسجن ٥٠ عاماً لمساعدته متمردين في سيراليون على شنِّ حرب وحشية في حكم يمثل سابقة في محكمة خاصة لجرائم الحرب.

وأدين تيلور (٦٤ عاماً) – وهو أول رئيس دولة تدينه محكمة دولية منذ الحرب العالمية الثانية – الشهر الماضي بدعم مقاتلي الجبهة الثورية المتحدة خلال الحرب الأهلية في سيراليون التي دامت ١١ عاماً وانتهت عام ٢٠٠٢م. [رويترز العربية ٢٠١٢/٥/٣٠م]

س: كيف يرى العالم رئيس مصر القادم؟

ج: تنوعت الرؤى الغربية لمستقبل مصر بعد أول انتخاباتٍ رئاسية عقب الثورة، فبعنوان "الإسلاميون يمسكون بمفتاح مستقبل مصر".. بدأت صحيفة فاينانشيال تايمز عددها الصادر بتاريخ ١٠ رجب ١٤٣٣هـ ٣٠ مايو (آيار) ٢٠١٢م للتعليق على نتيجة الجولة الأولى من انتخابات الرئاسة المصريّة، والتي تمخضت عن إعادة بين د. محمد مرسي، مرشح حزب الحرية والعدالة والإخوان المسلمون، في مواجهة الفريق أحمد شفيق التي وصفته الصحيفة البريطانية بأنه "المرشح المفضل للجيش".

وتوقعت المجلة أن يكون "الاستقرار هو الخاسر الأكبر أيًّا كان الفائز في انتخابات الإعادة"، لكنها رجَّحت أن "ينطوي فوز شفيق على مخاطر أكبر، خاصة إذا انخفضت نسبة الإقبال كما في الجولة الأولى، بالإضافة إلى إمكانيّة أن يؤدي فوزه إلى طريق مسدود (حال من الجمود) مع البرلمان الذي يسيطر عليه الإسلاميون، كما أنه (شفيق) سيواجه صعوبة في إقناع أولئك الذين أطاح بهم صديقه مبارك بأنه لا يحبّذ قيام نظام استبدادي وعسكري غير خاضع للمساءلة".

وقالت الصحيفة: "إن الإخوان المسلمين، بعد فوزهم بتمثيل كبير في البرلمان، ربما يقفون على أعتاب أفضل فرصة لتوحيد البلاد؛ لكن ليحدث ذلك يجب أن تقوم الجماعة بـ:

(١) اتخاذ خطوات ملموسة لاستعادة الثقة التي فُقِدَت في الأشهر الماضية.

(٢) تقديم تعهدات ملزمة فيما يتعلق بالحريات الشخصيَّة والسياسيَّة لجميع المصريين،

(٣) عدم استجابة د. مرسي لضغوط السلفيين حول هذه القضايا.

(٤) الإعلان العام عن تعهدات موقعة بهذه الالتزامات، بالإضافة إلى حكومة موسعة.

أما صحيفة «ذا هندو» الهنديَّة تحدثت عن التحالف الذي يسعى د. مرسي إلى بنائه مع مختلف القوى المصريّة، مؤكدةً أنه كي يصبح أول رئيس لما يُسمى بالجمهورية الثانية فإنه بحاجه ماسّة إلى الأصوات التي ذهبت لـ حمدين صباحي، التي وصفته بـ"الناصري الجديد" (٢٠,٧٪)، وإلى دعم الـ ١٨٪ من الأصوات التي ذهبت إلى عبد المنعم أبو الفتوح التي وصفته بـ"الإسلامي المعتدل"، بالإضافة إلى أصوات "شباب الثورة"، ويشير المحللون إلى أن د. مرسي بحاجة إلى كسب شريحة من أصوات الأقباط، الذين صوت عدد كبير منهم على الأرجح للسيد شفيق خوفاً من ظهور الثيوقراطيّة المتشددة في مصر تحت رئاسة جماعة الإخوان المسلمين المظفرة.

وأضافت صحيفة هافينجتون بوست الأمريكيّة: "حتى الآن فإن نظرة قريبة تظهر أن النتيجة تشكل نوعاً من الهزيمة؛ لكنها في المقابل تمثل فرصة للتواقين إلى التغيير الحقيقي، أكثر من الاستعادة الفوريّة للاستقرار في مواجهة البطالة المتزايدة، وارتفاعد معدلات الجريمة في الشارع."

بينما رأت صحيفة «دون» الباكستانيَّة في التجربة المصريَّة أنموذجاً للتذكير بأن "الثورة ليست حدثاً بل عملية"، ووجَّهت نصيحة للمصريين المحبطين من الخيار الذي يواجهونه على المدى القصير: لا تضيعوا الوقت في الحداد. نظِّموا أنفسكم."

وعلى الصعيد الإسرائيلي، قالت وكالة الأنباء اليهودية: «إن المصريين فاجؤوا حتى أنفسهم في التصويت لانتخاب رئيسهم المقبل، مضيفة: "وعود الانتخابات الرئاسية المصرية تلقي بظلال الشك على عَلاقات مع الولايات المتحدة وإسرائيل، ويحذر المراقبون من أن البلدين يجب أن يكونا على استعداد لاستمرار حال اللَّايقين في علاقتهما مع مصر."

[بتصرف من تحقيق علاء البشبيشي – موقع الإسلام اليوم ٢٠١٢/٥/٣١م]

الأقلية المسلمة في المكسيك

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

تعرف المكسيك باسم الولايات المكسيكية المتحدة وهي جمهورية دستورية فيدرالية في أمريكا الشمالية. يحدها من الشمال الولايات المتحدة الأمريكية، ومن الجنوب والغرب المحيط الهادئ، ومن الجنوب الشرقي كل من غواتيمالا وبليز والبحر الكاريبي ومن الشرق خليج المكسيك.

احتلتها إسبانيا في عام (١٥٢١م) واستقلت عنها في عام (١٨١٠م). يبلغ عدد السكان ١١٤ مليون نسمة واللغة الرسمية. الإسبانية بالإضافة إلى ٦٢ لغة محلية من لغات السكان الأصليين عاصمتها مكسيكو سيتي.

الجماعات العرقية:

مستيزو: ٧٠٪، بيض: ١٥٪، أصليون: ٩,٨٪، آخرون: ١٪.

الأديان:

الكاثوليكية الرومانية: ٨٢,٧٪، مسيحيون آخرون: ٩,٧٪، أديان أخرى: ٢,٠٪، دون دين: ٤,٧٪، غير محدد: ٢,٧٪، مسلمون: ٠,٣٪.

أحوال المسلمين:

ترجع أصول المسلمين في المكسيك إلى مهاجرين من تركيا وسورية ولبنان. وقد ذكر أحد المؤرخين المكسيكيين أن بداية الإسلام في المكسيك كانت عن طريق أحد المسلمين الأندلسيين الذي وصل إلى المكسيك من المغرب، بعد أن خطفه قراصنة الأسبان إبان القرن السادس عشر الميلادي. ويعاني مسلمو المكسيك من قلة الوعي على تعاليم دينهم الحنيف، وبعدهم المكاني الشديد عن أمتهم الإسلامية، ممَّا تسبب في قلة وربما انعدام التواصل بينهم وبين إخوانهم المسلمين في شتى بقاع الأرض بالإضافة للتجاهل العربي لهم.وقد أسس الداعية الإسلامي عمر واتسون، وهو بمنزلة الأب الروحي لمسلمي المكسيك، أول مركز إسلامي في المكسيك في عام ١٩٨٨م في العاصمة المكسيكية مكيسكو سيتي، والذي يُعدّ بمنزلة نواة همة جداً في المكسيك، حيث اجتمع المسلمون لأول مرة في صلاة الجمعة، وبمرور سبع سنوات تزايدت أعداد المصلين، فضلاً عن زيادة أعداد المسلمين الجدد، فسُجِّل المركز الإسلامي في المكسيك رسمياً لدى الدولة في سبتمبر/أيلول ١٩٩٥م، وأصبحت تُؤدى فيه الصلوات الخمس يومياً، وعُقدت فيه اللقاءات والمناسبات العامة للمسلمين والأعياد، كما حرص القائمون على المركز بإعطاء الدروس الدينية في الفقه والتوحيد، ولم ينسوا أن تزايد أعداد المسلمين الجدد يحتاج إلى مضاعفة جهودهم في توفير أماكن العبادة، والوعي الديني، وإلقاء الدروس الدينية التي تزيد من وعي المسلمين، وعبر ترجمة الكتب الدينية الإسلامية إلى اللغة الإسبانية.

المسلمون يحتاجون إلى الدعم المادي والمعنوي بالنسبة للدعاة ومعلمي اللغة العربية وكذلك الكتب التي تعرف بالإسلام من تفسير القرآن والحديث باللغة الإسبانية، كذلك في حاجة للمدارس الإسلامية وأماكن الذبح الشرعية و مقابر للمسلمين وتدعيم من الدول الإسلامية والعربية لهم أمام الحكومة المكسيكية.

مبشرات الدعوة الإسلامية:

يؤكد القائمون على المركز الإسلامي في مكسيكو سيتي وبعض المساجد الصغيرة في المدن الأخرى كمدينة غواد الاجارا بأن عائلات بكاملها تدخل في الإسلام مجتمعة.

وتتميز مجموعة المسلمين في تلك الولاية بأن معظمهم من السكان الأصليين (الهنود الحمر) الذين اعتنقوا الإسلام منذ بضع سنوات بعد جهود قام بها الداعية الأسباني محمد نافع وعدد آخر من المسلمين الأسبان. ويقبل المكسيكيون على تعلم اللغة العربية التي يمكن اعتبارها مدخلاً جيداً للدعوة للإسلام إذا أحسن التعامل مع هذا الإقبال.

وقبل افتتاح المركز الإسلامي كان الإسلام غير معروف لعامة أهل هذه البلاد، والآن أصبح الوضع مختلفاً، ففي مدينة (كوادالاجارا) ثالث أكبر مدينة في المكسيك بدأ التواجد والنشاط الدعوي الإسلامي بلقاء عدد من المسلمين الجدد بداعية مكسيكي من أصل جزائري درس في المدينة المنورة، وتعاونوا على العمل الدعوي. ممَّا يؤكد على أن هذه الفئة من الشعب المكسيكي تعد مجالاً بكراً وخصباً لقبول الدعوة الإسلامية ويتطلب الكثير من الجهود لمساعدة المسلمين الأصليين وتدعيم المسلمين الجدد منهم، وللمركز نشاطات خاصة في رمضان، منها موائد إفطار الصائمين. وذلك ما يساعد على تجمع المسلمين من أنحاء البلاد ومختلف الجنسيات للتلاقي والتعارف وتوطيد العلاقات.

المراجع والمصادر:

- مسعود الخوند، الأقليات المسلمة في العالم، العالمية للنشر، ٢٠٠٩م، ط ٢، ص ١٥٤.
- د مجدي الداغر، أوضاع الأقليات والجاليات الإسلامية في العالم، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ٢٠١٠م، ص ٤١٢.
- FACT BOOK.
- موقع الإسلام اليوم.
- موقع أخوان أون لاين.
- ويكيبيديا.
- موقع المركز الإسلامي بالمكسيك.
- www.islam.com.mx

خضعت لك الأطهار بل كُلُّ الورى

حامد عبد الله اصنيتان الجُميلي

لي في الهوى والعاشقين شجارُ ... قلبي هوى من وَجْدِه ويغارُ
أسكنتُ قلبي حيث ربي آمرٌ ... مَنْ أمره لي أنهرٌ وثِمارُ
خضعَت لك الأطهارُ بل كل الورى ... لبّت شفاهٌ سبَّحت أحجارُ
دارت لك الأفلاك ذلاً سجَّدا ... فبلا حفيظٍ يُمحقُ السيارُ
دارت بسوح الكون عيني أمعنت ... أو غير ربي خالقٌ جبَّارُ؟
سل من علا فوق السحاب مسافراً ... سل كلَّ فردٍ جاره الأقمارُ
هل للطبيعة في الخلائقَ لمسةٌ؟ ... أم صَنعةً الديان يا ثرثارُ؟!
كل العبيد لمن تملَّك ذُلِّلوا ... إلا عبيدك في السما أشجارُ
لملمت ما ذرأ الزمان من الهوى ... فعشقت دربا كله أنوارُ
دربَ الصراط عن المهالكِ مائلاً ... دربا مشاه الصَحْب والأبرارُ
يا ربنا المعبود غيرك باطلٌ ... هل صخرةٌ أو خرقةٌ أو نارُ؟
ساواك بالأنداد قومٌ أشركوا ... لك في فؤادي شعلةٌ ومنارُ
حقٌ لك الدعوات تُزجى كلها ... إن كان غيرك يخسأ المعيارُ
الناس من حولي و حولك أعظمُ ... يا ناصري إن جاوزوا أو جاروا
أدري بأن الخلق جمعٌ عاجزٌ ... مَنْ غيرك لي عاصمٌ أو جارُ
ماذا له من في التمائِمَ غارقٌ؟! ... وهمٌ له بل ذلةٌ وصَغارُ
ولك الصفات الساميات تنزَّهت ... ما طالها بالفرية الأمَّارُ
وكذلك اسمك في الخلائقَ شاهقاً ... اسمٌ سما ما طالت الأعمارُ
سأعاند الغالين آتي خاشعاً ... عبداً أنا ما هلل الديّارُ
و أوجِدُ الخلاق رغماً عنهمُ ... فحماه ربي قلعةٌ وستارُ
ساقت جناني للصحائفَ أسطراً ... عذراً إلهي فالسطور قصارُ
أي العجائبَ في الوجود أُمجِّدُ ... كَلَّ اليراع وجفت الأحبارُ
بان الرَّجا والقافيات تسابقت ... كلٌّ تزاحم أختها وتغارُ
ربٌ ومعبودٌ صفاتك نُزِّهت ... مَنْ ذا الذي هو غيرك الغفَّارُ؟
يانفسُ صبراً فالصحائف أُغلقت ... صبراً ألا هي جنة أو نارُ

نكبة فلسطينية أم انتكاسة صهيونية؟

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

أحيا الفلسطينيون هذه الأيام ذكرى نكبتهم الرابعة والستين، فيما احتفل الصهاينة بذكرى تأسيس كيانهم على أرض فلسطين المحتلة، ممَّا دعا المؤرخ الصهيوني الراحل «بنتسيون نتنياهو» والد رئيس الحكومة الحالي، للربط بين المناسبتين المتناقضتين المتعارضتين بقوله: «طالما أن الفلسطينيين يعدُّون يوم استقلالنا يوماً لنكبتهم، فلا مجال لحل الصراع بيننا وبينهم»!

تحلُّ هذه الذكرى على الجانبين، في وقت اضطرت فيه إسرائيل للانسحاب من أجزاء مختلفة من الأراضي الفلسطينية والعربية بفعل ضراوة المقاومة، وتواترت اعترافات القادة العسكريين والمفكرين الإسرائيليين بأن الاضطرار لتنفيذ انسحابات ميدانية من أراض محتلة، مثل تراجعاً واضحاً للمشروع الصهيوني الذي جُند للنيل من الشعب الفلسطيني.

وجاءت هذه الاعترافات على النحو التالي:

- الرئيس السابق لجهاز المخابرات الإسرائيلية الداخلية (شاباك) «آفي ديختر» يقول: لا أحد ينكر أن الفلسطينيين حققوا إنجازاً كبيراً بدفع إسرائيل لإخلاء مستوطناتها من قِطَاع غزة بدون مقابل سياسي، وبالتالي فإن الاستنتاج الذي توصل إليه الفلسطينيون أن نضالهم المسلح أثمر انتصاراً عليها.

- القائد السابق لجهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان) الجنرال «شلومو غازيت» يرى أن على إسرائيل تعلّم الدرس من اضطرارها لتنفيذ الانسحابات من بعض الأراضي العربية، خاصة من فلسطين ولبنان، وهو أنه عاجلاً أو آجلاً ستكون مضطرة للجلاء عن الأراضي الفلسطينية المحتلة؛ لأنه لا يمكن إعطاء توصيف آخر للاحتلال غير هذا المصطلح.. «الاحتلال».

- وزير البُنى التحتية «عوزي لانداو» يقول: إن الاضطرار للجلاء عن بعض الأراضي العربية والفلسطينية في الوقت الذي تتواصل فيه المقاومة، يدلُّ على انتصارها، وهزيمة تاريخية لإسرائيل.

- رئيس الوزراء «بنيامين نتنياهو» يقول: إن خطة فكِّ الارتباط عن قطاع غزة تمثل انتصاراً مهماً لحركة حماس ولفكرها المقاوم، وبإمكان الفلسطينيين أن يعبّروا عن فرحتهم بهذا النصر الكبير الذي لم يكن له مثيل في كل مواجهات دولة إسرائيل.

- زعيم المستوطنين في قطاع غزة وعضو الكنيست السابق «تسيفي هندل» يقول: قالوا لنا دائماً، دعوا الجيش ينتصر، لكن الذي حدث أن الفلسطينيين انتصروا، وإذا كانت الحكومة تجعل الجيش يفرُّ على هذا النحو المخزي، فلماذا جعلونا نستثمر هذا الجهد ببناء المستوطنات وتقديم تضحيات من أجلها؟

- «شالوم يروشالمي» المعلق السياسي في صحيفة «معاريف» طالب صناع القرار في تل أبيب بالإقرار بالحقيقة أمام الرأي العام الإسرائيلي، والاعتراف بهزيمة المشروع الاستيطاني، مشيراً إلى أن الحيرة الأساسية تكمن في المستوى المعنوي، فالانسحاب من الأراضي العربية والفلسطينية انتصار للمقاومة، ولا يمكن إنكار ذلك.

(*) كاتب فلسطيني.

- مستشار الأمن القومي الحالي «يعكوف عميدرور» يعدُّ أن قوة الردع الإسرائيلية في مواجهة المقاومة الفلسطينية انهارت بعد تنفيذ الانسحابات من أراض عربية وفلسطينية، لأن الأمر الذي بات معروفاً للفلسطينيين والعرب أن بإمكانهم الحصول على منجزات سياسية إذا واصلوا استخدام الضغط على إسرائيل، وللأسف فإننا ننسحب بعدما تبين للفلسطينيين أنه بالإمكان هزيمتنا!

الأزمة الإستراتيجية:

كما تحيي إسرائيل ذكرى تأسيسها وهي تعتقد جازمة بأن المسوغ الأساسي لقيامها على أنقاض الأرض الفلسطينية، جاء لتكون قاعدة عسكرية متقدمة للمشروع الغربي في المنطقة العربية، وفي مراحل لاحقة تحولت لتصبح «حاملة طائرات» بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ممَّا جعلها «الطفل المدلل» للعواصم الغربية، ليس بالضرورة حباً في سواد عيون اليهود، ولكن لأنهم يقدمون خدمات جليلة «غير مجانية» لتلك العواصم.

ومع ذلك، فإن الضلع الثاني من أضلاع الأزمة الإستراتيجية لإسرائيل إقليمياً ودولياً يتمثل بشعورها بفقدان الدور والوظيفة المناطة بها منذ تأسيسها، خاصة بالنسبة إلى الغرب.

وتمثل ذلك فيما عرضته شعبة التخطيط في هيئة الأركان العامة للجيش، من تقديرات متشائمة للأوضاع السياسية والأمنية بشكل استثنائي، واعتقادها بأن الذكرى السنوية الحالية لاستقلال الدولة تشهد تفاقماً لبيئتها الإستراتيجية بشكل خطير، ممَّا سيجعلها تقف في وضع بالغ الصعوبة أكثر من الوضع الحالي.

ويتزامن هذا الأمر بصورة وثيقة بما يسمى «تآكل» المواقف الأميركية في الساحة العالمية، ممَّا سيجعل من قدرتها على تحقيق استقرار الشرق الأوسط مقيدة مقارنة بالماضي.

ولمحاولة استدراك تراجع الوظيفة الغربية للدولة «الإسرائيلية»، تطالب تلك الأوساط صناع القرار بالتصدي للتحديات العسكرية والسياسية المناطقية، وللتآكل في أساس قوة ردعها، لأن ذلك سيتركها فترة من الزمن تقف بانتظار الحسم في مواضيع سياسية وأمنية جوهرية، وسيكون لها تأثير حتمي على الحلبة السياسية الداخلية والخارجية.

فإسرائيل موجودة في وضع يمكن فيه أن تهتز، وكل جهد لمنع هذه الاهتزازات سيكون منوطاً بثمن دبلوماسي، وبصعوبة في استيعاب التحديات الأمنية.

أما على الصعيد الخارجي، فإنها تعيش فترة تتميز بتفاقم سريع للتهديدات الأمنية والسياسية المحدقة بها، وتدهور وضعها الإستراتيجي في ظل الحراك العربي المتلاحق، وفقدانها لأنظمة شكلت لها على الدوام مخزوناً احتياطياً عزَّ نظيره.

والمثير أن سيطرة إسرائيل باتت محدودة على حجم التغيرات وآثارها، مما سيجعلها تجد نفسها عالقة في وضع لا تملك فيه رداً على التحديات التي تؤثر في مكانتها السياسية ووضعها الأمني في السنوات المقبلة.

وربما ما يزيد الأمور تعقيداً وسواداً لدى مراكز التفكير الإسرائيلية، ما تشهده العلاقات مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي من أزمة غير مسبوقة في حدّتها حول جملة من المواقف، لعل أهمها الصراع مع الفلسطينيين، وجميع المؤشرات تقطع بما لا يدع مجالاً للشك أن شرخاً أصاب «الحليفين الإستراتيجيين»!

ويشهد المراقب لحال إسرائيل بعد مرور ٦٤ عاما على تأسيسها، سلَّماً بيانياً يميل إلى التراجع في مختلف المستويات السياسية والأخلاقية والسكانية. وتقتضي الضرورة العلمية الإشارة إلى أن هذه التراجعات باتت على أبواب المستوى العسكري، على الرغم من أنه شهد طفرات كبيرة - وكبيرة جداً - خلال العقود الماضية.

ولكن، ما الذي جعل ذات الجيش -ودولته صاحبة القوة العسكرية الرابعة على مستوى العالم- يتوقف عن ذلك المسلسل من الانتصارات؟ وما الذي حلَّ به من تراجعات وعيوب وثغرات؟ ولماذا وصل قطار الانتصارات الإسرائيلية إلى محطته الأخيرة؛ ليبدأ مسلسل الهزائم والإخفاقات؟

الإجابة عن هذا التساؤل المزمن في تل أبيب وجد إجابته على لسان أحد قادتها بقوله: «حظيَ أعداؤنا بنجاح عسكري، ولاشك أن هذا النجاح سيثير شهيتهم لإحراز نجاحات جديدة.. فقد ولدت الحرب الاحتلال، والاحتلال ولد المقاومة، والمقاومة ولدت الخطوات الوقائية، والقيود والاعتقالات والتحقيقات، ومقابلها الردود، والردود على الردود، وحسابات الدم متواصلة، وأحلام الانتقام، وما نضج مجدداً هو روح الكراهية المتبادلة، وولدت المقاومة الواسعة».

صياغة المادة الثانية من الدستور المصري

تامر بكر

يُعدُّ مضمون المادة الثانية من الدستور المصري هو أقدم النصوص الدستورية المصرية، حيث وُجد مضمونها في جميع الدساتير المصرية ابتداء من دستور ١٩٢٣م وحتى دستور ١٩٧١م، وكذلك الإعلان الدستوري الذي أصدره الجيش المصري بعد ثورة ٢٥ يناير.

وتنص تلك المادة كما هي في دستور ١٩٧١م والإعلان الدستوري الحالي من بعده، على أن: (الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع)، وقد جرى ذلك النصُّ في ظلِّ دستور سنة ١٩٧١م، حيث يعدُّ أكبر إنجاز قامت به الحركة الإسلامية في عصر السادات.

ولأن البشر مهما أوتوا من فصاحة وبيان فسيظلون قاصرين عن إعداد التعريفات الجامعة المانعة وخاصة في أمر مهم كأمر الشريعة والتي نصبح محدودين في ذلك بطبيعة الشريعة ذاتها، فقد حاول العلمانيون وغيرهم استغلال ورود لفظ (مصدر) نكرة وليس معرفة، ليجعلوا مع الشريعة مصادر أخرى للتشريع! ممَّا دعا الحركة الإسلامية لخوض معركة أخرى لتقييد نصِّ المادة الثانية لمنع ذلك.

انتهت تلك المعركة بتعديل المادة بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٩٨٠ واستبدلت عبارة (مصدر رئيسي) بـ (المصدر الرئيسي)، لأن العبارة الثانية التي دخل على لفظيها (الألف واللام) تفيد الحصر[١].

و لكن بعد ذلك التاريخ بأكثر من عام قتل السادات في حادثة المنصة، وفي المحاكمة اتجه المحامون لمنع عقوبة الإعدام عن المتهمين عن طريق الطعن في دستورية قانون العقوبات في أثناء المحاكمة؛ لأنها مخالفة لنصِّ المادة الثانية، فرفضت المحكمة هذا الطعن وقررت أن كلمة (المصدر الرئيسي) تسمح بوجود مصادر فرعية! ممَّا يعني أنه يمكن مخالفة الشريعة الإسلامية أحيانًا!! وبذلك عدنا أدراجنا للوراء مرة أخرى!، وظهر على الساحة بالإضافة إلى موضوع (الألف واللام في «مصدر») مسألة جديدة

(١) كان يمكن في رأيي أن يحدثوا تغييراً آخر ليؤكدوا هذا المعنى، وهو تغيير كلمة (الرئيسي) إلى كلمة (الرئيس)، أي: بحذف الياء، لأن كلمة (الرئيس) من حيث اللغة لا تعني إلا إنه الأوحد، فيكون بذلك معنى أنه لا يوجد مصادر أخرى للتشريع مع الشريعة الإسلامية، مؤكداً ليس فقط عن طريق (أل) التي هي أداة الحصر، بل أيضاً في ذات معنى الكلمة نفسها.

مثيـــرة للجدل وهي عبارة عن مشـــكلة لفظية مفادها أن نص المادة الثانيـــة يدعو لتطبيق مبادئهـــا فقط من دون أحكامها[1]، وقد غذَّى بعضهم للأسف هذا الطرح!

وقـــد اســـتدعى كل ذلك تحويـــل الأمـــر للمحكمة الدســـتورية العليا للبت فيه، وظل الاختلاف حول تفسير المادة الثانية معروضاً عليها مدة تجاوزت خمســـة عشـــر عاماً، حتى فصلـــت فيه المحكمة يوم ١٨ مايو عام ١٩٩٦م بعد طول بحث.

وقد قررت المحكمة الدستورية العليا ما يلي:

١ أن المادة بهذه الصياغة تمنع مِن ســـنِّ قوانين جديدة مخالفة للشريعة.

٢ أن المادة تخاطب السلطة التشريعية لا القضائية، ومِن ثمَّ فلا يجوز للقاضي أن يترك القانون الصادر عن السلطة التشريعية بحال، مهما كان مخالفًا للشريعة.

٣ أن القوانـــين التي ســـبق ســـنها قبل هـــذا التعديل الدستوري اكتســـبت حصانة دستورية، ولا يمكن إسقاطها إلا بنصٍّ صريح مِن السلطة التشريعية.

وممَّـــا جاء في نص حكم المحكمة الدســـتورية أيضاً، قولهـــا: (ومن ثم صحَّ القـــول: إن اجتهاد أحد من الفقهاء ليس أحـــق بالاتباع من اجتهاد غيـــره، وربما كان أضعف الآراء ســـنداً، أكثرها ملاءمة للأوضـــاع المتغيرة، ولو كان مخالفـــاً لآراء اســـتقر عليها العمل زمنـــاً). وقولها: (فلا يجوز لنص تشريعي، أن يناقض الأحكام الشرعية القطعية في ثبوتها ودلالتها، باعتبـــار أن هذه الأحكام وحدها هي التي يكون الاجتهاد فيها ممتنعاً، لأنها تمثل من الشـــريعة الإســـلامية مبادئها الكلية، وأصولها الثابتة التي لا تحتمل تأويلاً أو تبديلاً).

وبمقتضـــى هذا الحكم.. أتى المُشـــرِّع الوضعي بقيد على الســـلطة التشـــريعية مؤداه إلزامهـــا فيما تقرره من النصوص التشريعية بأن تكون غير مناقضة لمبادئ الشريعة الإسلامية بعد أن عدهَّا الدستور أصلاً يتعين أن تردَّ إليه هذه النصوص أو تستمد منه لضمان توافقها مع مقتضاه.

(١) سأخصص بإذن الله تعالى مقالة أخرى لمناقشة تعديل نص المادة الثانية من (مبادئ الشريعة) إلى (أحكام الشريعة).

ومؤدى نص هذا الحكم.. أنه لا يجوز لنص تشـــريعي يصـــدر في ظلـــه أن يناقض الأحكام الشـــرعية القطعية في ثبوتها ودلالتها معـــاً، باعتبار أن هذه الأحكام وحدها هي التي يمتنـــع الاجتهاد فيها؛ لأنها تمثل من الشـــريعة الإســـلامية ثوابتها التي لا تحتمـــل تأويلاً أو تبديلاً، ومن غير المتصور بالتالـــي أن يتغير مفهومها تبعاً لتغير الزمان والمـــكان؛ إذ هـــي عصية على التعديـــل ولا يجوز الخروج عليهـــا، أما الأحكام غير القطعية في ثبوتها أو في دلالتها أو فيهما معا، فإن باب الاجتهاد يتســـع فيها لمواجهة تغير الزمان والمكان، وتطور الحيـــاة وتنوع مصالح العباد، وهو اجتهـــاد إن كان جائزًا أو مندوبًا مـــن أهل الفقه، فهو في ذلك أوجـــب وأولى لولي الأمر ليواجه ما تقتضيه مصلحة الجماعة درءاً لمفسدة أو جلبًا لمنفعة أو للأمرين معًا.

وبصدور الحكم السابق.. ينتهي عمليا الاختلاف حول جواب الســـؤال: هل يعني تطبيق المبادئ عدم سن قوانين مخالفة للشريعة الإسلامية؟

وينتقل تاريخ مكافحة الإســـلاميين القانونية لتطبيق الشـــريعة إلى منحى جديد، وهو النقاش بين الإسلاميين أنفســـهم حول مقصود (النصوص ظنيـــة الدلالة وقطعية الدلالة) وأثر ذلك في القوانين.

حيث رأى بعض الإسلاميين أنه على الرغم من صدور قيد لنص المادة الثانية، وهو الحكم بمنع سن قوانين جديدة مخالفة للشريعة، إلا أن ذلك جاء مُقيّداً بأنه في النصوص قطعية الدلالة، ممَّا يعني أن هذا القيد الذي أعملته المحكمة الدســـتورية وما زالت تعمل به قد حرَّر كثيراً من القوانين من الالتزام فيها بالشـــريعة، حيـــث إن النصوص قطعية الدلالة تمثل نسبة ضئيلة جداً من النصوص الشرعية في القرآن والســـنة، يقدرها بعضهم بنســـبة ١٠٪ فقط، وهي غالباً في أركان الإسلام والأحوال الشخصية وبعض مسائل الحلال والحرام، وهذا يعني أيضاً لدى بعضهم أن الأحكام الشرعية التي ســـتُطبق بحسب نص حكم المحكمة ربما لا تكون متعلقة بالحكم وبالسياسة والقضاء والاقتصاد وغير ذلك، لأن كثيراً من نصوصها ظنية الدلالة.

ولقد زاد من هذا النقاش الإســـلامي الإسلامي كون تقديـــر ما إذا كان الحكم الشـــرعي قطعي من عدمه هي مســـألة موضوعية خاصة بالمحكمة الدســـتورية خاضعة لتقديرها وحدها دون رقابة عليها من أحد.

و لكن هذا الاختلاف في الحقيقة كان محسوماً من الناحية العملية، لأنه ومن باب الإنصاف وإحقاق الحق لابدَّ من توضيح أمور:

أولاً: أنه قد جرت العادة في المحكمة الدستورية في حال الطعن على قانون بمخالفته للشريعة الإسلامية إرسال القانون بنصوصه لمجمع البحوث الإسلامية ليفصل فيه.

وثانياً: أن رئيس البرلمان في النظام البائد، كان يرسل كل القوانين المزمع إصدارها لمجمع البحوث الإسلامية ليبدي رأيه فيها قبل أن تصدر، حتى لا يُطعن على القانون بعدم الدستورية، فكانت بذلك مشروعات القوانين ابتداء من عام ١٩٩٦م تعرض على المجمع لضبطها على الشريعة إما سابقاً وإما لاحقاً في حال الطعن، أي أن القيد الذي تم تحريره تم عقده مرة ثانية عن طريق تحويل القانون للمجمع.

ثالثاً: لم يقم مجمع البحوث الإسلامية مطلقاً طيلة هذه المدة باختزال الشريعة الإسلامية في النصوص ثابتة الدلالة فقط أو في المبادئ دونما الأحكام.

وعلى كل حال.. فقد جرى إعمال المادة الثانية من الدستور وكان لها دوراً بارزاً في سنِّ القوانين؛ فاستناداً لنصها، وإعمالاً لحكمها، قضت المحكمة الدستورية العليا بعدم دستورية عدة نصوص قانونية خالفت أحكام الشريعة الإسلامية، منها، نص المادة الأولى من القانون رقم ٢٤١ لسنة ١٩٤٤م بفرض رسم أيلولة على التركات فيما قضى به من فرض ضريبة على صافي ما يؤول من أموال إلى كل وارث أو مستحق في تركة من يتوفى، وتستحق هذه الضريبة من تاريخ الوفاة، ونص الفقرة الثانية من المادة ٢٩ من القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٧م في شأن تأجير وبيع الأماكن وتنظيم العلاقة بين المؤجر والمستأجر، وذلك فيما نصت عليه من استمرار شركاء المستأجر الأصلي للعين التي كان يزاول فيها نشاطاً تجارياً أو صناعياً أو مهنياً أو حرفياً، في مباشرة ذات النشاط بها بعد تخلي هذا المستأجر عنها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أكدت المحكمة الدستورية – عملاً برأي مجمع البحوث – على شرعية بعض النصوص القانونية وجريانها على أحكام الشريعة الإسلامية، وكانت محل خلاف وطعن من بعضهم بزعم مناقضتها للمبادئ العامة للحريات والمساواة والتضامن الاجتماعي ومنها – على سبيل المثال لا الحصر – نص الفقرة الأولى من المادة الأولى من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠م المعدل بالقانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٨٥م فيما قضى به من إلزام الزوج بنفقة زوجته ولو كانت موسرة، ونص الفقرة الخامسة من المادة ٢٠ التي تنص على أن: (يثبت الحق في الحضانة للأم، ثم للمحارم من النساء، مقدماً فيه من يدلي بالأم على من يدلي بالأب، ومعتبراً فيه الأقرب من الجهتين على الترتيب التالي: الأم، فأم الأم وإن علت، فأم الأب وإن علت، فعمات الأب بالترتيب المذكور..).

وجدير بالذكر أن تحرر بعض القوانين كتلك التي تخصُّ الجرائم والعقوبات والضرائب وامتداد عقود الإيجار القديمة غير محددة المدة وغيرها عن القيد الدستوري باحترام مبادئ الشريعة الإسلامية وعدم جواز مخالفة أحكامها، يرجع لسببين:

الأول: إلزام المُشرِّع الوضعي في ذلك لا ينصرف سوى إلى التشريعات التي تصدر بعد التاريخ الذي فرض الدستور فيه هذا الإلزام، أما التشريعات السابقة على ذلك فإنها بمنأى عن الخضوع لهذا القيد.

الثاني: لأن السلطة التشريعية هي الجهة المخاطبة أصالةً بهذه المادة، وهي المنوط بها إعمالها واحترامها في أثناء ممارستها عملها، فإذا ما صدر نص أو قانون يخالف الشريعة الغرَّاء وأحكامها، يمكن لكل من يهمه الأمر – بشأن قضية هو أحد أطرافها – أن يطعن عليها أمام المحكمة الدستورية العليا، فإذا ما قضت المحكمة الدستورية بمخالفة النص المطعون عليه لأحكام الشريعة، فإن مقتضى نص المادتين (٤٨)، (٤٩) من قانون المحكمة الدستورية العليا الصادر بالقانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٧٩م أن يكون لقضاء هذه المحكمة في الدعاوى الدستورية حجية مطلقة في مواجهة الكافة، وبالنسبة إلى الدولة بسلطاتها المختلفة، باعتباره قولاً فصلًا في المسألة التي فصل فيها، وهي حجية تحول بذاتها دون المجادلة فيه أو إعادة طرحه عليها من جديد لمراجعته.

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

Available on the iPhone App Store

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

التحـــــالف النصراني – المغولي

ودوره في سقوط بغداد

د. فرست مرعي

مقدمة:

كان من أهداف الحملات الصليبية السيطرةُ على الأراضي المقدسة في بلاد الشام مهد المسيح (عليه السلام)؛ ولكن قيام كبار زعماء المسلمين أمثال: (عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي) باستردادهم لغالبية المدن والقلاع التي سبق للصليبيين أن استولوا عليها كبيت المقدس والرُّها وغيرهما، وعدم استطاعة الحملات الصليبية القادمة من أوربا تحقيق مآربها، جعل الصليبيون يفكرون في بدائل أخرى.

فعندما علموا بأن هناك شعباً وثنياً متوحشاً قادماً من أواسط آسيا قد ألحق الهزيمة بالدول والكيانات الإسلامية الواقعة إلى الشرق من الأراضي المقدسة (بلاد الشام)، وتحديداً الدولة الخوارزمية؛ لذا فلا مناص من التعاون والتحالف معهم، بقصد الإطباق على الإسلام من الشرق والغرب وإنهاء دوره، واستعادة الأراضي المقدسة بما فيها القدس «أورشليم».

المغول:

وهم شـــعب يشـــبه الترك إلى حد ما في اللغة والسحنة، يقيمون منذ زمن موغل في القدم، ويعيشون عيشة بدوية وسط إقليم مجدب موحـــش لا يُلقي أحد من جيرانهم إليهم بالاً؛ بل ظل اســـمهم غير معروف قروناً طويلة، بعكس ذوي قرابتهم من الأتراك الذين كانوا يتحكمون في مصير آسيا الغربية[١].

أما معنى اســـم المغول فما زال موضع خلاف، على الرغم من قول بعضهم إن اللفظة مشتقة من كلمة (mong) الصينية بمعنى باسل شـــجاع، وإن كان أحد المؤرخين المحدثين يرى أن المغـــول تحريف لكلمة (ماتحول) وهي إحدى قبائل المغول وكان زعيمها يســـمى (يسوجاي) وكان ســـليل عائلة نبيلة وهو والد تيموجين – تيمورجيه (جنكيزخان)[٢].

النصرانية والمغول الوثنيون:

عندمـــا بدأت البعثـــات النصرانية بالتغلغل داخل نســـيج القبائل المغوليـــة الوثنية، الذين كانت ديانتهم هي الشـــامانية القائمة أصلاً على السحر والشعوذة، فإنهم تمكنوا من تنصير بعض قيادات المغول وتحديداً نسائهم، والواقع أن هذا العطف الشديد على رعايا الإمبراطورية المغولية من النصارى من قبل (توراكينـــا خاتون) الأم، وكيوك الابـــن والقآآن (الخان الأعظم للمغول وســـليل جنكيز خان)، كان له آثار ســـريعة في الغرب الأوربي، ممَّا أغرى البابا (إينوسنت الرابع) الذي كان قد خلف (جريجوري التاسع)، وبدأ بتبني سياسة تقوم على تحول المغول إلى النصرانية كوســـيلة لإيقاف هجماتهم المدمرة على أوروبا؛ لأن الدين سيمنعهم من ذلك، وفي الوقت نفسه إمكانية استمالة خـــان المغول كيوك، إلى جانب الغرب الأوربي النصراني، وعقد تحالف نصراني – مغولي مشـــترك في مواجهة المســـلمين في الشرق الإسلامي[٣].

وقد اســـتقبل كيـــوك قآآن مبعوث البابا بمـــا يليق به من الاحتـــرام، غير أنه حينما تبين لـــه أن البابا يدعوه إلى اعتناق النصرانية، لم يســـعه إلا أن يردَّ عليه، طالبـــاً منه أن يعترف بســـيادته، وأن يقدم عليه مع ســـائر ملوك الغرب، لبذل يمين الـــولاء له. فلما عاد يوحنا بيـــان كاربيني إلى المقر البابوي في نهاية سنة ١٢٤٧م/ ٦٤٥هـ. قدم للبابا رسالة خان المغول، ورفع إليه تقريراً مسهباً أشار فيه إلى أن المغول لا يخرجون إلا للفتح أو الغزو، غير أن إينوسنت لم يشأ أن تتحطم أوهامه[٤].

فوجه سفارة أخرى برئاسة راهب دومنيكاني اسمه إسكلين Ascelin، فاجتاز بلاد الشـــام، ومضى إلى تبريز حيث التقى بالقائد المغولي بايجو في حزيران (يونيو) سنة ١٢٤٧م/٦٤٥هـ. على أن بايجو أبدى الاســـتعداد لعقـــد تحالف ضد الأيوبيين. إذ أعدَّ خطة لمهاجمة بغداد. ولذا كان من مصلحته أن يُشـــغل المســـلمين بالشـــام عن طريق إرســـال حملة صليبية لقتالهم، فأرسل مع المبعوث البابوي إسكلين الدومنيكاني في عودته إلى روما مبعوثين وهما: إيبك وســـركيس، ومن المحقق أن سركيس كان نصرانياً نســـطورياً، وعلى الرغم من أنهما لم يحملا شيئاً من سلطات التفويض، فإن آمال الغرب انتعشت مرة أخرى، إذ أقاما في روما نحو سنة، ثم عادا في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٢٤٨م/ ٦٤٦هـ، يحملان رســـالة من البابا يعلن فيها أسفه لما جرى من تعطيل التحالف المغولي – النصراني[٥].

وبينما كان الملك الفرنسي لويس التاسع في جزيرة قبرص، في طريقه الى حملته الصليبية الخامســـة على مصر، قدم إلى نيقوســـيا في كانـــون الأول (ديســـمبر) ١٢٤٨م/٦٤٦-٦٤٧هـ (مرقص وداود) وهما نصرانيان نسطوريان أيضاً، وأنهما جاءا من قبل الجيغداي نائب الخان علـــى إقليم فارس، وقدما إليه رســـالة تنطوي على ما يكنُّه المغول من عطف وميل للنصرانية، وإذ فرح الملك لويس بهذه الرســـالة، بادر بإرســـال سفارة من الرهبان الدومنيكان برئاســـة أندريا لونجيمو longjumean وأخيه وكليهما يجيد التحدث باللغة العربية. والواقع أن أندريا كان ينوب عن البابا فيما دار حديثاً من مفاوضات مع النصارى من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (الســـريان – المونوفيزيين). وقد حمل المرســـلون الرهبان معهم كنيســـة صغيـــرة متنقلة، علـــى أنها هدية تليق بالخان عنـــد اعتناقه النصرانية، وبعض المقدســـات الدينية اللازمة لهيكل ونظام الكنيســـة، فضلاً عن بعض الهدايـــا والتحف. فغادرت الســـفارة جزيرة قبرص في كانون الأول (ديســـمبر) ١٢٤٩م/٦٤٨هـ ومضت إلى حيث مقر الجيغداي، فوجهها إلى منغوليا، وحينما وصلت الســـفارة إلى قراقورم العاصمة المغولية، تبين لها أن (كيوك) القآآن قد مات، وأن أرملته (أوقول قايمش ogul gaimis) تولت الوصاية على

(١) أرمنيوس فامبري: تاريخ بخارى، ترجمة أحمد محمود الساداتي، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٥م، ص١٦١.

(٢) السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧م، ص٣٩.

(٣) يلاحظ أن البابا إينوسنت الرابع كان يختلف عن سلفه كريكوري التاسع ومن سبقه من الباباوات، بإدراكه حقيقة الخطر المغولي، ولهذا فإن محاولة التحالف مع المغول كانت بالغة الأهمية للأزمنة التالية بما اجتمع لديه من الدراية بأحوال المغول. ينظر:(نوار: المرجع السابق،ص٧٧هامش (١).

(٤) الباز العريني: المغول، ص١٨٩–١٩٠.

(٥) المرجع نفسه، ص١٩٠.

العرش، فاستقبلت السفارة بالترحاب الشديد، وعبَّرت عن تعاطفها الشديد تجاه النصرانية والنصارى، غير أنها عدَّت ما أرسله الملك الفرنسي لويس التاسع من الهدايا- كجزية- يؤديها التابع للخان، وأن الملك لويس يجب أن يضع نفسه تحت حماية سلطان الإمبراطورية المغولية، وأظهرت رغبتها الشديدة في عقد هذا التحالف المغولي - النصراني ضد المسلمين بالشرق، خاصة وأنه عرف عنها مدى كراهيتها للإسلام والمسلمين. على أن ما وقع من مشاكل بين أفراد الأسرة المغولية الحاكمة (والتي كانت هي السبب الرئيس وراءها) يمنعها إذا صحت نيتها أن ترسل حملة مغولية ضخمة إلى الغرب للاشتراك معاً في محاربة مسلمي الشرق[١].

ولما عاد أندريا مبعوث الملك لويس من منغوليا، التي مكث فيها نحو ثلاث سنوات لم يحمل معه سوى رسالة أعربت فيها الوصية على العرش عن شكرها لتابعها لويس التاسع على ما أبداه من اهتمام نحوها، وطلبت منه أن يواظب على إرسال الهدايا كل سنة. وعلى الرغم من ارتياع لويس التاسع لإخفاقه في هذه المحاولة إلا أنه لم ييئس مطلقاً، وكان يأمل أنه سوف يحل الوقت الذي يتم فيه عقد تحالف مع المغول[٢].

وكان ملك أرمينيا الصغرى (كيليكيا) هيثوم الأول قد بعث أخاه كوني تابل سطبل سمباد الأرمني إلى كيوك قاآن واستغرقت رحلته لمدة ثلاث سنوات ما بين ١٢٤٧-١٢٥٠م/ ٦٤٥-٦٤٨هـ، وقد فاق مبعوث البابا إينوسنت الرابع (كاربيني) في إدراك ما يعود للنصرانية من مزايا إذا تمَّ التحالف مع المغول. وقد استقبله كيوك في حفاوة بالغة، ومنحه براءة تكفل للملك هيثوم الأول الحماية والمحبة. وفي الرسالة التي بعثها سمباد في شباط (فبراير) سنة ١٢٤٨م من سمرقند إلى صهره - هنري الأول ملك قبرص - ما يشير إلى أهمية النساطرة في بلاط المغول وإمبراطوريتهم، إذ عاشوا في حماية الخان، وحظوا منه بالتشريف، وجعل لهم الامتيازات، وأعلن حمايته لهم من كل من يحاول إلحاق الأذى بهم[٣].

(١) المرجع نفسه، ص١٩١؛ عند وصول الملك لويس التاسع الى جزيرة قبرص عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ارسل ملكها رسالة من سمباط أخو هيثوم ملك أرمينيا الصغرى يشير إلى ما أحرزته النصرانية من نجاح كبير بين المغول في عهد الخان كيوك، وإلى أن الخان الأعظم نفسه قد اعتنقها قبل قليل من هذا التاريخ، وإن كاتب الرسالة زار بنفسه بيعة النصارى في سمرقند.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩١.

(٣) ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون: تاريخ مختصر الدول، وقف على تصحيحه وفهرسته أنطون صالحاني اليسوعي، دار الراية اللبناني- بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص٤٤٨، وقد سمي الملك الأرمني بـ (التكفور) في هذا المصدر، في حين انه يسميه بـ (هيثوم) في مصنفه الذي الفه باللغة السريانية وترجم الى العربية تحت عنوان (تاريخ الزمان).

تحالف الأرمن مع المغول:

عندما لمس النصارى في غرب آسيا سياسة التسامح التي درج عليها المغول إزاء النصارى بصفة خاصة. حاولوا التقرب إليهم ومحاولة اجتذابهم إلى صفوفهم حتى يستطيعوا بمعاونتهم أن يستردوا بيت المقدس خاصة، وبلاد الشام عامة من المسلمين. وكانت مملكة الأرمن الصغرى (كيليكيا) من أكثر الإمارات المطلة على البحر الأبيض المتوسط إدراكاً لأهمية الزحف المغولي. فمن المعلوم أن الأرمن شهدوا في اهتمام بالغ ما أصاب الجيش السلجوقي من هزيمة ساحقة عام ١٢٤٣م/ ٦٤١هـ، أمام الحملة المغولية التي قادها أحد ولاة الأقاليم، فصار بوسعهم تقدير ما يشكله جيش الخان الكبير من قوة لا سبيل إلى مقاومتها. ولهذا سعى الملك هيثوم الأول إلى خطب ودِّ المغول والتقرب إليهم بغية قيام تحالف معهم. فأرسل إلى القائد المغولي (بايجو) كتاباً يظفر بالولاء والاحترام[٤].

ويُعدُّ هيثوم أول ملك يقدم من تلقاء نفسه بزيارة قراقورم، (إذ إن الزائرين الآخرين كانوا إما أتباعاً للخان وإمَّا ممثلين للملوك)، فأقيم له حفل استقبال رسمي في ١٣ إيلول (سبتمبر) سنة ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ، ولقيَ حفاوة بالغة من الخان. وما بذله الخان السابق (كيوك) من ضمانات، تجددت واتسع نطاقها. وقد وعده الخان منكو بأن تعفى الكنائس والأديرة الأرمنية من الضرائب، وجرت معاملته على أنه كبير مستشاري الخان للنصارى في كلِّ ما يتعلق بأمور غرب آسيا[٥].

وكانت جهود هيثوم خلال المدة التي قضاها في قراقورم منصبَّة على إقناع الخان بالقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين، ومحاولة استعادة بيت المقدس من أيديهم، ويذكر أحد الباحثين أن هيثوم ألَّح في

(٢) الصياد: المرجع السابق ص٢١٤.

(٥) العريني: المرجع السابق ص١٩٩.

طلبه حتى وافق الخان في النهاية على مساعدة النصارى وتكليف أخيه (هولاكو خان) بالاستيلاء على بغداد وتدمير سلطة الخلافة العباسية[1].

لكن المستقرَّ عند جمهور المؤرخين هو أن اجتياح المغول لبغداد إنما كان بإغراء كلٍّ من الوزير ابن العلقمي ونصير الطوسي الرافضيَين الباطنيَين.

وفي الأول من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ، عاد هيثوم إلى بلاده محمَّلاً بالهدايا ومبتهجاً بما تكللت جهوده ومساعيه من نجاح، وارتحل عائداً إلى بلاده، وقد سلك طريق تركستان وفارس حيث بذل لهولاكو مظاهر الاحترام، ثم عاد إلى أرمينيا في شهر تموز (يوليو) سنة ١٢٥٥م/ ٦٥٣هـ[2].

وما حاوله الملك هيثوم من إقامة حلف نصراني لمساعدة المغول، لقيَ القبول عند نصارى المشرق (الوطنيين) وبعض الفرنجة، فأعلن بوهيمند السادس كونت أنطاكيا وصهر هيثوم موافقته؛ غير أن الفرنجة بسائر جهات آسيا نفروا منه. على أن هيثوم ظل مخلصاً لما جرى التفاهم عليه مع المغول. فتردد كثيراً على بلاط الإيلخانات، وبذل المساعدة العسكرية كلما دعت الحاجة المغولية إليها. وحارب الجيش الأرمني جنباً إلى جنب مع الجيش المغولي في آسيا الصغرى والشام. وما أحرزه المغول من انتصارات لم يهيَّأ لهيثوم أن يسترد فحسب ما انتزعه السلاجقة في منطقة قونيا من حصون وقلاع؛ بل يستعيد أيضاً ممتلكات كانت تابعة لكواسيل، فضلاً عمَّا حصل عليه فيما بعد من بلاد، بعد إغارة المغول على بلاد الشام[3].

(١) العريني: المغول ص١٩٩ ؛ الصياد: المغول في التاريخ ص٢١٥.
(٢) العريني: المغول ص١٩٩ ؛ الصياد: المغول في التاريخ ص٢١٥.
(٣) العريني: المغول ص٢٠٠، وتجدر الاشارة إلى أن الملك الأرمني هيثوم قد أقام تحالفات مع كثير من زعماء الفرنجة الصليبيين، عن طريق إجراء مصاهرات، إذ تزوجت أخته ستسفاني من هنري الأول ملك قبرص، وتزوجت أخته ماريا من يوحنا إبلين كونت يافا، كما إن بناته تزوجن من امراء من الفرنجة اللاتين، فتزوجت سبيل من بوهيمند السادس امير أنطاكيا، بينما كانت إيفيميا من نصيب جوليان كونت صيدا، وتزوجت ماريا من جاي إبلين ابن بلدوين سنجيل قبرص، أمَّا ابنته ريتا فتزوجها أرمني كان يتولى أمر حصن سارونتيكار. ينظر (العريني: المرجع السابق ص١٩٨ هامش ١).

هولاكو خان ودوره في تعزيز التحالف المغولي – النصراني:

إن وجود زوجة هولاكو خان بجواره في الحكم كان يمثل نكبة بل كارثة وقعت على رؤوس المسلمين، ليس فقط داخل الإمبراطورية المغولية، بل أيضاً في بلاد فارس والعراق وبلاد الشام. وكان وجودها يمثل العصر الذهبي الثاني للنصارى داخل الإمبراطورية المغولية بفارس، وخارجها. وكانت هي المحرض الرئيس لحملات هولاكو على العراق والتي أدت إلى إسقاط بغداد وتدمير الخلافة العباسية، ثم حملاته على بلاد الشام ومحاولته أيضاً غزو مصر، فيما يعرف بالحرب الصليبية المغولية ضد المسلمين في الشرق الأدنى على النحو الذي سنوضِّحه بعد قليل، وبحيث يمكن أن نطلق عليها بحق اسم المرأة الرهيبة، وتلك المرأة هي دوقوز خاتون، زوجة هولاكو خان.

دور النصارى في سقوط بغداد:

وعلى أية حال فبعد دخول هولاكو وجيشه إلى بغداد استباحوها لمدة أربعين يوماً (كان كل يوم منها عبوساً قمطريراً وشره مستطيراً) على حد تعبير المؤرخ الفارسي (وصاف)، وقتلوا أكثر من ثمانمئة ألف شخص كما يقول المؤرخ الانكليزي هورث (Howorth)، والفارسي وصاف، ولم ينجُ من مذابحهم حتى الطفل الرضيع ووجد النصارى الشرقيون في هذه الايام الرهيبة فرصة طيبة للتشفي من المسلمين.

وكان النصارى من طوائف: النساطرة والأرمن والجورجيين في جيش هولاكو، وكان لا يقلون عنفاً عن المغول أنفسهم. ولم يسلم من بغداد غير الأرقاء والنصارى الذين لجؤوا إلى كنيسة سوق الثلاثاء تبعاً لتعليمات الجاثليق النسطوري (البطريرك مكيخا).

كما أن الخليفة المستعصم بالله نال مصرعه مع كل أفراد أسرته وحاشيته. وعلى الرغم من أن رشيد الدين فض الله الهمذاني تغنَّى دائماً بأمجاد أسرة جنكيزخان، ويعدُّ المؤرخ الرسمي لهولاكو وأبنائه فإنه لم يسعه إلا أن يردد بأن الخليفة المستعصم وحاشيته ماتوا شهداء في سبيل الدين الإسلامي. على أن الاستيلاء على بغداد، وزوال الخلافة، ممَّا شجعت حاشية هولاكو من النساطرة، ابتداءً من زوجته دوقوزخاتون وقائده (كتبغا نويان)، تراءى كأنه من أعمال حملة صليبية نسطورية، ومن الدليل على ذلك ما كان من اختيار جاثليق النساطرة (مكيخا) ليكون رسولاً من قبل خليفة هولاكو.

مهما يكن من أمر، فإن المؤرخ النسطوري (صليبا)، بعد أنْ يذكر، أنَّ هولاكو فتح بغداد في عهد البطريرك مكيخا الثاني، يقول: «وأنعم هولاكو خان على هذا الأب (مكيخا) وأعطاه دار الخليفة المعروفة بدار الدويدار التي على الدجلة حتى يسكنها، وعمر فيها البيعة الجديدة (ورزق جاهاً عظيماً)، واستتاح (مات) يوم السبت الذي بعد الأحد الجديد، وهو ثامن عشر نيسان (إبريل) سنة ١٥٧٦ يونانية (١٢٦٥م /٦٦٤هـ... ودفن في البيعة الجديدة التي بناها (بدار الخليفة)...».

وعندما مات هولاكو في ربيع سنة ١٢٦٥م /٦٦٤هـ، ولحقت به زوجته دوقوزخاتون في صيف نفس العام «وقد شمل المسيحيون في كلِّ العالم حزناً شديداً على وفاة هذين النبراسين العظيمين المعززين للدين المسيحي».

موقف النصارى من سقوط بغداد:

ظهر المغول العتاة الوثنيون أنهم الثائرون لنصرة النصرانية، وقد أرسلهم الله من صحارى جوبى لتحطيم الإسلام. فمن الذي يقول: إن أولئك المبشرين النساطرة الفقراء، الذين ارتحلوا في القرن السابع الميلادي من سلوقية على نهر دجلة، أو من بيت (لاباط) للدعوة إلى الإنجيل في بلاد ساذجة في تركستان الشرقية ومنغوليا، سوف يجنون في يوم من الأيام محصولهم، فالواقع أنه حدث منذئذ أنَّ الإيغور في كوتشا وطورفان، والنمايمان بجبال التاي، والكرايت بشرقي جوبي، والإنجوت، في الجنوب الشرقي من منغوليا، إلى سور الصين الكبير الذي يقع على حدود بلاد الصين، استجابوا إلى جانب ديانتهم الأصلية، الشامانية إلى تعاليم البوذية والنصرانية النسطورية، وأضحى من بين المحاربين الذين صحبوا هولاكو، الألوف من النصارى، الذين يعدُّون من تلاميذ جاثليق كلديا (العراق)، فربطوا بتأثير من عقيدتهم، صليب النصرانية النسطورية المنصوب على مقابر بشبك إلى لواء مغول جنكيزخان.

وكان من أشمت الناس ببغداد عاصمة الخلافة، رجل أرمني يدعى كيراكوس الجنزوي الذي كتب في هلاكها يقول: «كانت بغداد مدة حيازتها عصا الملك أشبه شيء بعلقة تمصُّ الدماء: ابتلعت العالم كلَّه ثم قاءت عندئذ كل ما بلعت.... ولما طفح كيل مظالمها قدام الرب عوقبت على ما أراقت من دماء وما عملت من شرور... وقد دامت سيادة الطاجيك العدائية القاسية ٦٤٧سنة».

ولا سبيل إلى أن ننكر أيضاً مشاطرة النصارى، في معظمهم، رأي إسطفان أوربليان الذي عدَّ هولاكو ودوقوزخاتون بمنزلة «قسطنطين وهيلانة جديدين» و «أداتين من أدوات الأنتقام الإلهي من أعداء المسيح». ومن هذا القبيل أيضاً أنه لما أراد أحد المصورين من السريان اليعاقبة (أصحاب الطبيعة الواحدة – المونوفيزيين) في آيار ١٢٦٠م / ٦٦٠هـ، أن يعبر بالصورة عن انتصار الصليب (في المخطوطة السريانية رقم ٥٥٩ من مكتبة الفاتيكان)، استعاد تصور البيزنطيين للملك (قسطنطين وزوجته هيلانة) المسكين بالصليب، ولكنه أضفى على هذين ملامح (هولاكو و دوقوزخاتون). ونجد خلاصة ذلك كله في شهادة أخيرة اقتبسها الرحالة الإيطالي (ماركو بولو) من النصارى المحليين (الوطنيين)، إذ كتب يقول: «وأظنُّ أن ربنا أراد الثأر لنصاراه الذين كان الخلفاء العباسيون يكرهونهم أشد الكره...».

نماء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظما.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج و تصميم
BN
www.BNet.ws

مخاطر صيغ التمويل الإسلامية

وسبل مواجهتها لدى المصرف الإسلامي

مصطفى محمود عبد السلام(*)

مقدمة:

يمارس التمويل الإسلامي في المصرفيّة الإسلامية من خلال عدّة صيغ؛ كالمرابحة للآمر بالشراء، والإجارة المنتهية بالتمليك، والمشاركة المتناقصة أو المنتهية بالتمليك، والسَّلم والاستصناع وغيرها، وهذه تؤدّي بدورها إلى إيجاد اقتصاد حقيقي؛ لكونها قائمة على عقود المعاوضات أو المشاركات.

وهي عقود تؤثّر في إيجاد نشاط اقتصادي حقيقي؛ لكونها تساهم في نقل ملكية السلع والخدمات من المصرف الإسلامي إلى العاملين في الحياة الاقتصادية، أو أن تكون هناك شراكة بينهما، وهذا يعني أن التعامل بالديون هو الاستثناء وليس الأصل، وأنّ الدخل الحقيقي للنشاط الاقتصادي يتفوّق بمرات كثيرة على حجم الديون، الأمر الذي يسهم في توظيف قسم من هذا الدخل في تسديد هذه الديون، والقسم الآخر يحوّل إلى التوظيف بما يخدم النشاط الاقتصادي، وهذا يعني في النتيجة ندرة حدوث الأزمات الاقتصادية، لأنّ الدخل الحقيقي للنشاط الاقتصادي ينمو بمعدّل أكبر وأسرع من نموّ الديون.

تأسيساً على ذلك: فإنّ هناك عدد من مخاطر لصيغ التمويل الاسلامي تتأثّر المصرفية الإسلامية بها.

ومخاطر صيغ التمويل الإسلامية هي احتمالية مستقبلية قد تعرض المصرف الى خسائر غير متوقعة وغير مخطط لها؛ بما قد يؤثر على تحقيق أهداف المصرف وعلى تنفيذها بنجاح، وقد تؤدي في حال عدم التمكن من السيطرة عليها وعلى آثارها الى القضاء على المصرف وإفلاسه.

(*) خبير اقتصادي ومصرفي – بنك البركة مصر.

أولاً: صيغ التمويل المصرفية الإسلامية:

أ- واقع تطبيقات صيغ التمويل المصرفية الإسلامية:

تأتي صيغة المرابحة للآمر بالشراء في طليعة صيغ الاستثمار المطبقة في تلك المصارف بنسبة عالية.

وللتوضيح ببيان الأهمية النسبية لصيغ الاستثمار في عدد من المصارف الإسلامية، فإن المرابحة للآمر بالشراء هي الأسلوب السائد في استثمار الأموال في العديد من المصارف الاسلامية. (١)

ولقد تمَّ توجيه انتقادات كثيرة إلى المصارف الإسلامية وما زالت، بسبب اعتمادها بنسبة كبيرة على صيغة المرابحة للآمر بالشراء دون أن تفسح المجال للصيغ الأخرى بالقدر الكافي بالتطبيق في ميدان معاملاتها، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تدنّي المخاطر في هذه الصيغة عن بقية الصيغ الأخرى التي ترتفع فيها درجة مخاطر الاستثمار.

ولتفادي ذلك يمكن تنظيم نشاط المصارف الإسلامية بحيث يقيد قيامها بصيغة المرابحة للآمر بالشراء في حدود نسبة معينة من أصولها، حتى تضطرّ إلى استعمال صيغ أخرى أجدى على النشاط الاقتصادي، وإن كانت أكثر مخاطرة من صيغة المرابحة للآمر بالشراء. (٢)

حيث إن صيغة المرابحة منخفضة الكفاءة، وظهرت انتقادات جادة لهذه الصيغة واعتراضات عليها من قبل العديد من كتابات الاقتصاد الإسلامي، وذلك من ناحية انخفاض الكفاءة الاقتصادية:

١ - حيث يشتري المصرف السلعة، ثم يحوزها ويقبضها، ثم يبيعها للمشتري النهائي. وتظهر هنا مزاحمة المصرف للتجار على هذا النحو بالنظر إلى الأصول المالية التي يتمتع بها المصرف.

٢ - حيازة المصرف للسلعة وقبضها، مع أن المصرف ليس له أي غرض في السلعة أصلاً، فالقبض والحيازة تكلفة إضافية تخرج المصرف عن وظيفته الأساسية. ويزداد الأمر سوءاً إذا كان المشتري النهائي يقصد السيولة أصلاً، إذ سيحتاج حينئذٍ إلى بيع السلعة مرة ثالثة ليصل إلى مراده.

٣ - إن شراء العميل للسلعة من المصرف بثمن آجل ثم بيعها بثمن فوري لغيره (المصرف) صيغة غير كفوءة، إذ يتحمل المشتري تكاليف القبض والحيازة، ثم الخسارة بسبب البيع الفوري الذي يكون عادة أقل من ثمن الشراء.

٤ - تؤدي صيغة المرابحة إلى ضرر قد يلحق الاقتصاد الوطني، حيث إن اتجاه غالبية المرابحات إلى أنشطة اكتنازية أو لإشباع رغبات كمالية يمكن أن يؤدي إلى زيادة حدة التضخم ومعوّقات أمام الاستثمار الحقيقي(٣).

ومن ثَمَّ فمِنَ غير المقبول على الإطلاق أن تلجأ المصارف الإسلامية إلى التعامل بصيغة المرابحة للآمر بالشراء بنسبة كبيرة، وتهمل التعامل بالصيغ الأخرى أو تتعامل بها بنسب متدنية، والمطلوب منها في هذه الحال أن تساوي أو تقارب بين الصيغ في التعامل إلى حدٍّ كبير.

ب: الصيغ الأخرى للتمويل الإسلامية التي تطبق بنسب أقل:

إنّ تطبيق صيغ الصيرفة الإسلامية من مضاربة ومشاركة واستصناع وسلم ومزارعة ومساقاة وإجارة وغيرها في معاملات المصارف الإسلامية يُعدُّ إثراءً لها، وتعزيزاً لوجودها، وإثباتاً لها على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي، وإسهاماً في إنجاحها وأداء رسالتها في تنمية الأنشطة الاقتصادية المختلفة.

إلا أنه على الصعيد التطبيقي فإننا نلمس أن عدداً ضئيلاً من تلك الصيغ يطبق في المصارف الإسلامية، والقسم الأكبر منها لا نرى لها أثراً في معاملاتها.

إنّ وظيفة المصارف الإسلامية تتمثل بإدارة السيولة المتوفرة عندها من خلال اعتماد صيغ التمويل التي مرّ ذكرها في دعم الأنشطة الاقتصادية، الأمر الذي يؤدي إلى تجنب وقوع الأزمات المالية ومنها الأزمة المالية الحالية في مختلف القطاعات الاقتصادية.

ولذلك فإن صيغة الاستصناع في حال اعتمادها في المصارف الإسلامية يمكنها أن تسهم في تمويل قِطَاع الصناعة، الأمر الذي ينعكس إيجاباً عليه إن كان يعاني من أزمة اقتصادية، وإن صيغ السَّلم والمزارعة والمساقاة والمغارسة في حال اعتمادها أيضاً يمكنها أن تسهم في تمويل قِطَاع الزراعة، الأمر الذي ينعكس إيجاباً عليه إن كان يعاني من أزمة أيضاً، وإن صيغة المضاربة في حال اعتمادها أيضاً تسهم في تمويل قطاع التجارة، الأمر الذي يؤدي إلى تنمية هذا القطاع إن كان

---

(١) د.دوابه، أشرف محمد، صناديق الاستثمار في المصارف الإسلامية بين النظرية والتطبيق، دار السلام، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٢، ٢٣، ٢٤.

(٢) د. عطية، جمال، المصارف الإسلامية بين الحرية والتنظيم، التقليد والاجتهاد، النظرية والتطبيق، كتاب الأمة الصادر رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر، العدد ١٣، صفر ١٤٠٧ هـ، ص١٥٦.

(٣) د. المكاوي، محمد محمود، التمويل المصرفي الإسلامي، بدون ناشر، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٨٠، ١٨١.

يعاني من أزمة، وهكذا بالنسبة إلى بقية الصيغ الأخرى.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الملاحظ في أرض الواقع أن غالب إدارات المصارف الإسلامية تلجأ إلى استثمار إيراداتها في المشاريع القصيرة الأجل، ونادراً ما تلجأ إلى استثمارها في المشاريع المتوسطة والطويلة الأجل، الأمر الذي يجعلها بذلك تبتعد عن الإطار النظري المفترض لها من حيث اعتمادها على جميع الصيغ الموضوعة لها، ومن حيث إسهاماتها في تحقيق تنمية مجتمعاتها.

وفيما له عَلاقة بأجل الاستثمار ومجاله في هذه المصارف، فقد استحوذ الاستثمار التجاري القصير الأجل على غالبية الاستثمارات في هذه المصارف، بينما لم يحظ الاستثمار الطويل الأجل على أي أهمية تذكر، كما ركزت على قطاع التجارة، بينما لم تهتم بتوجيه استثماراتها إلى قطاعي الزراعة والصناعة على الرغم من أهميتهما لعملية التنمية[1].

وهناك العديد من الصيغ الاستثمارية التى يمكن للمصارف الإسلامية أن تمول العملية الإنتاجية في المجتمع ومنها:-

أ - صيغة السَّلم:

السّلم في اللغة: يرد بمعنى الإعطاء والترك والتسليف، أما في الاصطلاح الفقهي فهو عبارة عن بيع موصوف في الذمة ببدل يعطى عاجلاً[2].

إن بيع السَّلم هو من أكثر البيوع ملائمة لتمويل النشاط الزراعي، إذ يقوم المصرف بتقديم التمويل اللازم للمزارعين الذين يتوقع أن تتوفّر منتجاتهم الزراعية في موسم معين، ويتيح لهم بالتالي تغطية الفترة الفاصلة بين بدء الإنتاج وموسم الحصاد[3]. وإن هذا العقد يصلح للتطبيق في البلاد التي يعتمد اقتصادها على القطاع الزراعي.

وبذا يظهر أن صيغة السَّلم يمكن أن تلعب دوراً في تنشيط القطاع الزراعي إذا كان يعاني من أزمة في التمويل، من خلال تمويل هذا القطاع قبل موسم الإنتاج، حيث تقوم المصارف الإسلامية بتملّك الموسم الزراعي، ثم تبيعه بسعر أعلى.

ومن المؤسف أن نجد أن نسبة تطبيق هذه الصيغة في المصارف الإسلامية متدنية كثيراً، وبحسب دراسة قامت بها هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، فقد تبيّن أن التمويل بصيغة السّلم يمثل حوالي ٥٪ من إجمالي التمويل الممنوح من قبل المصارف التي شاركت في الدراسة.

ب- صيغة الاستصناع:

الاستصناع - لغة - سؤال الصنع أو طلبه، وفي الاصطلاح الفقهي: طلب عمل شيء خاص، على وجه مخصوص، مادّته من الصانع. فإذا قال شخص لآخر من أهل الصنائع: اصنع لي الشيء الفلانيّ بالأوصاف التالية بكذا درهماً، وقبل الصانع ذلك، كان ذلك استصناعاً[4].

وبناءً عليه، فإن الاستصناع عقد مع صانع على عمل شيء في الذّمّة، كالاتفاق مع نجار على صناعة مكتب أو مقاعد، أو غرفة مفروشات أو صناعة باخرة أو طائرة أو سيارة أو بناية، وتكون مادة العين المصنوعة من الصانع.

وقد أصبح للاستصناع في عصرنا الحاضر أهمية كبيرة، حيث اتجه الناس إليه في بناء السفن وتصنيع الطائرات المدنية والحربية وتجهيز الآلات وصناعة السيارات، وغير ذلك من المصالح والحاجات، فصار هذا العقد من أهم العقود الدولية والمحلية في مجال الصناعة، وأدى ذلك إلى تنشيط حركة التبادل والتعامل وتسهيل المعاملات على كلّ من الصانع والمستصنع في المعامل والمصانع المختلفة[5].

ج- صيغة الإجارة المنتهية بالتمليك:

وتسمى أيضاً البيع الإجاري، وهو إيجار ينتهي بالبيع (بالتمليك)، وذلك بأن يقوم المصرف بتأجير شيء استعمالي - وهو ما ينتفع به مع بقاء عينه، وتسمى أيضاً السلع المعمّرة أو الأصول الثابتة - إلى العميل بأقساط معينة ومحدّدة الآجال، فإذا أدّى المستأجر الأجرة انتقلت السلعة إلى ملك المستأجر بعقد جديد عن طريق الهبة أو عن طريق البيع بثمن رمزي[6].

إنّ اعتماد هذه الصيغة من قبل المصارف الإسلامية يساهم في تفعيل وتنشيط عدّة قطاعات اقتصاديّة، وأهمها القطاعات العقارية والصناعية والتجارية؛ ذلك لأنّ هذه الصيغة يمكن أن تطبق في مجالات إجارة العقارات والآلات والمعدات المختلفة، الصناعية والتقنية؛ بما فيها أجهزة الحاسب الآلي، وبالتالي يتيح هذا الأسلوب الاستثماري للزبون أو العميل هامش حرية

(١) د. دوابه، أشرف محمد، دور الأسواق المالية في تدعيم الاستثمار طويل الأجل في المصارف الإسلامية، دار السلام، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م، ص ٣٢٠.غف

(٢) د.حماد، نزيه، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، مرجع سابق، ص٢٤٨.

(٣) د. الشعار، محمد نضال، أسس العمل المصرفي الإسلامي والتقليدي، مرجع سابق، ص٤٨.

(٤) التعريف لصاحب مرشد الحيران، المادة٥٦٩(معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، مرجع سابق، ص٥٥).

(٥) المرجع نفسه، ص٥٧.

(٦) د. المصري، رفيق يونس، المصارف الإسلامية...، مرجع سابق، ص٣٠.

أكبر في اختيار الأصول التي يرغب بامتلاكها[1].

وفي دراسة قامت بها هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية والإسلامية حول تطبيق صيغتي الإجارة والإجارة المنتهية بالتمليك في ٢٠ مصرفاً إسلامياً، تبيّن أن نسبة عمليات هاتين الصيغتين تتراوح بين ٢ ٪ و٦٠ ٪، أي بمتوسط ١٢٪ فقط[2].

ولعلّ تدني هذه النسبة يرجع إلى أن هذه الصيغة تحتاج إلى وقت طويل حتى تؤتي نتائجها الاستثمارية، الأمر الذي لا تحبذه إدارات المصارف الإسلامية الراهنة كثيراً.

إن صيغة الإجارة المنتهية بالتمليك تتلاءم مع الاستثمار الطويل الأجل، وتسهم بالتالي في تجنب وقوع الأزمات المالية في حال اعتمادها من قبل المصارف الإسلامية القائمة.

ثانياً: كيفية مواجهة مخاطر صيغ التمويل الإسلامي:

١ - مواجهة مخاطر صيغة المشاركة:

تتكون عقود المشاركة في الربح والخسارة من عقود المشاركة والمشاركة المتناقصة المنتهية بالتمليك والتي يشترك فيها المصرف والعميل في رأس المال، بحسب نسب متفق عليها بينهما. وفي حال الخسارة يتم توزيعها بحسب نسبة كل منهما في رأس المال، أما في حال الربح فيكون بينهما بحسب نسبة أخرى متفق عليها قد لا تكون هي ذاتها نسب الخسارة.

• وتتأتى المخاطرة في مشروعات المشاركة من سوء الإدارة، أو بيع المشارك الآخر حصته إلى طرف ثالث، أو من تعذر تشغيل المشروع أو فشله في إنتاج السلعة أو الخدمة المطلوبة، أو من عدم القدرة على تسويق وتصريف منتجات المشروع أو فشلها.

• ولعل تناقص ملكية المصرف في المشروع في عقود المشاركة المنتهية بالتمليك يقلل من مخاطره نظراً لانخفاض نسبته في رأس المال. إلا أن هذا لن يكون إلا بعد فترة يكون المشروع قد تجاوز الكثير من المخاطر التشغيلية والتسويقية. الأمر الذي يعني تراجع حجم ومستوى المخاطرة أيضاً.

٢- مواجهة مخاطر عقود المضاربة

• تكون المخاطرة التعاقدية في عقود المضاربة، التي يكون فيها المصرف الإسلامي صاحب المال، أكبر منها في أي عقود أخرى. وذلك لأن الخسارة تقع على صاحب المال لوحده ولا يتحمل صاحب العمل أي خسارة مادية، ما لم يثبت الإهمال أو التعدي أو التقصير.

• وتأتي المخاطرة في عقود المضاربة من صاحب العمل الذي قد لا يكون كفئاً أو خبيراً في إدارة وتصريف منتجات المشروع، أو من المشروع نفسه أو منتجاته.

ويمكن أن تنتج المخاطرة من عدد من العوامل مثل:

(١) تجاوز المدة الكلية للتمويل دون إتمام الصفقة.

(٢) سوء أمانة رب العمل أو نقص كفاءته وسوء إدارته للمشروع.

(٣) عدم الالتزام بشروط عقد المضاربة.

(٤) أو قد يكون الناتج النهائي خسارةً أو ربحاً ضئيلاً.

٣ - مواجهة مخاطر عقود المرابحة:

تختلف طبيعة المخاطر في عقود المرابحة عنها في عقود المشاركة أو المضاربة، من حيث إن مستواها واحتمال حدوثها أقل. وتنشأ المخاطرة في عقود المرابحة من ثلاثة مصادر هي:

المصدر الأول ويكمن في رفض العميل التوقيع على عقد المرابحة للسلعة عندما يتملكها المصرف وقبل أن ينقلها إلى العميل. وفي هذه الحال يقوم المصرف ببيع السلعة إلى طرف ثالث. فإذا باعها المصرف بمثل ما اشتراها به، انتفت المخاطرة، وسدد المصرف حساباته. أما إذا باعها بأقل ممَّا اشتراها به، فيمكن للمصرف تغطية هذه الخسارة من خلال التأمين النقدي المودع لديه من قبل العميل الآمر بالشراء أو من خلال كفيله.

المصدر الثاني وينشأ عن وجود عيب في السلعة أو صلاحيتها، حيث يكون من حق العميل الآمر بالشراء رفض استلام السلعة، ولا يكون للمصرف الحق في الحصول على تعويض منه. وفي هذه الحال يمكن للمصرف الرجوع إلى البائع الأصلي وردِّ السلعة له. وهنا تكمن المخاطرة في رفض البائع الأصلي رد السلعة وإعادة قيمتها للمصرف، وهنا سوف يضطر المصرف إلى بيع السلعة مع بيان عيبها بأبخس الأثمان، ويتحمل المصرف لوحده كامل الخسارة.

المصدر الثالث وينشأ عن تخلف العميل الآمر بالشراء عن التسديد أو تأخره في التسديد. حيث لا يوجد في العقود الإسلامية شرط جزائي على التأخير في السداد، كما لا يوجد مكافأة للتعجيل في الدفع قبل تاريخ الاستحقاق. ولذلك تحرص المصارف الإسلامية على وجود كفيل قادر على تغطية عجز العميل عن التسديد، إن حدث ذلك.

---

(١) الشعار، محمد نضال، أسس العمل المصرفي الإسلامي والتقليدي، مرجع سابق، ص٦٢.

(٢) المعايير، مرجع، سابق، ص٣٣٢.

٤- مواجهة مخاطر عقود السَّلَم:

تنشـــأ مخاطـــر عقود السَـــلَّم، في معظمها، من الســـوق والتغيرات في الأســـعار، وخاصة انخفاض سعر السلعة المتفق على تســـليمها في الأجل والمدفوع والمحدد سعرها في العاجل. فانخفاض ســـعر السلعة في الســـوق يعني أن المصرف سوف لن يكـــون قادراً على تحقيـــق أي أرباح من عقد السَـــلَّم كون الســـعر الذي دفعه عاجلاً سوف يكون أكثر من سعر بيعها عند اســـتلامها. وبهذا تكون مخاطرة المصـــرف ليس فقط بمقدار الفرق بين ســـعر البيع الأقل وسعر الشراء الأعلى. وإنما أيضاً بمقـــدار ضياع الفرصة البديلة المتمثلة في مقدار الربح المتوقع من عقد السَلَّم.

كذلك تنشأ مخاطر عقود السَلَّم عند عدم قدرة البائع على الوفاء بالتزاماته، أي بتسليم السلعة المتفق عليها في عقد السَلَّم لأســـباب خارجة عن إرادته بالنســـبة إلى نوع السلعة وجودتها وكميتها.

٥ - مواجهـة مخاطـر عقـود الاسـتصناع والاسـتصناع الموازي:

تكمن مخاطر عقود الاســـتصناع في الســـلعة المتفق على تصنيعها، من حيث عدم صلاحية المنتج. وبالتالي يكون للعميل الحق بالرجوع علـــى الصانع أو المقاول الذي هو المصرف. كما تكمن المخاطرة في مدى التزام الصانع بالزمن المحدد لتســـليم المنتج.

وأمـــا المصدر الآخر للمخاطرة في هـــذا النوع من العقود فينشـــأ عن تخلف أو تأخر المصنوع له عن تســـديد باقي ثمن المنتج.

كما يمكن تلخيص مخاطر عقود الاستصناع و الاستصناع الموازي بما يلي:

١- تقلبات الأسعار بعد تحديدها في عقد الاستصناع.

٢- تأخر الصانع في تسليم البضائع في حال كان المصرف مستصنعاً.

٣- تأخر المقاول أو المنتج في تســـليم الأصل المستصنع في حال كان المصرف صانعاً، ممَّا يؤدي إلى تأخر موعد التســـليم ودفع غرامات تأخير.

٤- عدم ســـداد العميل المستصنع أو تأخره عن السداد مع عدم قدرة المصرف على رفع السعر نتيجة التأخير.

٥- التقلبات في أسعار المواد الأولية اللازمة للاستصناع.

٦ - مواجهة مخاطر عقود الإيجارة:

• تُعـــدُّ مخاطر عقود الإيجارة مخاطـــر ملكية، كون الأصل المؤجـــر ما تـــزال ملكيته للمصرف. وتنشـــأ المخاطرة هنا عن احتمال تلف أو تقادم أو انخفاض قيمة الأصل، التي لا يستطيع المصرف تحويلها إلى المستأجر.

• كما تنشأ عن تخلف المســـتأجر عن تسديد باقي أقساط الأصل أو رفض المستأجر تملك الأصل بعد انتهاء عقد الإيجارة، وبالتالـــي إعادته إلى المصرف الذي يجـــب عليه أن يبيعه في أقرب وقت ممكن، تنفيذاً لتعليمات الســـلطة النقدية التي تمنع المصارف من إبقاء ملكيـــة الأصول والأعيان لدى المصارف إلا لغايات تمويلية.

الإجراءات المطلوبة لمواجهة المخاطر بشـــكل عام وتحسين أداء المصارف الإسلامية

• المزيد من التعاون المكثف والمتطور بين الســـلطات النقدية والأجهزة الرقابية والمؤسسات المالية في السوق.

• ضرورة الاستفادة من تكنولوجيا الاتصالات والإنترنت في مشاركة الأفكار والدراسات والأحكام الشرعية وغير ذلك فيما يتعلق بعمل المصرفية الإسلامية.

• تطويـــر المنتجات المالية المقبولة شـــرعاً لكي تنافس من حيث الفاعلية المالية المنتجات التقليدية.

• تحســـين الأداء عن طريق الاستفادة من الأفكار والتقنيات والخبرة المطورة خارج الصناعة المصرفية.

• ضرورة التوسع في طرح وابتكار المزيد من المنتجات المالية المتوافقة مع أحكام الشـــريعة، وذلك لاستيعاب السيولة الكبيرة المتوفرة لدى المصارف الإسلامية

• إنشـــاء نظام مالي يتمتع بالخبرة والمرونة ويمتلك الكفاءة والقدرة التنافسية ممَّا يسهم بقوة في عملية النمو.

• على المؤسسات المالية والإسلامية أن تتيح تقاريرها المالية للعموم تحقيقاً للشفافية المالية.

• ضرورة وجود تشريعات جديدة توحد المعايير التي تتبعها السوق المالية الإسلامية للمساهمة في قيامها بدور أكثر حيوية على المستوى العالمي.

• ســـعي المصارف والمؤسســـات المالية الإسلامية للاندماج المصرفـــي، والتوجه نحو التكتـــل والتكامل فيمـــا بينها لخلق تجمعات مصرفية ذات حجم أكبر وقاعدة أوسع على المستويين المحلي والدولي.

الرضيع

طفلي الرضيع

خصائصة ـ صحته ـ تربيتة

مشروعنا
وظف مختلف
المتخصصين

مشروعنا:

- بناء علمي منهجي.
- تنويع في شكل المعلومات.
- توظيف المتخصصين بكافة مجالاتهم في مراحل المشروع.
- توسيع دائرة المشرفين في منتجات المشروع.
- تنويع بيئات المشاركين وتجاربهم.

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

من صفات جيل النهضة

التمكن من الحق والاستعلاء به

توفيق علي زبادي

إن القرآن الكريم يُربي حملته - حملة الحق - الناهضون به، على التمكن من الحق والاستعلاء به، دون الاستعلاء للنفس. إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة أعداء الله، فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس (يخطر) في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها. إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور باللّه، ومنهجه في الحياة.

إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم؛ لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين اللّه على دين الهوى، وبغلبة قوة اللّه الباقية على تلك القوى الفانية.

أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حساباً. ولا يبغون فيها كذلك فساداً. أولئك هم الذين جعل اللّه لهم الدار الآخرة.

خطاب الله – سبحانه وتعالى – لرسوله ﷺ وأتباعه من بعده:

لقد خاطب الله – سبحانه وتعالى – رسوله ﷺ فقال – تعالى –: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، و لشم يخاطب الله – تعالى – أحداً من رسله بمثله، فكان ذلك شهادة لرسوله بالعظمة الكاملة المنزهة عن كل نقص؛ لما دلَّ عليه حرف (عَلَى) من التمكن، وما دلَّ عليه اسم (الْحَقِّ) من معنى جامع لحقائق الأشياء. وما دلَّ عليه وصف (مبين) من الوضوح والنهوض، وفي الآية إشارة إلى أن الذي يعلم أن الحق في جانبه حقيق بأن يثق بأن الله مُظْهر حقه، ولو بعد حين[١].

وقال – تعالى –: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، والصراط المستقيم: هو العمل بالذي أوحي إليه، فكأنه قيل: إنه صراط مستقيم، ولكن عدل عن ذلك إلى ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ليفيد أن الرسول ﷺ راسخ في الاهتداء إلى مراد الله – تعالى – كما يتمكن السائر من طريق مستقيم لا يشوبه في سيره تردد في سلوكه ولا خشية الضلال في بنياته.

وهذا تثبيت للرسول ﷺ وثناء عليه بأنه ما زاغ قيد أنملة عمَّا بعثه الله به، كقوله – تعالى –: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] ويتبعه تثبيت المؤمنين على إيمانهم[٢].

وقال – تعالى –: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، أمره بالتوكل على اللّه وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشكّ والظنّ. وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع اللّه وبنصرته، وأن مثله لا يُخذل[٣].

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (عَلَى) وكيف يكون المؤمن مستعليا على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة (عَلَى) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته.

وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه كقوله – تعالى –: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقوله – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله – تعالى –: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وقوله – تعالى –: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]، وتأمل قوله – تعالى –: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين[٤].

فصاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتَقر.

فإن قلت: إن ما سبق ذكره من آيات وردت في حق الرسول الكريم ﷺ وهذا لا خلاف من تمكنه من الهدى، لكن أين المؤمنون من التمكن من الهدى؟

قلت: ورد هذا المعنى في حق المؤمنين في قوله – تعالى –: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

وَقَوْلُهُ ﴿عَلَى هُدًى﴾ تَعْبِيرٌ يُفِيدُ التَّمَكُّنَ مِنَ الشَّيْءِ كَتَمَكُّنِ الْمُسْتَقِرِّ عَلَيْهِ[٥].

والإتيان بحرف الاستعلاء تمثيل لحالهم بأن شبهت هيئة تمكنهم من الهدى وثباتهم عليه ومحاولتهم الزيادة به والسير في طريق الخيرات بهيئة الراكب في الاعتلاء على المركوب والتمكن من تصريفه والقدرة على إراضته[٦].

هذا وصف القرآن الكريم للفئة المؤمنة الناهضة بتكاليف الإيمان، فأين نحن من التمكن من الحق، ورفعه، والارتفاع به، والاستعلاء على جميع المناهج الأرضية به؟

(١) التحرير والتنوير: ١٩/ ٣٠٥.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٥/ ٢٦٠.
(٣) الكشاف: ٣/ ٣٨٣.
(٤) التفسير القيم لابن القيم: ١/ ١٤.
(٥) المنار: ١/ ١١٥.
(٦) التحرير والتنوير: ١/ ٢٣٩.

لماذا كثر المَعُوقون في بلادنا العربية؟

هل تصدق أن نسبة المعوقين في بلادنا تبلغ٩٥٪؟ وهذه النسبة ليست بمؤكدة فهي قابلة للزيادة.

هذه قضية تحتاج لعلاج، أنا لا أقصد الإعاقة الجسـدية، وإنما أقصد إعاقة الإرادة، وهي أن يستطيع المرء أن يفعل شيئاً ولا يسعى له، فكم رأينا من أناس يستطيعون القيام بأعمال نافعة له ولبلاده، ولكنهم لا ينهضون إليها، ألفوا الراحة والكسل، وآثروا البطالة على العمل، وفضلوا الشكوى على العلاج، وانتظار المساعدة من الآخرين على الغنى، نرى الكثير من الناس يريدون الوصول للوظائف الحكومية، حتى يجدوا الراتب الشهري، والبطالة المقنعة، حيث لا يجدون فيها شيئاً عظيماً يكلفهم بذلاً للجهد، إن أرشـدتهم إلى عمل تجاري فيه شـيء من المغامرة تعللوا بعدم استطاعتهم أو خوفهم من الخسـارة، فيريدون أن يدركوا من الحياة الغنائم الباردة رخيصة دون أن يبذلوا الثمن، وإن نصحتهم بالاجتهاد والعمل ليحققوا ما يتمنون، أخذوا يحصون الأعذار والمبررات، التي تبرر لك عجزهم.

مظاهر الإعاقة في بلادنا:

١ ـ الحرص على المنافع الشخصية والأسرية، ثم الإعراض عن الأعمال التطوعية التي فيها نفع لعامة الناس.

٢ – البحث عن الأعمال السهلة، وترك الأعمال الصعبة التي فيها شيء من المغامرة.

٣ – كثرة الشكوى من المشكلات وعدم السعي لعلاجها.

٤ – النظر لما في أيدي الناس من مال ووظائف وأعمال، والتحسـر على ما فاته من حظوظ الدنيا، والجلوس عن السعي نحو ما يحقق أهدافه.

أسباب الإعاقة:

١ – البعد عن منهج الله، فالمنهج الإسلامي هو خير طريق لبناء للشخصية الإسلامية في جوانبها المتعددة؛ بل هو كفيل بإذن الله في علاج مشكلات الإنسان وتحقيق ما يسعى له من طموحات، فهو يربي المسلم على الإخلاص في العمل وقوة الإرادة والصبر وغير ذلك ممَّا فيه خير عظيم للبشـرية جمعاء، فالبعد عن ذلك المنهج يجعل المرء ضعيفاً، وإن قام بالبناء والعمل الجاد كان عمله مشوباً بالنقص.

٢ – ضعف التربية الأسرية منذ الصغر، وعدم التوجيه إلى الجدية المطلوبة.

٣ – كثرة الشهوات والمغريات، فلا شك أن لها أثراً كبيراً في ضعف الإرادة الشخصية.

٤ – اعتياد الراحة والكسل، والبعد عن القيام بالإنجازات ولو كانت صغيرة.

سبل العلاج:

١ ـ معرفة المسلم لواجبه نحو أمته في نصرتها ونصرة دينها وقضاياها المختلفة.

٢ – الاهتمام بالتربية الذاتية، فكلُّ مسلم مسؤول عن نفسه، من إصلاحها وتزكيتها.

٣ – الاهتمام بالمحاضن التربوية التي تقوم على تربية أبناء الأمة مثل الأسـرة و المسـاجد والمدارس والمؤسسـات التربوية، والتعاون فيما بينها لعلاج هذه المشكلة، والعمل على إيجاد سبل لذلك.

٤ – الاهتمام بتربية الأطفال على الجدية وخشـونة العيش والبعد عن الترف، الذي قد ينشأ عنه البطر والإسراف، وعدم تقدير النعم حق قدرها، والتأمل في سيرة النبي ﷺ من أفضل ما يعين على ذلك.

أحمد نصيب علي حسين(*)

Ahmedn410@yahoo.com

(*) مصر، محافظة بني سويف، مركز الوسطى، كفر بني عثمان، عزبة نايف خليفة.

خواطر وجدانية: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤] (*)

ذات صباح... أطلَّت ثلَّة مباركة.. نيِّرة وجههم، طيبة نفوسهم، كريمة أخلاقهم... إمامهم عمر، وقائدهم عمرو... على أكتافهم رأية الهداية، يرمقون الأرض الليبية وقد غشيها الظلام.. إنهم فرسان الإسلام، أتوها من بلاد بعيدة يحملون إليها نوراً ربانياً، وهدياً قرآنياً.. هاهم يرصُّون الصُّفوف، ويهيئون النفوس، يقفون بشموخ على مشارف أرضها، وينادي منادي الكفاح «يا خيل الله اركبي» فيتعالى الصياح، وتتناثر الرماح، وتهبُّ الرياح؛ لتبشر السهل والبطاح... الله أكبر.. الله أكبر... حي على الفلاح.

هتاف يزلزل الأرض، تتهاوى دونه الرايات، وتتساقط عروش الكفار فيأتي النصر يطهر الترب شبراً شبراً.. مِصراً مصراً.. الله أكبر، تطرق أسماع الليبين لأول مرة؛ غير أنها تلامس في قلوبهم الفطرة، فيدخل الناس في دين الله أفواجاً ويتخذونه هدياً ومنهاجاً.. ويبزغ الفجر فيغمر أرجاء أرضهم نوراً.. ويعطر أجواءها ذكراً.. تتفتح أفئدتهم متعطشة للإيمان.. وتتشنَّف آذانهم توَّاقةً للقرآن، ثمَّة تناغم جميل، وحب فريد بين الشجر والحجر، والجبل والبحر، والرمل والمطر، والطير والبشر، كلها تسبِّح لله وتحني له الجباه، حينها تبتهج الحياة؛ فتسطع الشمس باسمة تلقي إليهم بأشعتها البرَّاقة تحية إجلال! وتطير العصافير، حاملة على أجنحتها التباشير.. إلى الحجاز حيث الخليفة الأمير والجمع الغفير، والخير الوفير فتعلو أصواتهم؛ لتعانق تكبيرات إخوانهم ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤ - ٥] ما أعظم فرحهم! وما ألذَّ عيشهم! كلَّما هاجت بفكر الذكريات، ومرَّت بخاطري تلك اللحظات؛ اهتزت أوتار الشوق والحنين وتعاقبت الأجيال عليها؛ لكنَّ الزمن يتقلب والنفس منه تتحير وتتعجَّب تمرُّ بأمتي الحبيبة أزمان عصيبة؛ تتزعزع من هولها الصُّم الصُّلاب، فما تلبث أن تنقضي ويعود الرخاء، والازدهار والنماء، وتأتي عليها سنوات عجاف، تتجرع فيها السُّم الزِّعاف، ثم تأتي من بعد ذلك أعوام فيها يُغاث الناس ويعصرون... هكذا تُخيَّلُ إليَّ الدنيا؛ ساحة صراع، ومحل نزاع، غواية وهداية غفوة وصحوة، يرتع الظلم حيناً؛ ليسود العدل أحياناً أخرى، سنن كونية لا تتبدل: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]، تتقاذفنا أمواج الزمن فتبعدنا عن ماضينا، وفي لحظة ركود، وتقهقر وخمود، ينهض الغرب نهضة أذهلت العالم وأدهشته.

وكلمة أخيرة: تأبى مشاعري إلا أن تفيض بها، أهمس بها في أذن حبيبتي الغالية.. وأمي الحنونة تلك هي أرض اليمن.. كما همس الشافعي - رحمه الله - معبراً عن شوقه.. وحبه لأهل غزة قائلاً:

وإني لمشتاق إلى أرض غزة
وإن خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها
كحلت به من شدة الشوق أجفاني

مشاعرك وأحاسيسك يختلط بها دمي ولحمي، أعلم يقيناً كم قاسيتِ من أبنائك الجفاء، وربما الاحتقار والانتقاص ورأيتهم يسومونك سوء البلاء .. مهلاً يا حبيبتي.. لا تلوميهم لستِ السبب، إنما هم حكامهم الذين دنسوا اسمك حين ربطوه بأسمائهم، وأهانوا عَلَمك يوم رفعوه مع صورهم، حينها فقد كره أبناؤك سماع اسمك أو رؤية بريق علَمك.. غير أني أعدك ويعدك إخواني اليمانيون أنهم سيغمرونك حباً، ويعمرونك حقاً، ويسقونك شهداً، ويضعونك في أجفانهم صدقاً، ألا فلتقبلي عذرهم... وانتظريهم فهم على درب إخوانهم سائرون

يُسرى بنت سعيد با صالح (**)

(*) هذا المقال شاركت به الكاتبة في مسابقة (أفضل مقال) التي أقامها معهد القرآن والعلوم الشرعية - للفترة المسائية - ضمن نشاطاته بمناسبة انتصار الثورة الليبية.
(**) الكاتبة استاذة بمعهد القرآن والعوم الشرعية - الشحر، حضرموت - صنعاء.

شمولية الاحتساب

نايف بن محمد اليحيى(*)
@Naif_ALYahya

في وسط سوق المدينة مرَّ المصطفى ﷺ برجل يبيع طعاماً، فأدخل يده فيه، فنالت أصابعه بللاً فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله، فيرشده ويحذره في صورة ناصعة من الاحتساب على (الغش التجاري): «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟!، من غشَّ فليس مني»(١).

وفي صورة أخرى من الاحتساب، في حماية لحق الفرد من الاعتداء ومن الظلم، يمشي في إحدى الطرقات فيرى رجلاً رافعاً سوطه يضرب خادمه فيقول له: «اعلم، أبا مسعود، لله أقدر عليك منك عليه»، فيلتفت فإذا هو برسول الله ﷺ، فيقول: يا رسول الله، هو حرٌّ لوجه الله، فيردُّ عليه: «أما لو لم تفعل للفحتك النار»(٢).

ويأتيه رجل مشرك في مكة يطلب أن يعينه على أبي جهل لمطله حقه، وعدم وفائه له برد ماله، فيقوم معه وهو لا يعرفه، مع صعوبة الموقف لأجل عداوته الشديدة مع أبي جهل، فيطرق عليه بابه فيخرج وهو ممتلئ رعباً فيقول له: «أعط

(*) داعية في وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية.
(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

هذا الرجل حقه»، فيقول: نعم، لا يبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل، فخرج إليه بحقه فدفعه إليه[1].

فالمحتسب ينبغي له أن (ينهى عن المنكرات: من الكذب والخيانة، وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغشِّ في الصناعات، والبياعات، والديانات، ونحو ذلك)[2].

ولم يكتف ﷺ في احتسابه بالمطالبة بحقوق الإنسان؛ بل كان يحتسب على أصحابه في عدم إيذاء الحيوان والإضرار به، ففي أحد أسفاره وجد بعض أصحابه أخذ فراخ حُمَّرة وهي تفرِّش في الأرض حزناً على فراخها، فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد حرَّقوها، فقال: من حرَّق هذه؟ فقال بعضهم: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا ربُّ النار»[3].

ومرَّ بجمل فأقبل عليه فقال: «مَنْ رب هذا الجمل؟»، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه»[4].

وهذه الصور وغيرها كثير يبيِّن عناية الشريعة في الحفاظ على حقوق الناس وعدم ظلمهم، أو الاعتداء على شيء من حقوقهم أو كرامتهم.. وإذا كان هذا في حقوق الخلق فعناية الشريعة بحقوق الخالق أعظم، فالمقصد الأعلى من إيجاد البشرية هو تحقيق العبودية له سبحانه، وأكبر ركيزة تحقق هذه العبودية هي التناصح والتذكير والأمر والنهي، (فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد)[5].

(وإذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي، فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر، وهذا نعت النبي والمؤمنين، كما قال - تعالى -: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره، والقدرة هي السلطان والولاية)[6].

ولذا جعل الله خيرية هذه الأمة مرتبط بقيامها بهذه الشعيرة العظيمة، وحذر من عقوبة تركها أو التساهل فيها، بلْه محاربتها والوقوف في سبيل انتشارها!!.

إذا قرأت النماذج السابقة تبين لك سعة مفهوم الاحتساب وتنوعه، وأهمية قيام الأخيار والمصلحين بما يقدرون عليه من ذلك، فما أحوجنا لسلوك خطى الحبيب ﷺ في شمولية احتسابه، والوقوف مع المظلوم حتى يأخذ حقه، ومع المعتدى عليه حتى يقتصَّ له، والتصدي للمفسد حتى يقف عن باطله، وعلى المنكَر حتى يزول، وعلى الغاشِّ حتى يتقن عمله.

وهنا يرد سؤال يتكرر من بعضهم: أين الإسلاميون عن الاحتساب الشمولي؟ ولماذا تدور أطروحاتهم حول الاحتساب على المنكرات فقط؟.

فيجاب عن هذا: بأن السائل حمل هذا الاعتقاد في داخله لبعض صور الاحتساب التي ضجَّ حولها الإعلام، فحجم مشروعاتهم (في إنكار المعصية) فقط، ولو نظر في الساحة بعين الإنصاف لوجدهم أكثر من يتكلم عن قضايا الفساد والظلم والحقوق وعدم الاعتداء عليها أو المساس بها.

والخطب والمحاضرات والندوات والمقالات التي ساهموا بها في هذا المجال لا يمكن حصرها، لكن التشغيب المبني على الهوى لا على طلب الحق يعمي عن رؤية المحاسن، ويرمي بصاحبه بالبهتان والتدليس في حق من خالفه.

وإن كان هناك تقصير من بعضهم، وبعضهم الآخر قصَّر مفهوم الاحتساب على المنكر فقط، «وهذا لا ينكر» بل هو موجود، لكن الأكثرية عندهم سعي واهتمام بتطبيق الشمولية والعناية بها، وبعضهم قد تخصص في المنكرات وفتح له في إزالتها ولم يبذل أو يتمكن من العناية بغيرها، فهذا على ثغر وقد كفى غيره مؤنة ذلك، فحقه أن يشكر ويعذر، لا أن يلام ويقلل من عمله.

أسأل الله أن يستعملنا في طاعته، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (ص١٩٦).
(٢) الحسبة في الإسلام لابن تيمية (ص١٧).
(٣) رواه أبوداود، وصححه النووي.
(٤) رواه أبوداود، وصححه الألباني.
(٥) إحياء علوم الدين (٢ / ٣٠٦).
(٦) الحسبة في الإسلام لابن تيمية (ص١١).

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

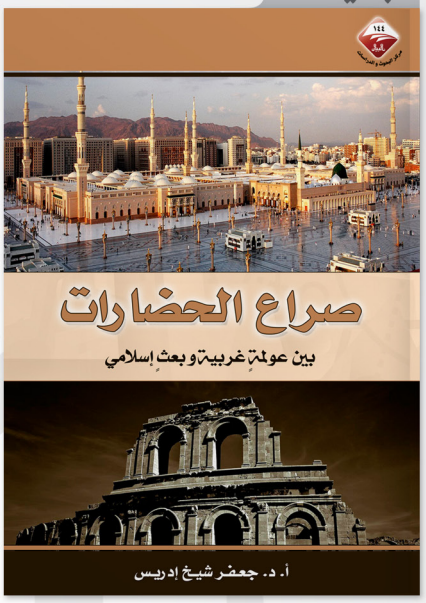

جديد ..

جديد ..

جديد ..

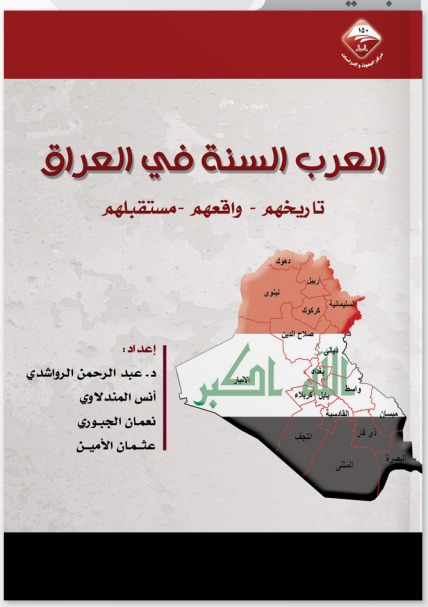

جديد ..

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر شعبان 1433هـ

على المتجر

www.albayan.co.uk

الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة بلقرن

الحساب العام : SA٣٩٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٠٩٩٩٩٢

الوقف : sa٢١٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٠٠٠٥٠٣

حلقات البنين : sa٦٥٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٢٥٧٣٤٣

كفالة حلقة
٥٠٠ ريال شهرياً

كفالة طالب
٢٥٠ ريال شهرياً

كفالة معلم
٥٠٠ ريال شهرياً

الزكاة

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله؟ فقال رسول الله (ﷺ): (من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره).

الزكاة : sa٦١٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٠٩٩٩٨٤

دار الهدى بمعراة

دار الفرقان بشواص

بدعمكم بنيت الدور

دار ذات النطاقين بالحرجة

وبدعمكم يحفظن القرآن

دار الفضيلة بالعلاية

دار مريم بنت عمران بالعمران

الدور النسائية : sa٨٧٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٢٥٧٣٣٥

هاتف : ٠٧/٦٣٠١٣٩٩ - ٠٧/٦٣٠٢٠٨١ - فاكس تحويلة : ١١٤ للتواصل / ٠٥٥٧٧٤٧٧٤١

سبت العلاية الشارع العام بجوار المحافظة ص.ب (٢٠٦) الرمز البريدي (٦١٩٨٥) عسير

موقع الجمعية www.quranb.net **ايميل الجمعية** qw-mn3@hotmail.com